تاريخ الأندلس

في القرن الرابع الهجري

عصر الخلافة

الدكتور أحمد بدر

الدكتور أحمد بدر

تاريخ الاندلس - عصر الخلافة

تاريخ الأندلس

في القرن الرابع الهجري

عصر الخلافة

الدكتور أحمد بدر

المقدمة

يكمل هذا الكتاب ، عن تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري ، الكتاب الأول الذي وضعته لتاريخ هذا البلد من الفتح حتى الخلافة • وقد سرت فيه على نهج الكتاب الأول ، محاولاً تقديم أكمل صورة تمكنني منها المصادر التي اعتمدتها • وأعتقد أن في هذا الكتاب شيئاً من الجدة في الاطار العام• وان الجديد الذي عثر عليه في ميدان الآثار، وفي ميدان المخطوطات العربية ، والذي نشر بعضه حديثاً ، أتاح لي اعطاء تفصيلات جديدة عن تاريخ هذه الفترة ، تضاف الى ما طرحه أئمة هذه الدراسات في اللغات الأجنبية ، كما سمح لي بطرق موضوعات جديدة ؛ كالأثر العميق للفئات والطبقات الاجتماعية في أحداث هذه الفترة • وقد تعرضت أيضاً لبحث آخر لم يدرس سابقاً ، على ما أعلم ، تقصيت فيه علاقة الخلفاء الأمويين في الأندلس بالترويج لنظرية تشيّع لهم •

وأملي ألاّ تكون نواقص عملي كثيرة ولا كبيرة ، بل أرجو أن يسهم بشيء في اغناء المكتبة العربية بدراسات في هذه المادة الهامة من مواد تاريخنا المجيد •

دمشق في ١ تشرين أول ١٩٧٤

أحمد بدر

فهرس

صفحة

الفصل الأول : الخلفاء والحجاب

الفصل الثاني : سياسة الخلفاء الأسبانية

صفحة

الفصل الأول

الخلفاء والحجاب

سمات العصر العامة

يشمل هذا العصر القرن الرابع الهجري الموافق للعاشر الميلادي ، وقد اتسم بخصائص معينة ميزته عن عصر الامارة السابق ، يمكن اجمالها بما يلي :

١ – كان العصر السابق عصر نزاع بين الغالبين ممثلين بالدولة والجند العرب من جهة ، والمغلوبين من جهة ثانية . وقد تمثل هؤلاء المغلوبون بالمولدين قادة الهيجات والفتن في الثغور أول الأمر وفي جميع نواحي الأندلس في آخر عصر الامارة ، وكذلك بالمستعربين الذين كانوا وراء حركة الاستخفاف التي قامت دفاعاً عن ثقافتهم . أما في عصر الخلافة فقد امتزجت عناصر المجتمع من مولدين وعرب ومستعربين وبربر ، وكادت الخلافات العنصرية القديمة تصبح من ذكريات الماضي . وربما بدأت مشاعرهم ، كاندلسيين لهم شخصية خاصة تميزهم عن غيرهم ، بالظهور نتيجة لدخول عناصر غريبة بأعداد كبيرة من بربر جدد وصقالبةوسودان، وكون علاقتهم مع هذه العناصر علاقات خصومة وكراهية متبادلة ، انتقلت آخر العصر الى حرب سافرة ومريرة سقطت وزالت الخلافة الأموية في خضمها .

٢ – يعتبر عصر الخلافة اكثر عصور التاريخ الأندلسي هدوءاً

واستقراراً في الداخل ، الأمر الذي جعل الخلفاء ، وقد تحرروا من المشاكل الداخلية والهيجات والفتن ، يمدون بأبصارهم نحوالخارج فيصرفون سياسة خارجية نشيطة ادت الى بسط سلطانهم ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، على القسم الأعظم من الشمال الافريقي في بعض الفترات • كما استطاعوا اخضاع ملوك الدويلات الاسبانية الشمالية وربطهم بقرطبة برابطة التبعية على النمط السائد في اوربا الاقطاعية خلال العصور الوسطى •

٣ ـ كان من الطبيعي ان يؤدي الازدهار الاقتصادي وازدياد الاتصالات مع كثير من اجزاء العالم المتمدن ومراكزه الحضارية كالقسطنطينية وحواضر المشرق الاسلامي ، الى السير بخطوات سريعة على طريق التقدم الفكري الذي اتضحت معالمه منذ القرن السابق • ونجم عن ذلك ظهور روح الاعتزاز لدى الاندلسيين بما حققوه وتحدي المشارقة ونقد ما يصل منهم ، سواء تمثل بمؤلفات او ترجمات أو اشخاص •• بعد ان كانوا يقبلون في السابق كل ما اتى من المشرق ويسلمون بكل ما يقوله العلماء المشارقة الوافدون على الاندلس •

٤ ـ لم يكن عصرالخلافة ازهى فترة في التاريخ الاندلسي فحسب ، بل أصبحت فيه اسبانيا الدولة الأولى في العالم لأول مرة في تاريخها • ولم تحصل على هذه المرتبة في مدى تاريخها الطويل • الا مرة أخرى فقط وذلك في القرن السادس عشر •

عبد الرحمن الناصر لدين الله

وإعلان الخلافة

بلغ عدد أبناء الأمير عبد الله ، آخر أمراء الأسرة الأموية ، أحد عشر ولداً ، اكبرهم محمد ولي عهده . وقد اشتهر هذا الأمير بكثرة شكوكه فيمن حوله ، وهذا جعله ، على ما يبدو ، يسجن ولي عهده بوشاية من أخيه التالي له في السن ، الذي اتهمه بمداخلة ابن حفصون الثائر . ولقي السجين حتفه في سجنه آخر الأمر ، على اختلاف بين الروايات حول قاتله . فمنها ما يتهم الاب ومنها ما يعزو القتل للاخ ، بعد ان أدرك تحقق الأب من براءة ابنه وعزمه على اطلاق سراحه ، فاستبق ذلك بقتله (١) .

قبل مقتل محمد بن الأمير عبد الله في سجنه بواحد وعشرين يوماً أي في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ / ٦ كانون ثاني ٨٩١م ، ولد له من محظيته مزنة ذكر سمي عبد الرحمن فكفله جده وأشرف على تربيته وتثقيفه . وأصبح مع الايام أقرب الناس اليه(٢) حتى انه اسكنه قصر الامارة من دون سائر أخوته وابنائه الذين اضطروا للعيش في منازل خاصة بقرطبة ، كما جعله كاتب سره ونائبه يقعده في بعض الايام والاعياد مقعد نفسه لتسليم الجند عليه . فهل كان هذا التقريب نتيجة لعطف الجد على حفيد يتيم قتل والده مظلوماً ؟ أم كان الجد هو القاتل لابنه فحاول التكفير عن ذنبه بهذه العناية وتلك الرعاية ؟ أم كان ذلك لضرورات سياسية رآها عبد الله فكل من حوله من اخوة وابناء كبار في السن يخشى خيانتهم أو اغتيالهم له اذا شاركوه العيش في قصره ، وتآمرهم عليه اذا أعلى من مكانتهم أمام الناس ؟

توفي الأمير عبد الله يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ ووجه رجال القصر حفيده عبد الرحمن لخلافته ، رغم ان جده لم يجعله

---

(١) انظر الروايتين في البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ و ١٥٦ .

(٢) انظر تفاصيل العلاقات بينهما في المقتبس ، تحقيق ملتشر ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

ولياً لعهده رسمياً . لكنه كان اقرب الناس اليه ، فهو الوحيد الذي شاركه في السكن وأنابه مكانه ، كما انـه رمى بخاتمه اليه عند مرضه ابانة منـه لاستخلافه(١) . وقبل الجميع بهذه الامور كحجة لشرعية وراثته لجده ،أما عن قناعـة بضرورة احترام ارادة صاحب الأمر بمن سيخلفـه . أو لأن عبد الرحمن هو الوريث الشرعي لوالده ولي العهـد الرسمي . أو لأن امارة الأندلس بدت للكثيرين منهم غرماً أكثر منها غنماً . فلا زالت طاعة الأندلس كلها باستثناء قرطبة اسمية أكثر منها فعلية.وما يدفع لخزانة الأمير من مال ، غالباً ما كان يأتي بحملة عسكرية .

وعلى كل حال ، فقد جلس عبد الرحمن يوم وفاة جده في محراب المسجد الكامل بقصر قرطبة لتلقي البيعة . فتلقاها من الناس على مختلف طبقاتهم ، وكان في مقدمتهم اعمامه واعمام ابيه وبعدهم طبقات قريش تتلوها صفوف الموالي ثم عامة الناس .

كان عبد الرحمن في الثالثة والعشرين من عمره عندما ارتقى العرش ، اذ كان مولده في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ / . ويورد لنا المؤرخون القدماء صفاته الجسدية بالقول : « انه كان ابيضا اشهلاً حسن الوجه عظيم الجسم قصير الساقين،كان ركاب سرجه يقارب الشبر ، وكان طويل الظهر »(٢).

أما صفاتـه النفسية وقدراته الانسانية فقـد قدّر له أظهارها كلهـا نتيجة حكمه الطويل الذي استمر خمسين عاماً تقريباً . وتبدو هذه الصفات، اذا قسناها بأعماله المعروفة والمشهورة ، رفيعة ونادرة . اذ تحقق في عهده اعادة بسط سلطان امير قرطبة على الاندلس الاسلامية كلها بشكل مباشر . كما أصبحت الدويلات المسيحية في شمال شبه الجزيرة الايبيرية وقسم كبير من القبائل البربريـة في شمال افريقيا تدور في فلـك سياسة قرطبة ايضا وتدين بالولاء لسلطانها . وفي عهده ايضا قفزت الاندلس لتحتـل مركز الصدارة بين دول العالم المتمدن آنذاك سياسياً واقتصادياً .

(١) اخبار الناصر ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٥٣٥ .

اخضاع الأندلس

قضى عبد الرحمن نصف سني خلافته في اعادة نواحي الاندلس الى حظيرة الطاعة • إذ كانت الأندلس في امارة جده عبد الله عاصية كلها ، على خلاف بين العصاة في مدى العصيان واهدافه • فبعضهم كان يطمع في ازالة سلطان الامارة الاموية في قرطبة والحلول محلها ، وكذلك الاجهاز على سلطان العرب واستبداله بسلطان المولدين ، وهذا كان هدف ثورة عمر بن حفصون • وهناك عصاة قنعوا بالاستقلال في مناطق معينة مكنتهم سعتها وغنى مواردها من اقامة دويلة فيها ، كما هو حال بني مروان الجليقي في الثغر الادنى وبني حجاج في اشبيلية • واخيرا وجد نوع من العصاة الصغار اقتصر مدى سلطانهم على حصن أو عدد قليل من الحصون امتنعوا بها • ومالأ بعضهم ابن حفصون خوفاً منه اذا كان مجاوراً له ، أو بسبب مشاركته في العصبية المولدية اذا كان الممتنع مولدا • كما ان بعضهم الآخر خضع للأمير اسمياً وعبّر عن تبعيته له بدفع جزء من المال له مقابل عهده له بحكم حصنه أو منطقته ، وغالبا ما كان الدفع اثر حملة عسكرية وأكثر هؤلاء كان في شرق الاندلس •

أما موازين القوة بين الامارة الاموية وهؤلاء العصاة فقد بدأت تميل الى جانب الامير بشكل ملحوظ ، اذ استطاع ان يكبح جماح الثائر ابن حفصون بعد ان اوشك هذا على احتلال قرطبة ، ثم افقده القدرة على المبادهة وحدّ من امكانياته في العمل ضمن الحصون التي يحتلها في مقاطعة رندة والحصون الأخرى القليلة في الكور المجاورة ، أي في رية والبيرة وجيان ، وكرّر عليه الحملات في كل عام • ولكي يتفرغ لهذه المهمة تسامح مع السلالات شبه المستقلة في الثغور ، وكذلك مع أصحاب الحصون شريطة دفع الاتاوة • استمر عبد الرحمن بعد ارتقائه عرش الامارة في اتباع سياسة

جده المتعلقة بمهادنة المستقلين من اصحاب السلالات في الثغور ، والاستمرار في حرب ابن حفصون • الا انه عدل عن سياسة قبول الاتاوة من اصحاب الحصون والمناطق الصغيرة مقابل منحهم الاستقلال في حكمهم لها والاعتراف بشرعية هذا الحكم • ولم يعد يقبل منهم الآن الا النزول عن حصونهم ومناطق حكمهم والانتقال الى بلاطه حيث يعملون في جيشه • أما الحصون فغالباً ما كانت تهدم أو تشحن بحامية يرسلها الأمير من قرطبة • واستغرق تنفيذ هذه المهمة من عبد الرحمن سبعة عشر عاماً • وعند الانتهاء منها التفت لاخضاع الثغور فتم له ذلك بعد ثماني سنوات أخرى •

المرحلة الأولى ـ قمع حركة آل حفصون

وفيها أخضع كل نواحي الاندلس باستثناء الثغور • وبدأها بتوسيع القاعدة التي تتحكم فيها الامارة الاموية مباشرة وهي قرطبة ، وما حولها • فبعد توليه الحكم مباشرة أمن شمالها بارسال حملة الى البربر المقيمين بجبال البرانس[1] • وزادت قاعدته اتساعاً نحو الشمال عندما تقرّب اليه احد الثائرين وهو يحي بن ذي النون بقتل ثائر آخر على الامارة بقلعة رباح وقدّم له رأسه[2] • أما من جهة الغرب والجنوب فقد أرسل حملة بعد توليه بأقل من شهرين ونصف الى استجة ، اقرب المراكز الثائرة التي ينطلق منها ثوار الجنوب الى قرطبة ، فهدم اسوارها وجسرها الذي يسير عليه عصاة الجنوب الى قرطبة • ثم ازداد سلطان عبد الرحمن توطداً في الجنوب باعلان عرب البيرة ولاءهم له وحمل وفد من وجوههم البيعة الى قرطبة[3] •

لكن العملية الأساسية بين أعمال عبد الرحمن في هذه المرحلة ، كانت

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٥٩ •

(٢) المقتبس ، تحقيق ملتشر ، ص ١٧ ـ ١٩ وتختلف عنه رواية ابن عذاري ج ٢ ، ص ١٥٩ لأنها تجعل قاتل الثائر في قلعة رباح أحد قواد الخليفة وليس الثائر ابن ذي النون •

(٣) ابن الابار ، التكملة ج ١ ، ت ٩٦٧ ، ص ٣٥٩ •

القضاء على عصيان المولدين في الجنوب بزعامة ابن حفصون ، لأنه ما زال أقوى حركات العصيان ، رغم الضربات التي كيلت له وقلّلت من قوته • وربما يعود السبب في ذلك الى طموح زعيمه ، كما بينته الاحداث الداخلية واتصالاته الخارجية مع اعداء الامويين الخطرين في الشمال الافريقي كالأدارسة اولاً ، ثم ازداد خطر هذه الاتصالات عندما اصبح المسيطرون على المغرب لا امراء صغار كالأدارسة وانما الفاطميون اصحاب الدولة القوية التي كاد سلطانها يشمل الشمال الافريقي بكامله •

تبدو خطة عبدالرحمن في الاجهاز على هذه الثورة ، من خلال أعماله، في منتهى الحكمة • اذ كانت تقوم على القضاء اولاً على ما يشبه الهالة من الثوار الصغار الذين تحيط حصونهم بمنطقة عصيان ابن حفصون • ثم تطهير منطقته بالذات عن طريق احتلال الحصون المتطرفة والتوغل تدريجياً نحو حصن ببشتر قاعدته الاساسية •

وهكذا ما أن لاحت بشائر الربيع وانقضى فصل الشتاء حتى سار على جيش للغزو من قرطبة في ١٣ شعبان سنة٣٠٠هـ/٢٦ آذار سنة ٩١٣م وكان خط سيره على شكل قوس يمتد من جنوب شرق قرطبة في منطقة جيان حتى حصن شلوبينية على البحر • واحتل في هذه الغزوة التي استغرقت قرابة ثلاثة أشهر سبعين حصناً وتوابعهما من المعاقل المحصّنة التي يبلغ عددها ثلاثمائة•وكانت الخطة في كل واحدة اخضاع اتباع ابن حفصون وقتلهم ان كانوا مسيحيين ، واخراج البقية عن حصونهم والحاقهم بجيشه • أما الحصون فكان يبقيها ويشحنها بجند من لدنه اذا رأى ضرورة لابقائها ، وهدمها فيما عدا ذلك •

أما الغزوة الثانية فقد قامت في العام التالي ، وبدأت في ٨ شوال عام ٨/٣٠١ مايس عام ٩١٤ • وفيها خرق الأمير عبد الرحمن اقطاع ابن حفصون الخاص واحتل الحصون المتطرفة منه حتى وصل الى البحر ، حيث طهر حصون الثائر الساحلية من طرّش خشين حتى الجزيرة الخضراء •

وبذلك حرم الثائر من الاتصال مع شمال افريقية ، حيث مورد المؤن له ، وقد لقي أثناء سيره على الساحل سفناً تحمل المؤن له من هناك فأحرقها[1] .

توقفت الحملات على هذا المستوى خلال السنتين التاليتين لحلول الجفاف في الاندلس ، الامر الذي جعل ارسال جيوش ضخمة مستحيلاً لضعف واردات الامير وعجز الجيش عن الحصول على المؤن والعلف في طريقه . لذا اكتفى الامير بارسال الحملات الصغيرة ، التي كانت كافية لاخضاع عصاة صغار ، وخاصة في شرق الاندلس . وسلك المسلك ذاته مع ابن حفصون ، فلم تكن الغاية من الغزوات الصغيرة ، على ما يظهر ، احتلال شيء جديد من اقطاع العاصي وانما ابقاؤه حيث هو ومنعه من استعادة ما فقد وكان الظرف مواتياً لتحقيق هذه الغاية ، لان الثائر شاخ وضعف جسمانيا واعتكف في الكنيسة للعبادة ، الى ان وافاه أجله في ربيع الاول سنة ٣٠٥ هـ / ايلول ٩١٧م .

كان لموت ابن حفصون رنة فرح في اوساط المسلمين والعرب وعكسها لدى المولدين والمستعربين . وكان له أربعة أبناء ، الا أن التوقع كان عاماً ، على ما يظهر ، بأن احداً منهم ليست له صفات ابيه . كما ان تعدد الابناء يؤدي غالبا الى الخلاف فيما بينهم ، مما يسهل امر القضاء على حركتهم . ورغم كل ذلك استمرت الثورة عشر سنوات اخرى ، لا يمكن تعليلها الا بارتباط بعض المولدين الشديد بها ومقاومة الهجمات عليها بضراوة وكذلك مناعة منطقة العصيان طبيعياً ، وانشغال الامير في نواحي الاندلس الاخرى لادراكه تضاؤل خطر الثورة .

كان جعفر اكبر ابناء عمر بن حفصون ومثله اعتنق المسيحية ، وحل بعد موته في قصره حصن ببشتر . أما الثلاثة الباقون من الابناء فقد ظلوا مسلمين . وبرز منهم سليمان الذي احتل حصناً كبيراً في منطقة البيرة ، كان من قبل خاضعاً للأمير . وحذا حذوه أخوه عبد الرحمن واحتل حصناً على

---

(١) انظر : المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية في الرباط ، ورقة ٤٧ـ٤٨ .

شاطىء الكورة ذاتها • أما حفص الاصغر فلم يترأس شيئا وبقي بمعية اخيه الاكبر جعفر •

وجه الأمير عبد الرحمن قواته ضد سليمان وعبد الرحمن ابني عمر ابن حفصون ، فاحتلت حصنيهما وحملت كلاً منهما الى قرطبة،حيث ركن عبد الرحمن الى الطاعة وامضى بقية حياته يتعيش من نسخ الكتب ، بينما هرب سليمان ليتابع مع اخيه سيرة العصيان •

ووجه الأمير عبدالرحمن في السنة التي تلت موت عمر بن حفصون اكبر قسم من قواته ضد منطقة الثورة الاساسية ، جريا على السياسة السابقة فاكتفت هذه القوات باحتلال مركز كبير على طرف منطقة الثورة يطابق مدينة انتقيرة،ثم برزت أمام حصن ببشتر،فعرض العاصي الطاعة والرهائن والجزية فقبلها عبدالرحمن • وعندما ارتفع ضغط الامارة عن العصاة قاتلوا بعضهم بعضاً فسليمان الهارب الى كنف اخيه ، حاك مؤامرة ضده ادت لقتله في ١٣ جمادى الثانية عام ٣٠٨ هـ/٣٠ تشرين أول عام ٩٢٠ م ، فحل مكانه • وحاول الزعيم الجديد أن يبث في العصيان حياة جديدة ونجح في البقاء ست سنوات • وكانت طريقته في ذلك الهجوم لجعل امير قرطبة منشغلاً باستعادة ما فقد بدلاً من التوجه لمعقل الثورة الرئيسي • لكن قوى العاصي لم تكن كافية لمثل هذه الاعمال ، كما ان التماسك الداخلي ، في منطقة العصيان ، اضحى مفقودا • اذ لم يغفر المسيحيون له ايقاعه بأخيه جعفر ، ابن دينهم ، وتآمروا عليه مما اضطره لطرد أسقف المنطقة • وكان رد الامير سريعاً ايضا ، فاستعاد كل المناطق المفقودة اولا ، ثم توجه نحو بيشتر بالذات ، وقتل سليمان بن عمر بن حفصون في معركة جرت بجواره ١ ذي الحجة ٣١٤هـ / ٧ شباط عام ٩٢٧ •

حل مكان سليمان اصغر اخوته حفص • لكن عبد الرحمن لم يمهله طويلا بل سار بعد ثلاثة أشهر فقط متوجهاً نحو حصن ببشتر وفرض عليه حصاراً دائما • اذ لا يمكن مهاجمته ، نظرا لطبيعته التي بيناها سابقا ، بقوات

كبيرة ولذا لا بد من عزله مما حوله بالتدريج وقطع الاتصال معه مما يهدد حماته بالموت جوعا • ولتحقيق ذلك لا بد من بقاء القوات بجواره بشكل دائم ، لا الغزو في الصيف والعودة في الشتاء ، كما جرت الحال حتى ذلك الوقت • وهكذا امر الامير احد وزرائه بالبقاء مع الجيش وبناء حصن مجاور لحصن الثائر حتى يستسلم • وبعد تسعة أشهر من هذا الحصار ادرك حفص استحالة المقاومة بعد ان ضاقت عليه الحلقة بالتدريج فاستسلم ودخلت قوات الامارة الحصن في ٢٣ ذي القعدة عام ٣١٥/١٩ كانون الثاني ٩٢٨م وحمل حفص وعائلته الى قرطبة(١) •

قضي بذلك على هذه الثورة التي استمرت ما يزيد عن خمسين عاما ، ولم يتمثل خطرها بطول هذه المدة فقط بل بقربها من مركز الامارة الاموية الذي جعلها تهدّد عرش الامويين ، وبطموح صاحبها الاول لامارة الاندلس وبتعصب المولدين والمستعربين له مما يجعل نجاح ثورته لا تغييرا في شخصية الامير فقط بل انقلاباً كاملا وتغييرا في جنسية الحكم ودين الحاكمين • ولعل في طريقة معاملة الأمير عبدالرحمن الثالث للعصاة في حركة ابن حفصون ما يدل على شعوره بمدى هذا الخطر ، فبينما كان مصير العصاة الآخرين بعد استنزالهم من حصونهم تسجيلهم في الملاحق واعطاءهم المناصب العالية ، نرى سليمان بن عمر بن حفصون يمثل به بعد مقتله في المعركة فتقطع يداه ورجلاه ويبعث بجثته ويديه مبعّضة مفترقة لترفع على باب السدّة بقرطبة في خشبة عالية ، وفي الاجراءات التي اتخذها عبد الرحمن اثر سقوط ببشتر ما يدل على نفس الشعور • فقد قدم في العام التالي خصيصا لدخول الحصن وأكثر بعد دخوله اليه من حمد الله على ما فتح له ويسر ، والتزم الصوم ايام مقامه في الحصن ، ثم امر بنبش جثماني عمر بن حفصون وابنه فكشفت قبورهما وأشهد الفقهاء والغزاة معه كيف تم دفنهما على المسيحية • فاستخرجا من لحودهما وأتي بأعظمهما الى باب السدّة في قرطبة فرفعت

(١) انظر عن سقوط ببشتر : المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط ، ورقة ٨٨ـ٩١ •

في جذوع عالية إلى جنب سليمان بن عمر وظلت معلقة دون نية في انزالها مدة خمسة عشر عاماً تقريبا ، وبعدها فاض النهر وذهب بالجذوع[1] . كما اعتبر عبد الرحمن نهاية هذه الثورة وسقوط معقلها بيده مبرراً كافيا ليعلن تقلده منصب الخلافة ويتلقب بالخلافة بدل الامارة التي تلقب بها أسلافه ، وليعلن لقبه الديني الناصر لدين الله على عادة الخلفاء العباسيين في المشرق.

اخضاع اشبيلية

لم تقتصر نشاطات الناصر في السنوات الست عشرة التي تلت ارتقاءه الحكم على محاربة آل حفصون وشيعتهم بل كان يستغل الفرص التي تسنح له للاجهاز على ثوار آخرين ، كضعف ينتاب العصاة أو انشقاق يحدث بينهم. ونجد مثلا على ذلك في اشبيلية . حيث سلك صاحبها ابراهيم بن حجاج سلوك الامراء الاقطاعيين ، معتبراً ما استقل به ملكا شخصيا يتقاسمه ابناؤه بعد وفاته . وقد أجرى هذا التقسيم قبل وفاته التي حدثت عام ٢٩٨ هـ / ٩١٠ ــ ١١ م بعدة سنوات ونال موافقة الامير عبد الله الشكلية عليها . وبموجبها نال الابن عبدالرحمن اشبيلية والابن محمد مدينة قرمونة . وفي المحرم من عام ٣٠١ هـ / آب ٩١٣ ، توفي صاحب اشبيلية ، ولم يعهد اهل اشبيلية بحكم مدينتهم لاخيه صاحب قرمونة بل لابن عم ابيه احمد بن مسلمة .

حاول الامير الجديد دعم سلطانه بالشرعية المتمثلة بموافقة الامير القرطبي على الامر الواقع . لكن عبد الرحمن الثالث غيّر السياسة المتبعة في عهد جده ولم يكد يمضي على ارتقائه العرش أكثر من عام ، وهي السياسة التي تقوم على الاعتراف بالامر الواقع مقابل كمية معينة من المال ، فرفض الاعتراف بالامير الجديد كأمير لأشبيلية ، مالم يمثل بين يديه اولا في القصر أي أنه اتخذ سياسة جديدة هي فرض سلطانه المباشر ، وربما نتج هذا التغير في سياسته لا عن شعوره بقوة امارته فقط ، بل لاحساسه بضعف آل حجاج

---

(١) اخبار الناصر ، ص ٧٧ .

وتصدّع صفوفهم ، لأن مملكتهم انقسمت الى قسمين متناحرين ، اذ كان صاحب قرمونة ينظر لحكم اشبيلية كارث له من اخيه وقد اغتصب منه • وهذا ما يقدم فرصة ثمينة لامير قرطبة كي يسترد ما امتلكه آل حجاج والذي يعد من اغنى اجزاء الاندلس •

رفض ابن مسلمة المثول بين يدي امير قرطبة ، فأرسل اليه الامير جيشا لحصار اشبيلية • وانضمت للجيش المحاصر فيما بعد قوات ابن حجاج صاحب قرمونة ، اما ابن مسلمة فاستنجد بدوره بابن حفصون زعيم الثائرين في جنوب الاندلس ، لكن هذا هزم مما اضطر صاحب اشبيلية للاستسلام في ١٩ جمادى الاولى من نفس السنة / ٢١ كانون اول ٩١٣ م ، وحمل بعدها الى قرطبة حيث تصرّف في عدة مناصب لدى الامارة الاموية[١] •

وبعد سقوط اشبيلية استطاع الامير القرطبي ضم قرمونة ايضا لسلطانه وقدّم سلوك صاحبها مبررا له للقيام بالعملية • ذلك لانه رأى الامير الاموي يعيّن على اشبيلية ، بعد سقوطها ، احد الولاة رغم حقه في حكمها عن طريق الارث من ابيه واخيه وكمكافأة على المساعدة التي قدمها للامير في فتحها • لكن ابن حجاج فشل في احتلالها بعد هجومه عليها ، ثم ادرك على ما يظهر استحالة الدفاع عن قرمونة ذاتها ، فأتى قرطبة مستسلما في رمضان سنة ٣٠١/نيسان ٩١٤ [٢] •

اخضاع شرق الأندلس

في السنوات الاخيرة من ثورة ابن آل حفصون ، استغل عبد الرحمن الثالث ضعف هذه الثورة وقلّة خطرها ، ليوجه قواته ضد شرق الاندلس فيخضع العصاة فيها خلال السنوات بين ٣١٢/٣١٧هـ وكان شرق الاندلس

---

(١) انظر عن سقوط اشبيلية : العذري ، ترصيع الاخبار ، ص ١٠٣ـ١٠٤ • المقتبس تحقيق ملتشر ، ص ١٣١ • أما الحميري في الروض المعطار ، ص ٢٢٠ فانه يجعل سقوطها في الخامس من نفس الشهر •

(٢) المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط ، ورقة ٤٩ـ٥٠ •

يغص بالثائرين ، بينهم صغار اخضع اغلبهم في السنة الاولى ، وبينهم كبار كبني الشيخ اصحاب قليوشة ولقنت ، من كورة تدمير ، وعامر بن أبي جوشن ، أحد زعماء آل ذي النون الذي كان سيداً لشاطبة وجزيرة شقر من منطقة بلنسية وكذلك مدينة التراب • وقد استغرق اخضاع هؤلاء الكبار عدة سنوات[1] •

المرحلة الثانية ـ اخضاع الثغور

كانت تحكم الثغور في عهد الأمير عبد الله اسر شبيهة بالأسر المالكة ، ويرتبط زعماؤها بالامير القرطبي برابطة الولاء الشخصي ، دون ان يتدخل هذا في قليل أوكثير في شؤونهم،أو يعترض على تصرفاتهم في حروبهم ضد بعضهم بعضاً • وسار عبد الرحمن الثالث على سنة جده خلال الاعوام الستة عشر الأولى من حكمه ؛ فقد كان يسجل لهم على مناطقهم ويقومون بدورهم بتقديم العون العسكري له في الغزو • وفيما عدا ذلك ظلوا كما كانوا يُغير الواحد منهم على اراضي الآخر ، وحتى على اراضي الامير ذاته ، وكان مجرد اعتذارهم واعلان توبتهم كافياً لرضاه عنهم[2] •

ويمكن أن نفسر سبب قبول عبد الرحمن بواقع الثغور طيلة هذه الأعوام بانشغاله بالعصاة الآخرين الأكثر خطراً على عاصمته والأقرب منالاً اليه ، اضف الى ذلك انه كان قاصراً عن اخضاعهم اذا كانوا في موقف قوي فهم اما عائلات اقطاعية قديمة في مناطقها ، وبعضهم كان محارباً ارتقى الى مرتبة الملك منذ ما يزيد عن نصف قرن وعدا عن كل ذلك كانوا بعيدين عن العاصمة وقريبين من مواطن الدويلات المسيحية في الشمال ويخشى من تحالفهم معها ضد الأمير القرطبي • وبعد انقضاء الأعوام الستة عشر من حكمه تغير وضع عبد الرحمن الثالث فلم يعد مشغولاً بالثوار الآخرين ،

---

(١) انظر عن هؤلاء العصاة : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ثم العذري، ترصيع الاخبار ، ص ٩ ــ ١٥ • والمقتبس تحقيق ملتشر ، ص ٢١٠ و ٢٣ •

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ في ص ١٨٩ • واخبار عبد الرحمن الثالث ، ص ٥٦ •

كما انه اصبح يتصرف بطاقات اجزاء الأندلس الأخرى ، الاقتصادية منها والعسكرية ، مما يوفر له من القوى ما يكفيه لمواجهة اصحاب الثغور وحلفائهم المكنين من النصارى. يتبين من عمليات عبد الرحمن ضد الثغور، انه سار على خطة بسط سلطانه على الواحد منها تلو الآخر مبتدئاً بالاقرب منالا في الغرب ومنتهيا بالابعد في اقصى الشمال الشرقي . وسلك في محاربتها طريقته في محاربة ابن حفصون اذ يقيم الحصار على حاضرة الثغر الى ان يستسلم .

اخضاع بطليوس والثغر الأدنى

تأرجح مركز هذا الثغر بين ماردة على نهر آنة وبطليوس الى غربها عند انعطاف النهر نحو الجنوب . وقد استقر اخيراً في هذه المدينة الاخيرة التي ابتناها وحصنّها من ثار بها في آخر عصر الامارة المولد ابن مروان الجليقي ، ثم استقل بها واعترف به الأمراء ، فأنشأ أسرة حاكمة وتعاقب على عرشها بعد موته ابن له وحفيد من ابن آخر . ومن مدينة بطليوس حتى المحيط الاطلسي في الغرب والجنوب جاورت بني مروان الجليقي اسرتان من المولدين، احداهما في كورة باجه والثانية في كورة اكشونبة على الشاطىء . واصبحت الاسر الثلاث البآ على من خالفها ويداً على من خرج عنها[1] .

توجهت قوى عبد الرحمن الثالث ضد هذا الثغر منذ عام ٣١٦هـ/ ٩٢٨م ومهدت لمهاجمة بطليوس قاعدته ، باحتلال المراكز المحيطة بها في الشرق والشمال الشرقي ، وهكذا احتلت ماردة وشنترين . وفي العام التالي كانت الحملة الكبيرة التي قادها عبد الرحمن بنفسه ، وتوجه بها رأساً الى بطليوس التي فرض عليها الحصار بعد انتساف الزروع من حولها. ويظهر انه ادرك طول الزمن اللازم لاجبارها على التسليم ، فترك عليها من يحاصرها

---

(١) في مدينة باجة كان بنو عبد الملك بن أبي الجواد ، وقد آل الحكم فيهم قبيل سقوط دولتهم الى عبد الرحمن بن سعيد بن مالك . وفي اكشونبة بنو بكر بن يحيى بن بكر وقد آل حكمها آنذاك الى خلف بن بكر ، انظر : المقتبس تحقيق ملنشر ، ص ١٥ ــ ١٦ .

وذهب للقضاء على حلفاء بني مروان الجليقي في الجنوب لانهم اضعف ، كما أن القضاء عليهم ضروري لئلا يهددوا قواته المحاصرة لبطليوس . وهكذا ضرب الحصار على باجة التي انهكها العطش وأودى بحياة الكثيرين من سكانها ، فاستسلمت بعد حصار دام قرابة شهر ونصف ،وحمل صاحبها ومن حوله الى قرطبة وعيّن عليها والياً من قبله[1] . وخاف صاحب اكشونبة مصيراً كمصير جاره ، فلقي عبد الرحمن مستأمناً وهو في طريقه الى بلده . فكفل له ذلك البقاء في حكم مدينته ، بعد استسلامها ، بشروط معينة ونزولاً عند طلب ورجاء من أهلها . أما بطليوس فظلت تقاوم حتى العام التالي ، ثم استسلم صاحبها فحمل الى قرطبة مع اهله وذوي الشوكة من اصحابه فسكنوا قرطبة والحقوا بالملاحق السنية[2] .

اخضاع طليطلة وشنتبرية

بعد اخضاع الثغر الأدنى ، جاء دور الثغر الأوسط ، وفيه المدينة الشهيرة طليطلة عاصمة القوط القديمة ، القائمة على نهر التاجو ، والتي اشتهرت بعصيانها المتكرر على الامراء الامويين . لذا كان من الطبيعي ان تستقل في فترة الحرب الاهلية ، أيام الامير عبد الله ، وتبقى كذلك في اول أيام عبد الرحمن الثالث . وفي نفس العام الذي سقطت فيه بطليوس ، ارسل عبد الرحمن وفداً من كبار موظفيه وجلة الفقهاء للاعذار الى الطليطليين ودعوتهم للدخول في حظيرة الجماعة.وعندما أجابوا بشكل غير مرض توجه ضدهم في صائفة ذلك العام ، فاستسلم له أول الأمر حصن متقدم للمدينة ، اتخذه الطليطليون نقطة استناد للدفاع عن مدينتهموقاعدة للانطلاق منه في الهجمات على الأراضي الخاضعة للامارة الاموية . وبعد ذلك هاجم عبد الرحمن المدينة من جهتين ، ثم نظم امور حصارها على أساس استمراره زمناً طويلاً ، اذ أمر ببناء مدينة بجوارها دعاها « الفتح »

---

(١) اخبار عبد الرحمن الثالث ، ص ٦٤ .

(٢) المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط ، ورقة ١٠٠-١٠١ .

على جبل جرنكش المطل على سهلة طليطلة واجنتها وكرومها ، واقام فيها الاسواق ، في الوقت الذي احتل جميع الحصون المحيطة بالعاصمة المحاصرة. وعند ذلك غادر عبد الرحمن الى قرطبة ، بعد ان اوكل امر الحصار الى أحد القواد. استمر الحصار ما يزيد عن سنتين، استنجد خلالهما الطليطليون بالمسيحيين ، لكن نجدات هؤلاء هزمت على يد الجيش المحاصر ، كما ان المجاعة تفشت . وفي الخامس والعشرين من رجب عام ٣٢٠هـ /٢آب ٩٣٢ خرج مقدم المدينة الى عبد الرحمن ، الذي وصل آنذاك الى مدينة الفتح ، وعرض طاعته وطاعة بلده فأمنه الناصر واياهم . ثم دخل المدينة وهدم منها ما ارتأى ازالته وابتنى فيها قصبة لتكون مقراً للقواد(١) .

بعد سقوط طليطلة ، تخلّص الناصر من آل ذي النون ، وهم من البربر المقيمين في شنتبرية الى الشمال الشرقي من طليطلة . وقد استقلوا بالمنطقة منذ ايام الامير عبد الله وتقاسموا حكم مدن المنطقة شنتبرية ووبذه واقليش ، كما حكم بعضهم بعض الاماكن في منطقة بلنسية . وفي ايام عبد الرحمن الثالث لم يكونوا يقومون بمستلزمات الطاعة ، الا عندما يشعرون بقواه تهددهم . وكان يتغاضى عنهم ويقبل عودتهم للطاعة مبقياً لهم على ما بيدهم . وجاء دور اخضاعهم بعد سقوط طليطلة ، عندما استنزل رأسهم عام ٣٢١ هـ / ٩٣٣م وحمل الى قرطبة(٢) . لكننا نرى بعد امد قصير ، بعض زعماء هذه العائلة يلجأون للثغر الاعلى ويعملون مع الثائرين فيه ضد الخليفة .

اخضاع منطقة الثغر الأعلى

نقصد بالثغر الاعلى تلك المنطقة الواقعة على نهر ابره وروافده الشمالية التي تقع بينها وبين مملكة بامبلونا البشكنشية ، وكذلك روافد هذا النهر

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ و ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .
(٢) العذري ، ترصيع الاخبار ، ص ١٥ . المقتبس تحقيق ملتشر ، ص ١٧ ـ ١٩ .

الجنوبية التي تحاذي منطقة الثغر الاوسط • ومركز هذا الثغر مدينة سرقسطة الواقعة على نهر ابره •

منذ اوائل ايام الامارة الاموية كانت بعض مناطق هذا الثغر اكثر المناطق استقلالاً عن سلطان قرطبة ، وهذا طبيعي لبعدها وقلة العرب في كثير من نواحيها • ونجد تعبيراً عن هذا الاستقلال في اسرة بني قسي الاقطاعية التي عرفت الاستقلال في بعض المناطق وسيطرت حتى على سرقسطة قاعدة الثغر • ولكي يرد عليهم الامير محمد قرّب عائلة بني تجيب وأعطاهم أحد الحصون التي بناها لتحصين خط الحدود ضد النصارى والواقع ضمن منطقة الثغر وكلفهم بمحاربة بني قسي مقابل مال معلوم يؤديه لهم • وادى هذا العمل لاضعاف بني قسي ، فاستطاعت الامارة الاموية ان تنتزع منهم سرقسطة وعددا من الحصون ، وانعزلوا في أقصى الشمال الشرقي من المنطقة • لكن ضعف الامارة الأموية أثناء فترة الحرب الأهلية دفع التجيبيين بقوة الى المقدمة فاحتلوا كل ما كان للأمير القرطبي الذي لم يعد يستطيع دفع المال لهم •

تولى عبد الرحمن الثالث عرش الامارة ووضع التجيبين على ما كان عليه بينما تلاشت بقايا سلطة بني قسي في اقصى الشمال الشرقي من المنطقة لمصلحة اسرة بني الطويل ، التي ظهرت حديثا على مسرح الاحداث ، واحتل زعماؤها مدينة وشقة آخر معاقل بني قسي ، ثم امتد سلطانهم باتجاه الشرق من هذه المدينة الى بربشتر في الوسط وطرطوشة في أقصى الشرق على مقربة من البحر •

سار عبد الرحمن الثالث حتى سنة ٣١٩هـ / ٩٣١م على سياسة ترك هاتين الأسرتين وشأنهما في منطقة الثغر • فعندما يتخاصم زعماء أسرة من الأسر مع بعضهم ، أو عندما يتقاتلون مع زعماء اسر اخرى ، كان يقف موقف المنتظر لما يسفر عنه الصراع ليسجل لكل متغلب على موضعه • كما لم يحرك ساكنا تجاه علاقاتهم سواء الحربية أو الودية وحتى المصاهرة مع النصارى ،

ما داموا يعبرون عن ولائهم بتقديم المعونة له عندما يقوم بالغزو في الشمال • وبعد سقوط طليطلة جاء، على ما يظهر، دور بسط السلطان على الثغر الأعلى• فامتنع عن الاعتراف بحكم اي امير على منطقته ما لم يمثل بين يديه ، وأرسل وزيرا للثغر عاد وبرفقته عدد من امراء بني تجيب وبني الطويل فأسجل لهم على اماكنهم بعد ان التزموا بقطيع من الجباية اضافة لتقديم المعونة العسكرية • ظلت الجباية ترد مدة سنتين ، وفي السنة الثالثة أي سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م بدأ الخلاف يدب بين الطرفين • اتهم عبد الرحمن صاحب سرقسطة محمداً بن هاشم التجيبي بنكث العهد والنكوص عن تقديم المعونة العسكرية • ووصل الخلاف الى ذروته عندما حاصر جيش لعبد الرحمن الثالث مدينة سرقسطة ، فانضم لمحمد بن هاشم كل امراء الثغر الاعلى سواء اكانوا من بني تجيب أو بني الطويل ، وحتى بقايا بني ذي النون• لكن الهزيمة حاقت بالجميع وسقطت كل مراكز الثغر بيد عبد الرحمن •

لم يعامل عبد الرحمن زعماء هذا الثغر العصاة معاملته للعصاة في انحاء الاندلس الأخرى ، اذ عيّن اكثرهم في مراكزهم السابقة ضمن الشروط المواتية له :

وهي المعونة العسكرية والتزام قطيع من الجباية • ومع انه قتل قلة منهم ، الا انه عين اقارب المقتولين في مراكزهم ، أي انه حفظ للأسر أملاكها•ويظهر من سلوكه هذا أنه كان يقدّر فائدة بقائهم لضبط هذا الثغر القصي الذي يقع تجاه قسم كبير من الأراضي المسيحية ويقف حارساً على المنفذ الرئيسي لنصارى الشمال الى بلاد الاندلس(١) • ولم يغير هذا الموقف حتى آخر أيام خلافته •

خلافة الحكم المستنصر

توفي عبد الرحمن الثالث بعد خمسين سنة من الحكم اعاد فيها وحدة الاندلس وزاد من نفوذها الخارجي واقام العديد من المنشآت العمرانية

---

(١) العذري ، ترصيع الاخبار ، ص ٢٥ ـ ٧٣ •

وبويع بعد وفاته بالخلافة ولي عهده الحكم أبو المطرف واتخذ من الألقاب الخلافية المستنصر بالله • والحكم كسائر الامراء الامويين ابن أم ولد تدعى مرجان أو مهرجان [1] • وقد تابع سياسة والده في المجالين الداخلي والخارجي ، وهو امر يمكن ان نعزوه كما فعل بعض الباحثين الى اهتماماته العلمية بالدرجة الاولى التي حالت بينه وبين التجديد في المجال السياسي • الا انه من الافضل الاشارة الى مشاركة الحكم لابيه ومعاونته في الحكم ، إذ كان أثيراً لديه ، عينه ولياً للعهد وهو في الثامنة وظل بهذه الصفة مدة تقرب من أربعين عاماً ، حتى تقلّد الخلافة وهو في حوالي السابعة والاربعين ، وعلى هذا الاساس يمكن التفكير بأن جزءاً من منجزات عهد عبد الرحمن الناصر قد تكون من اعمال الحكم أو انه كان شريكا فيها • وعلى كل حال فان الميزة البارزة للحكم ، التي تميزه عن سائر امراء وخلفاء الاندلس هي علمه الواسع وتشجيعه للعلماء وهو أمر سنبحثه باستفاضة عند التعرض لنهضة الأندلس الفكرية في عصر الخلافة •

قضى الحكم الشطر الأعظم من حياته دون أن ينجب ولداً • وأخيراً وبعد سنة من ارتقائه عرش الخلافة ، أي عندما كان في الثامنة والاربعين من العمر ، انجبت له جاريته البشكنشية « صبح » التي كان يدعوها باسم جعفر ولده الاول عبد الرحمن ، الذي مات حدثاً • وبعد ثلاث سنوات اخرى أو في جمادى الثانية سنة ٣٥٤هـ / حزيران ٩٦٥م وضعت نفس الجارية ولده الثاني هشاما • وربما ادى به هذا الحرمان الطويل من الاولاد وموت اول مولود الى اندفاع الحكم في تعيين ولده الثاني كولي للعهد قبل ان يتجاوز الحادية عشرة من عمره ••وهكذا أعلن عام ٣٦٥ هـ تقليد ابنه ولاية عهده، وخرجت عن القصر نظائر من كتب البيعة ليوقع شهادته عليها كل من التزمها من الخاصة والعامة بقرطبة وسائر كور الاندلس •

---

(١) انظر الضبي ، بغية الملتمس ، ص ٨ • ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ •

الاستبداد العامري

توفي الحكم المستنصر في اليوم الرابع من صفر سنة ٣٦٦ هـ / ١٣ تشرين أول سنة ٩٧٦ • وكان من المفروض أن تنتقل خلافته الى ولي عهده هشام • لكن صغر سن الخليفة الجديد ، الذي لم يتجاوز الثانية عشرة ، جعل من المتعذر عليه ممارسة ادارة دولة واسعة الارجاء مترامية الاطراف، لا سيما وأن طبيعتها الاوتوقراطية تجعل كل شيء فيها يتعلق بشخص الخليفة مباشرة • لذلك كان لا بد من قيام جماعة أو فرد بممارسة السلطة باسم الخليفة الصغير • وقد جرى صراع بين عدة جماعات ثم بين عدد من الافراد للفوز بالسلطة الفعلية ، وانجلى هذا الصراع عن استبداد محمد بن أبي عامر بالسلطة كاملة تاركاً لهشام ابن الحكم الاسم فقط ، ثم اورث هذه السلطة من بعده لابنيه عبد الملك وعبد الرحمن بالتناوب • وحاول الاخير منهما ان يستأثر بالسلطتين الفعلية والشرعية وعن محاولته الاخيرة انطلقت الشرارة لثورة مدمرة اودت بسلطات العامريين وخلافة الامويين على السواء •

ظهور محمد بن أبي عامر • ــ

منذ الساعات الاولى لوفاة الحكم ، وحتى قبل ان يوارى في التراب ، بدأ التناحر بين الجماعات القوية في بلاطه للفوز بالسلطة ، وانعكس هذا التناحر على شكل خلاف حول من سيكون الخليفة بعد الحكم • وتكتل المتناحرون في زمرتين • تكوّنت الاولى من الصقالبة المماليك وهم حراس الخليفة وخدمه المقرّبون • ويكفي للدلالة على قوتهم الاشارة الى ان الخصيان منهم في القصر اربى عددهم على الالف عدا الفحول منهم المقيمين خارجه•وقد ترأسهم فائق المعروف بالنظامي صاحب البرد والطراز ، ويليه جؤذر صاحب الصاغة والبيازرة • مقابل هذه الكتلة تجمعت قوى الاحرار

في القصر والدولة ، حول جعفر بن عثمان المصحفي . وهو مولى من اصل بربري ، عمل والده عثمان كمؤدب للحكم في صباه ، الامر الذي خلق زمالة وصداقة بين الابن وبين الخليفة ، الذي قرب جعفر منذ ايام ولايته للعهد ، اذ استكتبه وعهد اليه بعدد من الوظائف الكبرى في الدولة مثل الشرطة الوسطى . وعندما أصبح خليفة عهد اليه بالكتابة الخاصة ثم بالكتابة العليا وخطة صاحب المدينة ، وذلك اضافة لرتبة الوزارة[1] . لذلك كان المصحفي يدير شؤون الدولة بالفعل خلال الفترة الاخيرة من حياة الحكم التي اشتدت فيها وطأة المرض عليه ، بينما كان زعماء الصقالية يشرفون على خدمة الخليفة الشخصية .

كانت اهم القوى التي انضمت لجانب المصحفي اثر وفاة الحكم ، جماعة من الجند البربر من بني برزال ، ثم سائر قواد الجند الاحرار . لكن أهم شخصية تحالفت معه كان محمد بن ابي عامر . وهو عربي عريق ، اذ ينتمي من جهة الاب الى معافر احدى فروع حمير ، والى تميم من ناحية الام . ويضاف الى عراقة نسبه تأصل عائلته في الاندلس اذ كان جده الاعلى من العرب القلائل الذين رافقوا حملة طارق بن زياد ، وخلّد ذكره باحتلاله الموقع المعروف اليوم باسم برج قرطاجنة قرب الجزيرة الخضراء فأصبحت اقطاعاً له ولعائلته . ثم ساد في الجزيرة الخضراء وان كنا لا ندري كيف تم له ذلك . انتقل بعد ذلك ابو عامر احد احفاد هذا الجد الى قرطبة وبه عرفت الاسرة في حاضرة الأندلس ، حيث أسهم في شهرتها ابن هذا الأخير عامر الذي تولى الوظائف لدى الامراء الامويين . لكن والد محمد بن ابي عامر ، موضوع بحثنا ، كان محدثاً عرف بزهده وبعده عن ذوي السلطان[2] . لكن محمداً لم يكن سر أبيه في مطامحه . تلقى الدراسة الضرورية آنذاك من حديث ولغة عن مشاهير العصر ، ثم استخدم ما ناله من علم كمؤهل

---

(١) انظر ترجمة المصحفي في ، الحلة السيراء ، ص ٢٥٧ ــ ٢٦٧ .
(٢) انظر التكملة ، ج ٢ ، ت ١٩١٤ ، ص ٧٨١ .

لشغل الوظائف العامة التي كان اغلبها في القضاء وملحقاته . واعتلى اول درجات سلم الوظائف بالعمل ككاتب لدى احد كبار قضاة قرطبة الذي رشحه لوظيفة وكالة الامير عبد الرحمن اول اولاد الحكم ، ومع ان عبد الرحمن استأثر به ربه بعد أمد ليس بالطويل الا ان وظيفة محمد بن ابي عامر في القصر لم تضع ، بل نقل الى وكالة الابن الثاني هشام ، فبقي كما كان قبلاً يخدم السيدة صبح مخطية الحكم الأثيرة لديه . ومكّن لنفسه بكسب ودها وود نساء القصر بحسن الخدمة وموافقة المسرة وتقديم الهدايا الرائعة الثمينة والنادرة ، مثل نموذج قصر صاغه من الفضة وصفه احد المؤرخين القدماء بالقول « ان العيون لم تر اعجب منه » وان الناس تحدثوا بشأنه دهراً . وبلغ سحر ابن ابي عامر في القصر حدا اثار استغراب الحكم وجعله يقول : « ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن ، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن الا هداياه ولا يرضيهن الا ما أتاه . انه لساحر عليم أو خادم لبيب »[1] تفسر هذه المكانة لنا سبب نيل محمد بن ابي عامر للعديد من الوظائف في دولة الحكم، اذ كانت على التوالي دار السكة وهي أعلى خطط الامارة آنذاك ، ثم قضاء كورتي اشبيلية ولبله وأعمالهما ، وبعد ذلك قاضي قضاة المغرب ، وصاحب هذا المنصب كان بمثابة النائب عن الخليفة في المغرب ، حيث يشرف على نفقات الجيش ويكون عيناً عليه بنفس الوقت . كما ان القواد تلقوا امراً بألا ينفذوا شيئا الا بمشورته . وقد استغل محمد بن ابي عامر هذه الوظيفة ليتقرب من وجوه العسكر باغداق الاموال عليهم ، ثم ترسخت علاقته بالقوى العسكرية اكثر عندما عاد الى قرطبة وكلفه الحكم بالاشراف على الحشم وهم جند الحاضرة قرطبة .

بهذه الامكانيات الاولى دخل ابن ابي عامر معمعة الصراع بين القوى

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

على سيادة الأندلس ، واستطاع زيادتها بالتدريج مع كل انتصار يحرزه الى ان ساد الاندلس واستبد بحكمها بعد سلسلة الانتصارات التي احرزها في الصراعات المتوالية التالية •

١ ـ الصراع ضد الصقالبة تحت لواء المصحفي • ـ

لفظ الحكم انفاسه الأخيرة بين يدي فائق وجؤذر كبيري الغلمان الصقالبة ، وخفي الامر على سائر رجال الدولة لطول مرضه ، وكتم الزعيمان أمر هذا الموت فترة لينظرا فيما يجب عمله تجاه من سيتولى الأمر • واتفقا على رده بعد مولاهما الحكم لاخيه المغيرة شريطة ان يجعل هشاما ولياً للعهد • وبذلك لم ينفذا رغبة الحكم كلها بتعيين ولده هشام ، الا انهما ضمنا حقه بعد كبره وحفظا الدولة لاحتمال الانتقاض عليه لصغر سنه وانكار الناس لتقديمه • كما ضمنا بهذا العمل مصالحهما لانهما سيمنّا على المغيرة بسوق الخلافة له وسيضطر للاعتماد عليهما • ولم يرغبا بافتتاح هذا العهد بسفك دم جعفر المصحفي ، مدبر دولة الحكم ، لتصبح يداهما طليقتين في العمل ، وانما صوبا الرأي القائل بضرورة مشاورته أولاً وقتله عند احجامه عن الموافقة • وعندما نعيا اليه الحكم وعرضا عليه رأيهما تظاهر بقبوله وتأييده ، وعرض اضافة لذلك ضبط باب القصر وتنفيذ أوامرهما لكنه أحضر خفية أتباعه من قادة جند بني يرزال وبعض رجالات الموالين لهشام وكذلك سائر القواد الأحرار بما فيهم محمد بن أبي عامر ، وكيل هشام وخادم أمه والناظر في أمر الحشم ، أي كل المعارضين للصقالبة • فعرفهم بما دار بينه وبين الصقالبة وعرض رأيه في الموضوع قائلاً « ان حسبنا الدولة على هشام أمنا على انفسنا وصارت الدنيا في ايدينا ، وان انتقلت الى المغيرة استبدل بنا وطلب شفاء أحقاده » • ونتيجة لذلك قرر الحاضرون قطع الطريق على الصقالبة بقتل المغيرة • ونفذ عملية القتل محمد بن أبي عامر[١] •

---

(١) انظر تفاصيل قتل المغيرة في : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ •

بلغ زعيمي الصقالبة خبر الحادثة على المغيرة فأسقط في يديهما واستسلما للأمر الواقع ، ولو موقتاً ، فقدما الى جعفر وأبديا له الموافقة على ما اتاه معتذرين مما رأياه اولاً ومبررين له ، بأنه الجزع من موت سيدهما الحكم ، اذهلهما عن طريق الصواب الذي ارشده الله اليه .

وعلى كل حال ، ما كادت ليلة الرابع من صفر التي توفي فيها الحكم تنقضي حتى اجلس هشام لأخذ البيعة ، ونالها بالاجماع . ومع ذلك كان كل من المصحفي وابن ابي عامر يدركان بأن سكوت الصقالبة على مضض ، لذلك قاماً بالتقرب من العامة والاجهاز على الصقالبة . وقد نفذ الامر الاول باركاب هشام من اليوم السادس لتوليه الخلافة في موكب عسكري ارهاباً لأهل الخلاف حسب رأي المؤرخين القدماء ، والارجح من هذا القول انه كان ايضا لاثارة حماس العامة للخليفة الجديد . واحاطا هذه العملية باجراء ضرائبي محبب لقلوب العامة وهو اسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة من الزيت بقرطبة ، وكانت الى الناس مستكرهة.وفي وسط هذا الجو الحماسي اعلن عن تعيين جعفر بن عثمان المصحفي لرتبة الحجابة ومحمد بن ابي عامر للوزارة على أن يكون مساعداً للمصحفي في تدبير شؤون الدولة وادارتها .

اما عملية الخلاص من زعماء الصقالبة فقد بدأت باضعاف قواهم العسكرية ، اذ استجلب ابن ابي عامر الفحول منهم بخارج القصر اليه عن طريق تقديمهم في الانزال والعطاء . أما الخصيان داخل القصر فقد قيدت حركتهم وذلك بسد الباب الذي يدخلون القصر منه ويخرجون . وجعل ذلك مقصوراً على باب السدّة ، الباب الرسمي ، وصارت حركتهم بذلك تحت الرقبة . حاول جؤذر ان يقطع على اعدائه الطريق ، فيستعفي من الخدمة وهو في مركز فيه بقية من قوة ، فأذن له بلزوم داره . وعندما حاول أتباعه الشغب نتيجة لذلك ، في قرطبة وبعض النواحي الأخرى الخاضعة لحكمه ، قتل بعض رؤوس الشغب وأقيل البعض الآخر وبينهم فائق الذي آلت حاله الى أن صيّر الى الجزائر الشرقية، فمات هناك . ولحق

الاقالة ملاحقة لبعض الصقالبة الكبار واستخرج ابن أبي عامر بها أموالاً جمة استأثر بأكثرها •

٢ ـ الصراع مع المصحفي • ـ

بدأ محمد بن أبي عامر مسيرته على درب السلطة في كنف المصحفي، واستمر على نفس المنوال حتى الخلاص من الصقالبة • فالمصحفي هو الذي رشحه لشغل اول وظيفة له في القصر ، كما انه رغم تكاثر وظائفه في عهد الحكم المستنصر وقربه من الحريم في القصر الا أنه ظل يظهر التبعية للمصحفي « يغدو الى داره ويروح ويصبح ببابه ويختص به » • وعند النزاع مع الصقالبة لعب الى جانب المصحفي دوراً بارزاً الامر الذي جعله يقفز الى المقدمة بين اصحابه المدبرين للدولة • لكن تصرفاته آنذاك توحي بأنه لم يكن قانعاً بدور المرؤوس التابع وبالوقوف عنده ، اذ استغل موقفه ليزيد من قواه ولو على حساب رئيسه • وهكذا نراه يضم بني يرزال البربر اليه ، وهم الجماعة العسكرية التي تعتبر بطانة للمصحفي • وقد اغراهم ابن ابي عامر بالانضمام اليه بعدما رأوا بسطة الرزق ووافر النعمة التي يتمتع بها من اتبعه من الجند الصقالبة •

بهذا التدبير اصبحت اكثر قوى الجند في العاصمة بيد محمد بن ابي عامر • ويظهر من تصرفاته التالية ، انه اعتمد السيطرة على ما امكنه من القوى العسكرية والتحالف مع تلك التي لا يستطيع بسط نفوذه عليها • وقد توصل الى ذلك بقيادة ثلاث غزوات خلال فترة لا تتجاوز العام الا بقليل • قام بالأولى في أوائل رجب سنة ٣٦٦/شباط ٩٧٧ ، مستغلاً لذلك قيام الجلالقة بالاغارة على الاراضي الاسلامية ، وابداء المصحفي لآراء فيها الكثير من الاستخذاء والجبن عن مجابهة الأعداء، كتحطيم الجسر على وادي آنة الواقع على طريق غزوات هؤلاء • ورأى بعض الوزراء الآخرين ضرورة القتال ، لكنهم تثاقلوا عن قيادة الحملة للحرب • عند ذلك انبرى ابن أبي

عامر ، عارضاً قبوله بالقيادة شريطة اعطائه حرية في اختيار الرجال والتجهز لغزوته بمائة الف دينار ، اي انه فرض الشروط التي توفر الامكانيات للنصر وللسيطرة على الرجال وتقريبهم له • اجتازت الحملة في سيرها وادي آنة ثم التاجه وهاجمت حصنا جليقيا متقدماً هو حصن الحامة (حالياLos Baños) فحاصرته واحتلت ربضه • لكن ابن أبي عامر لم يشأ البقاء على حصاره حتى يسقط ، بل اكتفى بما ناله من سبي وغنائم عاد بها الى قرطبة ، بعد غياب دام ثلاثة وخمسين يوماً • وقدم بذلك دليلاً ملموساً للقصر وللناس على قدرته في الهجوم على الاعداء والانتصار عليهم كذلك كانت هذه الحملة برهاناً على سيطرة ابن أبي عامر على جند العاصمة • لكن جيش الثغر القوي كان بأمرة غالب المولى الحكمي ذي السمعة الطيبة والمركز المرموق بسبب اعماله في الثغر وانتصاراته في المغرب • وقد حدثت بينه وبين المصحفي جفوة ومنافسة نتجت ، على ما يظهر ، عن عدم نيل قائد الثغر شيئا من ميراث سيده ، أو اشراكه لحد ابعد في سلطان الدولة ، الذي استأثر المصحفي به • وبدا عليه نتيجة لذلك تثاقل في محاربة الاعداء • فسعى ابن ابي عامر في استصلاحه برفع ما يشعر به من غبن والتقرب منه بذلك • وقد أفلحت مساعيه لدى السيدة صبح أم هشام وسائر الحرم ، فخرج كتاب من القصر بترقية غالب الى رتبة ذي الوزارتين ، وانفذ اليه مع الكتاب امر بالاجتماع مع ابن أبي عامر على التدبير للصوائف بجيش الحضرة وجيش الثغر • وبذلك توفرت لابن ابي عامر ظروف توثيق التحالف مع قائد جيش الثغر •

خرجت الحملة بعد ثلاثة شهور من الحملة الاولى ، ولم تزد قيمة الانتصار العسكري فيها عن احتلال حصن • لكن النتيجة الاهم كان تأثيرها في مجريات الصراع على سيادة الاندلس بين المصحفي وابن أبي عامر • فقد عقد الاخير مع غالب اواصر المودة ، اذ خدمه خدمة ملك بها نفسه • ورد هذا بأن تجافى له عما سبى وغنم ، رغم ان اكثر الامر كان له • وذلك حتى

يعلو ذكره ويشتهر صيته ، وينشغل الناس بالحديث عما فتح عليه وجلبه عما سيحدثه من توجيه أول ضربة للمصحفي ، وهي عزله عن ولاية المدينة ، أي الاشراف على الأمن فيها ، التي عهد بها لولده .

وتم ذلك فعلاً دون ضجة ، اذ صدر الامر بتعيين ابن ابي عامر على المدينة وعزل ابن المصحفي . وليبرهن عن أفضليته على سلفه قسا على أهل الفسق والدعارات وسدّ باب الشفاعات، فساد الأمن المدينة . ثم استخلف عليها ابن عمه فحذا حذوه واقتفى اثره . والمهم في هذه العملية أنه طوّق المصحفي في قرطبة من جميع الجهات : فأبواب المدينة تحت سلطانه بسيطرته على شؤون الامن ، والقصر طوع بنانه بسبب علاقاته مع الحريم ، والجيش بامرته .

حاول المصحفي الخروج من طوق العزلة الذي ضربه العامري حوله مستخدما نفس اساليبه . فتقرب من غالب وخطب ابنته اسماء لابنه . وعندما علم محمد بن عامر بالامر ، كاتب غالبا ينشده العهد ويطلب يد اسماء له شخصياً، كما جعل حرم القصر يكاتبنه ويطلبن فسخ المصاهرة مع المصحفي، ولبى غالب هذا الطلب فانكح ابن ابي عامر ابنته .

بعد أن سدّ ابن أبي عامر هذا المنفذ أمام خصمه بدأ يهيء الجو للضربة الاخيرة ، وهو على العادة اشغال الناس بالخروج لغزوة والعودة ظافراً يجر وراءه موكباً من الأسرى والسبايا ويعرض رؤوس القتلى وصنوف الغنائم .

خرج للغزوة الثالثة في اوائل صفر عام ٣٦٧/اواسط ايلول ٩٧٧م . وبعد عودته رفع أولاً الى مرتبة ذي الوزارتين، ثم قلّد خطة الحجابة مشتركاً بها مع جعفر المصحفي . ويعتبر أمر المصحفي منتهياً منذ ذلك الوقت ، اذ ادرك ضعفه « فكف عن اعتراض ابن عامر في شيء من التدبير وانقبض الناس عنه وانثالوا على ابن أبي عامر، الى ان صار المصحفي يغدو الى قصر قرطبة

ويروح وحده وليس في يده من الحجابة سوى اسمها » • ويظهر ان صرف المصحفي رسمياً عن الحجابة في ١٣ شعبان سنة ٣٦٧/٢٩ آذار عام ٩٧٨ ، لـم تكن الغاية منه الا استصفاء أمواله وأموال أصحابه • ألقي القبض عليه وعلى ابنه وابن اخيه مع صنائعهم ، فأعدم البعض وسجن المصحفي واذيق من التعذيب الواناً لتستخرج منه الأموال بين الحين والحين ، ويصف ابن حيان ذلك بقوله « فلما استقصى ابن أبي عامر مال جعفر باع داره بالرصافة وكانت من اعظم قصور قرطبة ، واستمرت النكبة عليه سنين ، مرّة يحبس ومرّة يخلّى ويقر بالحضرة ، وتارة يسير عنها ولا يراح في الحالتين من المطالبة والأذى • واذا سئم ابن ابي عامر اعناته وكلـه الى غالب صهره ، فيتولى كبره ويضعف عذابه »(١) •

وبعد خمس سنوات مات المصحفي في سجنه عام ٣٧٢هـ / ٩٨٣ م واختلف في أسباب وفاته فمن قائل انه قتل خنقاً ومن قائل انه سم بشربة مسمومة دست اليه •

وهكذا انتصر محمد بن ابي عامر عـلى رئيسه السابق ثم خصمـه وبانتصاره اصبح الرجل الاول في الدولة ، ولا شك بأن امضى اسلحته كان الاستعانة بالقوى العسكرية • لكن اموراً أخرى ساعدته وإن كان دورها اقل اهمية على ما يبدو • ومنها اختلاف طريقته عن طريقة خصمه في كسب ود الناس وحشد الانصار ، فخصمه لجأ للتواضع فقط امام الناس اكتساباً لودهم ، بينما استخدم العامري سخاء اليد وبذل المال ، وينقل ابن بسام عن ابن حيان وصفه لطريقة الرجلين في هذا المضمار بقوله « اعتمد المصحفي منذ أول امره على اطراح الكبر والتواضع وسيلة لكسب ود من حوله وود الناس ، فسوى في الفراش بينه وبين الوزراء وكانت العادة قد جرت بجعل فراشه اعلى ، كما لزم التواضع للناس واطلق لهم البشر ورأى انهم بذلك يصلحون له • دون البذل لذات اليد والاشراك في النعمة فاستأثر بالأعمال

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم رابع ، مجلد اول ، ص ٤٨ •

واحتجن الأموال ولم ينلهم وبنى المنازل وهدمهم . وعارضه من محمد بن أبي عامر ماجد أخذ معه بطرفي نقيض بالبخل جوداً وبالاستبداد أثرة وباقتناء الضياع اصطناع الرجال »[1] .

لم يقتصر التناقض بين الرجلين على هذا فقط ، بل كان في المصحفي غفلة تجاه العامري الذي قابلها بالمكر ويشير ابن حيان لذلك بقوله « كان جعفر مطيعاً فيه بعض الغفلة امتثل لما أمر به في ابن أبي عامر ، فتزيد في بره واشراكه في سره وجهره . بينما كان هذا يمكر فيريه انه صاحبه الحائط لحاله يعول على رأيه ويصل يده بيد متظاهراً بالتبعية له وواظب على الحضور الى بابه ، في الوقت الذي يقوم فيه سراً باثارة حسدته عليه واستغلال سقطاته والتجرؤ على ما يحجم عنه لمخالفته لسنن الدولة وأوامر رؤسائها فينال ما ينال من صيت » .

ومن الامور التي ساعدت ابن ابي عامر في الانتصار على خصمه ، ظروف هذا الخصم الاجتماعية . فقد كان المصحفي من اصل وضيع ، حسب قيم العصر الاجتماعية ، اذ كان ابن مؤدب . ومع ذلك نال ارفع المناصب منذ ايام الحكم المستنصر وتقدم على الجميع ، وهذا ما اثار عليه نقمة مجموعة من العائلات التي يمكن ان نطلق عليها اسم ارستقراطية الوظائف ، جلّها من موالي الأمويين . وكان أفرادها يتناوبون على الوظائف العليا جيلاً بعد جيل ، وكأنهم يتوارثونها ، منذ بداية عصر الامارة . وأشهرهم آل جهور وآل قطيس وآل أبي عبدة وآل شهيد ، الذين ارتبطوا فيما بينهم برابطة دعاها أحد المؤرخين القدماء « السلفية السلطانية » واعتبروا ان هذه الوظائف يجب ان تبقى في ايدي من يليق بها من امثالهم ، فلما احظى المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه رأوا فيه حديث نعمة وضيعا فذموه ، وعندما نازعه المنصور سارعوا بالانحراف الى جانبه[2] .

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم رابع ، مجلد اول ، ص ٩٢ .
(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ .

مظاهر استبداد محمد بن أبي عامر

يعني الخلاص من المصحفي ووصول محمد بن ابي عامر لمنصب الحجابة انه احتل مركز الرجل الأول في الدولة ، مادام الخليفة قاصراً . وقد وصل العامري الى ما وصل اليه بالتحالف مع قوى ، سانده أكثرها ووقف الى جانبه كرهاً باستئثار المصحفي بمقاليد الأمور ، لا ايماناً بأفضليته عليه . وعلى ما يظهر كان يدرك ذلك ويعلم أن هؤلاء سيعملون ضده اذا اقتفى اثر سلفه وسار على منواله . لذا نراه يتخذ اجراءات متعاقبة متتالية يحصّن فيها نفسه ضد مؤامرات اعدائه . ثم يخلق قوى جديدة لنفسه بدلاً من القوى التي خلقها الحكم المستنصر وتحالف هو معها ، وعرف زعماؤها باسم الصنائع الحكميين . وكلما ازدادت الدعائم التي يعتمد عليها وازداد عدد الصنائع العامريين كلما زاد من استبداده حتى أصبح السلطان المطلق للأندلس وأهم هذه الاجراءآت :

١ ـ تغيير بنية الجيش . ـ

انشأ المنصور مقراً اميناً لنفسه ولجنده ومخازن غلاله تمثل في مدينة الزاهرة ثم بدأ يهيء الجيش القادر على حماية سلطانه . فقد كان يسيطر على جيش الحضرة فقط ، ويظهر ان مركز الثقل العسكري كان في جيش الثغر الذي يقوده صهره المولى غالب ، الذي يخشى عدم سكوته على استئثاره بالأمر كله . وفي حال تمرده يجب الاّ يحسب حساب قوة جيشه فقط بل حساب القوى المسيحية المجاورة ايضاً . ذلك لأن احداث الماضي الأندلسي كلها ، كانت تدل على انه ما من قوة في الثغور الا واستعانت بالنصارى عند الخلاف مع المركز . لهذا كان لا بد لابن ابي عامر من انشاء قوة عسكرية تفي بالغرض المطلوب . ووجد ضالته في بربر شمال أفريقيا الذين كانوا يعيشون في ظروف صعبة تخدم عملية تجنيدهم في الأندلس . فالمغرب آنذاك كان يعيش فترة حروب بين القبائل ، وحتى بين فروع القبيلة الواحدة ، لذا وجد المغلوبون في الانتقال للأندلس والعمل بها كجند بديلاً أفضل بكثير من الهرب الى الصحراء في بلادهم ، خاصة وان العامري كان سخياً

بالمال على من يتطوع عنده • عدا عن بقايا المغلوبين في المغرب ، كان البربر الذين يخدمون في الاندلس منذ ايام الخلافة يشجعون على استدعاء افراد من قبائلهم للعمل الى جانبهم تحت لواء المنصور • وقد عيّن المنصور لرئاسة هذه القوى جعفر بن علي بن حمدون من زناته • وكان هذا قد وصل للاندلس قبل حجابة المنصور مع ستمائة من ابناء زناته التي يتزعم فيها •

يبدو ان غاية العامري لم تخف على غالب قائد الثغر ، فحاول قطع الطريق عليه والخلاص منه قبل ان يكمل تجهيز هذه الجيوش البربرية • ولجأ الى الخدعة لتحقيق ذلك ، اذ دعاه في احدى الغزوات الى وليمة في قلعة على الحدود ، ثم حاول الاجهاز عليه بعد العتاب ، ففر ابن ابي عامر من وجهه واستطاع الخلاص بجروح بسيطة • كانت الحادثة بداية لحرب بين الطرفين استطاع ابن ابي عامر في اولها احتلال مدينة سالم مقر غالب الرسمي ، وذلك بالاتفاق مع نائبه فيها • ولما استنجد غالب بالنصارى التقى الطرفان في المحرم عام ٣٧١هـ / تموز ٩٨١ ، وقد اصطحب محمد بن ابي عامر ، بالاضافة لجند الحضرة ، البربر وكذلك اهل الثغور الذين انضموا اليه وعلى رأسهم التجيبيون ويذكر احد المؤرخين العرب القدماء ان غالباً ، رغم كبر سنه الذي جاوز الثمانين ، استطاع القضاء على ميمنة جيش الخصم ، حيث البربر ، والميسرة ، حيث اهل الثغور • لكنه لما اراد الوصول لابن ابي عامر في القلب هوى من على صهوة جواده ووجد بعدها مقتولاً •

بمقتل غالب لم يعد للعامري ند يخشاه في الاندلس ، لذا سار شوطاً ابعد على طريق الاستبداد بالامر ، لدرجة انه اتخذ لقباً دينياً خلافياً هو المنصور • ومع ذلك استمر على الاستزادة من العناصر الغريبة في الجيش ، من مماليك صقالبة وبربر ، على وجه الخصوص • لكنه حرص على بقاء هذه العناصر مرتبطة به شخصياً ، والا يتاح لأحد من القواد مجال للشهرة تجعله قادراً على استقطاب ولائها • وهذا ما يفسر قتله لجعفر بن علي بن حمدون قائد البربر ، مستعيناً بمعن بن عبد العزيز التجيبي ، بعد ما يقرب من سنة

ونصف من مقتل غالب ، وكان التجيبي قد كمن لجعفر وفاجأه اثر خروجه من مجلس شراب مع المنصور،الذي جعل الضحية يسرف في شرابه لتسهيل عملية الخلاص منه • وعندما بلغت اعداد الجند الاغراب والمماليك حداً كافيا ، إستغنى عن اجبار الاندلسيين على النفير للغزو في عام ٣٨٨هـ / ٩٩٨م وأعلن ذلك في بيان قرأه الخطباء في المساجد ، جاء فيه « ان من تطوّع خيراً فهو خير ، ومن خف اليه فمبرور ومأجور ، ومن تثاقل فمعذور » •[١]

موقف العامري من معارضيه • ـ

بقضاء المنصور على الخصوم الاقوياء اصبح بامكانه ممارسة كل السلطات التي كان يمارسها الخلفاء الأقوياء • لكن اختلاف ظروفه عن ظروفهم ، جعله اكثر منهم ستبداداً وأشد بطشاً • فهو مضطر للاستبداد اكثر لانه لا يستطيع ان يسمع الى مشورة اهل الرأي ، خوفاً من ان تنطوي آراؤهم على افخاخ توقع به • وهكذا « ربما فاوض جلّهم الرأي فيشيرون عليه من الوجه الذي عرفوه والقانون الذي حمدوه ، فيعدل عن ذلك الى المذهب الذي شرعه والطريق الذي نهجه »[٢] •

كذلك اضطرته ظروفه أن يكون أشد بطشاً من الخلفاء الأقوياء لأن رسوخ شرعية حكمهم ، نتيجة لاعتياد الناس على حكم الأسرة الأموية ، جعلهم يركنون الى خضوع الرعية لهم ، لذا كان بامكانهم ألاّ يلجأوا للوسائل العنيفة • اما هو فلم يكن بامكانه ذلك ، اذ هو في نظر الجميع غاصب • وهذا كله اضطره الى مراقبة كل شاردة وواردة في البلد ، لدرجة انه كان يسهر اكثر الليل حسب رواية أحد فتيانه ، وعلّل له المنصور ذلك بقوله « حارس الدنيا لا ينام اذا نامت الرعية • لذا لو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد عين نائمة ، ولو كنت من صاحب القصر (وأشار الى جهة

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٦٨ • نقط العروس لابن حزم ، ص ٨٠ ـ ٨١•
(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ •

الخليفة) على مثل مسافة بسيطة لأحرمت النوم ، فكيف وانما بيننا مدى صيحة »[١] عدا عن السهر الدائم على شؤون سلطانه ، استخدم المنصور وسائل مراقبة متعددة لتتناسب مع أوضاع كل فئة من فئات المجتمع .

تأتي علية القوم في رأس قائمة من كان المنصور يخشاهم . وأولهم حاشية الخليفة العاجز هشام ، لأنهم يستغلونه للقيام باسمه حسب رأي المنصور . لذا بالغ في حجر الخليفة عن الناس في القصر الخلافي بقرطبة ، وحصنه بسور وخندق يطيف به من الجانبين ، ووثق الأبواب وشحنها بالحراس ليلاً نهاراً . وربما كانت الغاية من هذه العملية منع الهجوم على القصر لاختطاف هشام والقيام باسمه . كما منعه من الظهور ووكل بأبوابه من يمنع وصول اي خبر أو امر اليه ، الا باذن من المنصور . كما جعل متولي القصر ممن يثق بهم وصيره بنفس الوقت عيناً على الخليفة[٢] .

وتلا الخليفة ، في شدة المراقبة ، المروانيون اذ كان ينظر اليهم نظره الى موتورين كما يتبين من وصيته . وقد اوكل امرهم الى ثبت امين يتولى امر مراقبتهم التي سهلت ، بفرض ما يسمى الآن بالاقامة الاجبارية . اذ الزموا بالبقاء في منازلهم وعدم الخروج الا لضرورة . وكانت هذه المنازل تحت حراسة فتيان صقالبة موثوقين يراقبونهم ليلاً نهاراً على دول متعاقبة . ولم يسمح لهم بالاتصال الا بالضروري من الناس كغلام او وكيل أو معلم أو طبيب . ومع كل هذه المراقبة ظل المنصور يخشى استغلالهم لغيابه عن قرطبة في الغزو ، لذا كان يحملهم معه في الغزوات . اما فئة الموظفين فقد احاط بتحركاتها عن طريق موظف خاص يدور في الدواوين يترصد الاخبار ويسجل المحاورات[٣] .

أما عامة الناس في قرطبة فكان يداهنها بارتداء لبوس التدين والتظاهر

---

(١) اعمال الاعلام ، ص ٧٦ .
(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .
(٣) اعمال الاعلام ، ص ٧٦ .

بالخشوع والزهد،وانتشرت بين الناس الاخبار التي تسمه بهذه السمات. مثل القول أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يدرس فيه ويتبرك به . وأنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته وعهد بتصييره في حنوطه عند موته ، وكان يحمله حيثماسار مع أكفانه التي اتخذها من اطيب مكسبة من ضيعة موروثة عن ابيه وغزل بناته . هذا عدا عن قيامه بأعمال الخير والبر من توسيع المسجد الجامع في قرطبة وبناء القناطر على الانهار كسائر الخلفاء الذين سبقوه . ولم يتورع في سبيل ارضاء العامة عن محاربة بعض نواحي الفكر كالفلسفة وعلم الكلام والنجوم، كما سيمر معنا عند بحثنا في الحياة الفكرية .

ولجأ لبهر أبصار العامة بمشاهد الغزو فغزا ما يزيد عن خمسين غزوة في فترة حكمه . وغالباً ما كان يختارلخروجه لها وقتاً مناسباً ، عندما يتجمهر الناس بعد صلاة عيد الفطر[١] . ومثلما يحيط خروجه بهذا الجو المؤثر كان يحرص ان يحيط عودته للعاصمة بمثل ذلك فيعرض الاسرى والسبايا وكذلك رؤوس القتلى ، وقد فطن معاصروه لذلك ، حتى ان ابن اخ للمصحفي رمى مرة قسماً منها في نهر على الطريق ، حتى يحرم العامري من هذا السلاح ، لذا كانت نقمته عليه شديدة ، وكان اول ما فعله عند نكبة اهله المسارعة الى قتله في المطبق[٢] .

لكن هذا لم يمنع العامة من ترديد واشاعة اقوال الخصوم فيه . كاغتصاب السيادة من صاحب السلطان ، رغم اعلانه ان هشاماً تنازل له عن ممارسة السلطة لانشغاله بأمر عبادة ربه . كما تناقل بعض العامة اشعاراً فيها تعريض بقصور الخليفة « صبي في مكتب »[٣] . وبالانحلال الخلقي لقاضي الجماعة والعلاقة الغرامية التي تدعي الاشعار وجودها بين صبح وابن

---

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٣٨ .
(٢) أنظر الذخيرة ، القسم الرابع ـ المجلد الأول ، ص ٤٨ .
(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

أبي عامر . لذا لم يغفـل عـن مراقبـة الأسواق وجموع الدهمـاء فكانت له كما يقول النباهي « عيون بالليل والنهار لا يقـع امر من الامور حتى يعلم به »[1] . وقد أخبر بموت أحد قضاة الجماعة ساعة موته في الليل . وربما كان المحرك للاستياء في صفوف العامة ، بعض الفقهاء الذين كانوا ذوي تأثير كبير على هـذه الطبقة ، نظراً لأن طبقـة الفقهـاء رغم تزلف بعضهم للمنصور ، وأغضاء البعض الآخر عن تصرفات معينة لا يرضاها ، الا ان هذا الاغضاء لم يتجاوز كل الحدود .

علاقات المنصور بالفقهـاء . –

كوّن الفقهاء في الاندلس طبقة يغلب على البارزين منها اليسار مادياً ، كما تتبين من تراجمهم . واضافة لذلـك ، بدا افرادها وكأنهم يمارسون وظيفة حراسة الشريعة والمراقبين لسير الادارة والمعاملات بموجب مقتضياتها . وكانت هناك وظائف مقصورة عليهم مثـل الفقهـاء المشاورين في قرطبـة الذين يسألون في الافتاء بقضايا من قبل الامراء والخلفاء أو القضاة . ومنهم القضاة وصلاحياتهم آنذاك واسعة جداً[2] ، وبالرغم من سعتها كان الخلفاء الأندلسيون يضيفون لوظيفة بعضهم امانة كورتهم فيشرفون فيها على سائر العمال . ونظراً لذلك كانوا اصحاب الكلمة المسموعة لدى العامة ، كمـا كانوا الفئة ، التي يسعى الامراء والخلفاء لكسب رضاها لأنهم زعماء مـن ناحية ، ولأن الخليفة بحاجة لفتاويهم وشهادتهم على كل عقد هـام سواء أكان شخصياً أو للدولة ، ويحدّد احد الفقهاء اهمية اقرانه بالنسبة للخليفة وذلك في معرض الرد على توجيه احد الوزراء توبيخاً للفقهاء « لو كنا عنده (أي الخليفة) على الحالة التي وصفتها – ونعوذ بالله من ذلك – لبطل عليه كل ما صنعه وعقده وحلّه من أول خلافته الى هذا الوقت . فما بت له كتاب

---

(١) النباهي ، المرقبة العليا ، ص ٨٠ .

(٢) انظر عن انواعهم ، المرقبة العليا ، ص ٥ .

حرب ولا سلم ولا بيع ولاشراء ولا صدقة ولا حبس ولا هبة ولا عتق ولا غير ذلك الا بشهادتنا »[1] .

لكن الخليفة مع ذلك هو الذي كان يعينهم في مراتبهم . ونظراً لهذه المنافع المتبادلة نلاحظ ان الطرفين ، باستثناء حالات نادرة ، يتعاملان بمرونة فالخلفاء كانوا يتقبلون بالرضا ، الظاهر على الاقل ، مواعظ هؤلاء القاسية ضد بذخهم وترفهم[2] . كما أن الفقهاء ، من جهتهم، رخصوا للخلفاء في أمور معينة ، تجاوزوا فيها عن احكام مذهبهم المالكي ليأخذوا بآراء مذاهب اخرى، كي يصدروا للخليفة فتوى تحقق غرضه .

وقد بذل المنصور ربما اكثر من غيره لنيل ود الفقهاء وكسب رضاهم كتعويض عن اغتصابه للسلطة ، وذلك بالقيام بالأعمال التي ذكرناها،والتي حاول فيها ان يظهر في غاية التقى والزهد . ومع ذلك ظلت قضية استبداده ومقتضيات تمجيد شخصه محوراً للخلاف بينه وبين هذه الفئة ، الا أن الخلاف لم يصل بينهما الى حد القطيعة والانفجار الا مرّة واحدة ومع فريق واحد فقط ، لان الطرفين لم يصل كل منهما في تحدي الآخر الى النهاية . فقد حرص المنصور على ألا يقوم بعمل الا بفتوى،كان يصل اليها باختيار الوقت المناسب والتبديل في مراكز الفقهاء واستغلال الضغائن بين شخصياتهم الكبيرة . أما الفقهاء من جهتهم، فلم يسكتوا عن كل شيء ولكنهم سايروا المنصور في بعض الامور رغم قناعتهم بعدم انسجامها مع مذهب مالك . بدأت سمة هذه العلاقة بالظهور منذ بداية نفوذه اثر تولية هشام المؤيد اذ لم يخف قاضي الجماعة ابن السليم رأيه في اعتبار الحكم مذنباً لتقديمه صبياً لم يبلغ الحلم على الأمة . وكان رد العامري عليه ، غير مباشر ايضاً ، فلم يسع في عزله وانما صار « يسعى في توهين امره ويعرّض باحكامه وينقض قضاياه وفطن هو لذلك فخفف وطأته وداری سلطانه » . ثم توفي بعد أمد قصير[3] .

---

(١) ترتيب المدارك ، ج ٣ و ٤ ، ص ٤٠٠ .
(٢) ذكر بلاد الاندلس ، مخطوط الغزانة العامة ، ورقة ١٥٢ .
(٣) ترتيب المدارك ، ج ٣ و ٤ ، ص ٥٤٨ .

وفي نفس الفترة التي توفي فيها قاضي الجماعة قامت حركة اخرى حرّكها صنائع الحكم من جميع الفئات ، تدعو لتولية عبد الرحمن بن عبيد الله الناصر ابن عم هشام المؤيد • وتهدف هذه الحركة للقضاء على الطبقة الغريبة التي اصطنعها ابن أبي عامر وعلى الخليفة المستضعف والحاجب المستبد• تزعم الحركة عبدالملك بن منذر بن سعيد البلوطي،صاحب الرد [1] الذي يصفه ابن حزم بأنه رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم واستاذهم ومتكلمهم وناسكهم • وكانت الحركة ضخمة تورط فيها عدد من كبار الموظفين ، الذين كانت جلّ وظائفهم من مراتب القضاء ايضا ، وكان من جملتهم صاحب المدينة وصاحب الشرطة[2] • وقد اكتشف العامري الامر وضبط رسالة من عبد الملك بن منذر بهذا الشأن ، وفشلت خطوة قتل هشام وهي من خطوات المؤامرة • فأفشى صاحب المدينة اسماء المتآمرين كي ينجو هو ، وجمع المنصور الفقهاء للنظر والافتاء في الحكم الشرعي الذي سيطبق على المتآمرين • وعلى الرغم من اعتراف عبدالملك بن منذر بأن الرسالة بخطه ، حاول بعضهم الوقوف الى جانبه • فعندما اقترح البعض ان تطبق عليهم احكام الآية القرآنية الكريمة ، « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض •• » [3] • صمت البعض الآخر وعندما طلب رأيه قال بأن تطبيق هذه الآية غير وارد ، لأن هؤلاء همّوا بمعصية فلم يفعلوها وانهم ممن قال فيهم الرسول (ص) « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم »[4] • وقد أخذ المنصور برأي القائلين بالقتل لعبد الملك بن المنذر وسجن بقية الفقهاء بمطبق الزهراء • ونفذ القتل صلباً يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦٨ هـ [5] ويظهر أن قتل الأول وسجن الباقين ليس مرده

(١) صاحب الرد ، رتبة من مراتب القضاء ، يعرفها النباهي في المرقبة العليا،ص ٥ بقوله « ويسمى صاحب رد بما رد عليه من الأحكام » •

(٢) الحلة السيراء ، ج ١ ص ٢٧٨ – ٢٨٠ •

(٣) سورة المائدة ، آية ٣٣ •

(٤) ترتيب المدارك ، ج ٣ – ٤ ، ص ٦٤٠ •

(٥) ابن الفرضي ، ج ١ ، ت ٧٢٢ •

لزعامة الأول للفتنة فقط ، بل استغل كونه معتزلياً ، الأمر الذي يجعل قتله لا يثير رد فعل ضده ، ان لم يقربه للعامة ، وذلك لكرههم للمعتزلة .

سارت العلاقات بعد ذلك بين المنصور والفقهاء سيرتها العادية، بين حاكم اندلسي وفقهاء ، عدة سنوات . كان مركز المنصور خلالها يتوطد ويبني مدينة الزاهرة . لكنه عندما حاول ، مدفوعاً ربما باضفاء العظمة على مدينته هذه وجعلها بالنسبة له كالزهراء للناصر ، أخذ فتوى بجواز التجميع فيها ، رفض قاضي الجماعة ذلك استناداً لقول مالك لا يجمع في مصر واحد في جامعين[1] . ولم يوافق على طلب المنصور الا فقيه واحد ، كان قد اسقط من الشورى واشتد العداء بينه وبين زملائه الفقهاء . أظهر المنصور الاذعان للأكثرية طيلة بقاء قاضي الجماعة حياً ، ولما توفي عام ٣٨١هـ / ٩٩١م اعلن التجميع فيه واضطر الفقهاء الذين كانوا يعارضون سابقاً ويسكنون في الربض الشرقي ـ أي قرب الزاهرة ـ الى الصلاة فيه خشية غضب المنصور عليهم ، واعادة الصلاة بعد ذلك سراً[2] .

واذا وقف قاضي الجماعة ابن زرب في وجه المنصور عند امر يتعلق بمخالفة المذهب ، فمن الطبيعي ان يكون موقفه اشد في مسألة اهم بالنسبة لمصير الأندلس ، ولمخالفتها لما انعقد عليه رأي السنة فيما يتعلق بمسألة الامامة والخلافة . اذ جمع المنصور قبيل موت ابن زرب بأيام قلائل الفقهاء وبعض خواصه ، وعرض عليهم امر تقلّده للخلافة بدلاً من هشام المؤيد . وصوّب هذا الرأي اثنان من خواصه فقط ، بينما تملص ثالثهما ، وهو والد الفقيه المشهور ابن حزم ، بالقول بعدم صواب العمل من ناحية سياسية لأنه يهيج الخواطر . وكان مسلك الفقهاء الثلاثة متبايناً أيضاً : رأى أولهما أن عربياً حافظاً خير من قرشي مضيّع . واما الثاني فتملّص بأن جعل الأمر

---

(١) المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٢٤٥ .

(٢) ترتيب المدارك ، ج ٣ـ٤ ، ص ٦٥٧ـ٦٥٨ .

عبث لا طائل تحته ، فالمنصور هو الحاكم الفعلي ويرغب في الالقاب من لا يحقق الشيء الفعلي • لكن قاضي الجماعة وقف موقفاً صلباً ، بأن طلب اولاً امتحان صاحب الأمر في أمور السياسة وتدبير الأمر ، فان وجد عاجزاً بحث في قريش[1] • واحجم المنصور بعد ذلك عن تقلّد الخلافة • وربما لم يكن مرد هذا الاحجام موقف القاضي الصلب فقط ، اذ جرت العادة في مثل هذه الحالات ان ينفذ المنصور ما يريد مكتفياً بأي فقيه يوجد له مخرجا شرعيا كما فعل في التجميع مثلاً ، بل اسهم الى حد كبير في هذا الأحجام خشيته من جمهور الناس عندما يتحدى الشريعة الى هذا الحد •

توفي قاضي الجماعية ابن زرب ، ويظهر ان المنصور تنفس الصعداء للخلاص منه لأنه لم يكن اداة طيعة ، ورغم ذلك وربما لكسب ود العامة باكرام آل المتوفي ، أظهر غمه لموت القاضي واستدعى ابنه الطفل وهو في الثالثة فوصله بثلاثة آلاف دينار وكتب لورثته كتاب حفظ ورعاية انتفعوا به • وبعده عيّن لقضاء الجماعة ابن خال له أولاً ثم أحد خواصه ، واشتهر الاثنان بكونهما غير مبرزين في الفقه ، وان برز الثاني منهما بالحكمة وقوة الشخصية[2] • مما يدل على انه اراد ان يتصف قضاة الجماعة في عهده بالولاء له والمرونة السياسية ، لا بالعلم والصلابة في العقيدة والمذهب •

مؤامرات المقربين الى المنصور عليه • ــ

افلح المنصور في اتقاء شر من اعتقد بخطرهم عليه بالوسائل التي ذكرناها • لكن فتنة اوشكت على القيام في وجهه من حيث لا يحتسب ، اذ قام بها اناس من اقرب الناس اليه • وكان على رأس هؤلاء ابنه عبد الله الذي أحس بالمرارة لتقديم والده اخاه عبد الملك عليه رغم شعوره بأنه افضل منه في كل شيء • وتآمر للقيام على والده مع عبد الرحمن بن عبد

---

(١) نقط العروس ، ص ٧٦ ــ ٧٧ •
(٢) ترتيب المدارك ، ج ٣ـ٤ ، ص ٦٦٢ـ٦٦٧ •

العزيز التجيبي صاحب الثغر الأعلى ، الـذي كان يشعر ، على ما يظهر ، بأن ايامه باتت معدودة ، بعد أن قضى المنصور على الزعماء الكبار في الاندلس ولا بدّ لدوره أن يجيء • وانضم مرواني يحكم طليطلة للمتآمرين ، كما كان للحركة اتباع في قرطبة •

احيط المنصور علماً بالمؤامرة التي تحاك ، فلجأ للقضاء عليها قبل أن تنشب ، فتظاهر بالقيام بغزوة للشمال وفي طريقه عزل صاحب طليطلة ، ثم تخلّص من التجيبي بالقتل وعيّن مكانـه ابن عم له وبذلك ضمن ارضاء التجيبيين • وبعد ذلك حاول استصلاح ابنه ، لكن هـذا لم يلبث ان فرّ للنصارى الذين اضطروا لتسليمه لأبيه بعد ان اوقع بهم واحتل عدداً مـن حصونهم ، وفي الطريق نحو والده قتله حارساه المكلفان بايصاله بأمر من الوالد بالذات من ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠هـ / •

كان ردّ المنصور على مؤامرات أعدائه عليه المزيد من الاستبداد بعد الانتصار عليها• لكنه لم يسلك نفس المسلك تجاه أولاده ، ففي السنة التي تلت قتله لابنه عبد الله اكتفى هو بلقب المنصور وعهد بالحجابة والقيادة العليا وسائر خططه لابنه عبد الملك ، كما قدّم ابنه الآخر عبد الرحمن للوزارة•

بعد ست سنوات من قتل المنصور لابنه ، ظهر الخلاف واضحاً بينه وبين السيدة صبح والدة هشام ، دعامته منذ بداية مسيرته على درب النفوذ والسلطة ، ويعلّل البعض ظهور هذا الخلاف في تلك الفترة المتقدمة مـن حيـاة الاستبداد العامري بكون صبح قـد شاخت ولم تعـد عاطفتها نحو العامري تلعب دوراً أساسياً في حياتها • ويبدو لنا ان شطط العامري ربما كان العامل الاهم • اذ بدا وكأنه مع اولاده كل الدولة ، ولم يبق لأحـد فيهـا شيء ، فهـو ، المنصور ، بمثابة الرأس الاول ، وابنه الأول حاجب والآخـر وزير •

ومهما يكن من امر ، فقد تجلّى هذا الخلاف في قيام صبح بالاشتراك

مع اخيها رائق بتهريب الاموال مموهة من القصر الى خارجه للصرف على الأعوان .

ونقلت عيون ابن أبي عامر الخبر . فأرسل ابنه على رأس قوة الى القصر في ٣ جمادى الاولى سنة ٣٨٦ هـ ، حيث عقد مجلساً للفقهاء والوزراء ، ممن اتفق المنصور معهم مسبقاً ، وعرض عليهم ما يجري في القصر ، كما أبدى مخاوفه على المال الموجود في بيت المال العام وبيت مال الخاصة (اي ملك هشام) . فأقر المجتمعون ضرورة نقل هذا المال الى المنصور حيث يكون هناك بمأمن ، ونقل في مدة ثلاثة أيام رغم استماتة صبح في الدفاع عن بيت مال الخاصة . وبذلك سلبت صبح الأداة التي تمكنها من التآمر على العامري ، كما أن الخليفة الشرعي جرِّد حتى من أمواله الخاصة . ومع ذلك زاره المنصور في القصر وخلا به فاعترف له هذا بالفضل والاضطلاع بمهام الدولة . وقام المنصور بعشرة الكثيرين من خدم القصر في جهات مختلفة لاخلاء القصر من التآمر . وحتى يسكت الاشاعات عن وضع الخليفة ووجوده ابرزه للناس في موكب حافل معمماً على الطويلة سادلاً للذؤابة والقضيب في يده [1] .

وماتت صبح بعدما يقرب من ثلاث سنوات [2]، بينما أحاط المنصور نفسه اكثر فأكثر بأبهة الملك والسلطة من الناحية الرسمية ، فخوطب بالملك الكريم وأمر بأن يخص بتسويده دون سائر الناس ، كما أخذ الوزراء يقبلون يده ويمولونه عند مخاطبته ، وتابعهم على ذلك وجوه بني امية . ثم لحق التقدير ابناءه ، فكان « اذا بدا لتلك الطوائف طفل من ولده قاموا اليه فاستبقوا ليده تقبيلاً ، وعمموا اطرافه لثماً . فساوى بذلك الخليفة في هذه المراتب وشاركه في تلك المذاهب . ولم يجعل فرقاً بينه وبينه الا في الاسم وحده ».

أما صاحب الاسم وهو هشام المؤيد فكان قد جاوز الثلاثين وليس له

(١) الذخيرة ، قسم رابع ــ مجلد اول ، ص ٥٢ ــ ٥٤ .

(٢) ابن الفرضي ، ج ١ ، ت ٥٣٥ ، ويورد صاحب « ذكر بلاد الأندلس » ، مخطوط الخزانة العامة ورقة (١٥٧) ، ما يستفاد منه ان المنصور بالغ في تكريمها عند موتها واظهار الحزن عليها فقد « مشى في جنازتها حافياً وصلى عليها وتصدق على قبرها بخمسمائة ألف دينار » .

من عمل الا الانصراف لشؤونه الدينية • كما يقول الكتاب الرسمي[١] ، أو العيش بين الجواري كالمخبول كما تقول بعض روايات المؤرخين ، الذين يوردون قصصا متعددة عنه ، تجعل المطالع لها لا يشك بخبله • مثل دفع اثمان باهظة جداً لأشياء أو حيوانات أو بقايا حيوانات قيل له انها تمت بصلة الى انبياء • وقد تجمع عند نساء القصر ثمانية حوافر « لا اربع » عزيت كلها الى حمار عزير ، وقطعة خشب من سفينة نوح ، وظفرن من نسل غنم شعيب بثلاث • كما بالغ بالعناية بهدهد كان يعتقد انه دل سليمان الى عرش بلقيس ، وقرب بعض الأشخاص لا لشيء الا لغرابة اسمائهم آنذاك : كعبد النور وعبد السميع وحزب الله ونصر الله • او لبعض صفاتهم كأن يكون ذا هامة ضخمة ولحية عظيمة وخاصة اذا كانت حمراء قانية[٢] • وعلى الرغم من الظن بأن مستوى هشام العقلي لا بد وان يتأثر بحياة العزلة عن العالم الخارجي وبطبيعة الجو الذي احيط به داخل القصر ، الا انه من الصعب القبول ، بأن هذه القصص – وبعضها اكثر شناعة من التي ذكرناها – تخلو من المبالغة • وربما بثها المنصور في صفوف الناس والمؤرخين على السواء مستخدماً لذلك عدة وسائل • وتتمثل هذه الوسائل بأعوانه المندسين بين جميع طبقات المجتمع وفئاته وبأولئك الموظفين الرسميين لكتابة التاريخ • وغايته من ذلك تبرير استبداده بالامر من دون الخليفة الشرعي ، وتدل على ذلك رواية تنسب لاحد من سمح لهم بالاتصال بهشام • وقد روى حادثة للمنصور تدل على خبل هشام وكان رد المنصور ، أنه سجد وجعل يكرر حمد الله • ثم قال له: « اتعلم أن في هذا الذي أنكرته صلاح المسلمين ! وذلك أن السلطان الذي تصلح معه الرعية اثنان : اما سلطان قاهر ذو رأي عارف بما يأتي ويذر ، مستبد بنفسه ، واما سلطان مثل هذا تدبر الدنيا باسمه ، ولا يخشى المتفرغ لحراسة سلطانه غائلة ، والمتوسط يَهْلِك[٣] ويُهْلِك » •

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ و ٢٩٤ •

(٢) انظر نماذج عن هذه القصص ، أعمال الاعلام ، ص ٥٨ • المغرب • ص ١٩٣ – ١٩٦ • الذخيرة ، القسم الرابع – المجلد الاول ، ص ٦١–٦٢ •

(٣) المغرب ، ص ١٩٥ – ١٩٦ •

وفــاة المنصــور • ـ

في غزوته الأخيرة وعندما كان يجتاح أراضي قشتالة داهم المنصور مرض خطير اعجزه عن الحركة ، فحمل على سرير خشبي الى مدينة سالم• وهناك ادرك انها علة الموت ، فسعى في ايامه الاخيرة لوضع الاسس التي اعتقد انها ضرورية وملائمة لتأمين انتقال سلطانه لابنه ، وبقاء هذا السلطان في اسرته • أمن الوسيلة التي تضمن التلاحم بين ولديه ، عبد الملك الحاجب وعبد الرحمن صاحب الثغر ورتبة الوزارة ، وهي نزع ولاية الثغر مـن الاخير والامر ببقائه في قرطبة بجانب اخيه ، وذلك لخشيته من قيام النصارى بالايقاع بين الاخوين واغراء جارهما بالانتقاض على اخيه • ثم استقدم ابنه عبد الملك المرشح لوراثته واوصاه بالسير على سياسته تجاه هشام والضرب بيد من حديد على من يحاول الوثوب باسمه • وكذلك بعدم وضع يده بيد مرواني • ثم أمـره بالسير مباشرة الى قرطبة مـع غلمــان موثوقين وذلك لضبطها عند وصول خبر وفاته اليها ، ومنع انتقاض اعداء العامريين بها ما دام ابناؤه بعيدين عنها[١] •

وصل عبد الملك بن المنصور الى قرطبة في صدر شوال عام ٣٩٢هـ / ١٣ آب ١٠٠٢م وكان والده قد توفي قبل وصوله بثلاثة ايام ، ولم يكن على علم به • لكن الارجاف بموته كان سائداً ، وهو أمر طبيعي أثر ورود الانباء بخطورة مرضه • وقد حاول قطع هذا الارجاف بزيارته للخليفة لتعريفه على الحالة التي ترك والده بها •

أما عبد الرحمن فلم يفلح في ضبط العسكر اثر وفاة والده ، وبينما كان ينتظر أوامر اخيه بالقدوم • فبعد أسبوع واحـد من الانتظار انتقض عليه الغلمان الذين طالبوا بالعودة السريعة • ولما امرهم بالانتظار كشفوا مافي انفسهم واعلنوا رغبتهم باللحاق بباب الخليفـة هشام مولاهم ليأتمروا بأمره • وانفصل سبعمائة عنهم وعادوا ادراجهم الى قرطبة •

---

(١) انظر وصية المنصور في الذخيرة ، قسم رابع ـ مجلد اول ، ص ٥٦ ـ ٥٨ •

المظفر عبد الملك العامري

عندما بلغ عبد الملك الخبر اليقين بوفاة والده ، ابلغ الخليفة ذلك واستخرج منه كتاب توليته الحجابة وادارة امور الدولة مكان والده ولقباً سلطانياً هو المظفر • ثم امر اخاه بالقدوم الى قرطبة وعاقب العصاة من الغلمان بنفيهم الى سبته • ويلاحظ ان عبد الملك حاول السير على خطوات والده في جميع المجالات • فافتتح عهده بتخفيض سدس المغارم على الناس كما استهل والده السير على طريق السلطان بالغاء ضريبة الزيت • وفي سياسته العسكرية تابع ايضا عمليات استقدام جماعات البرابرة وخصهم بالأموال الطائلة ، واستكثر كذلك من الصقالبة ، وتابع الغزو في الشمال المسيحي ، على عادة والده ، حتى لم تكد سنة تخلو من غزوة • وبلغ به تقليد والده حداً جعله يحتفظ في البلاط بنفس الوظائف التي انشأها والده لأهل المعرفة من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجي ومعدّل وتاريخي وغيرهم، رغم أنه كان محارباً بطبعه ، وعديم الفهم والمعرفة جملة على حد قول ابن حيان • فأعطى أصحاب هذه الوظائف الأموال دون أن يجالسهم اذ ما كان يسايره وينادمه الا العجم والبربر المحاربون • كما اقتفى أثر والده بالاستمرار في الحجر على الخليفة هشام مع الحفاظ في نفس الوقت على تمجيده في الظاهر والادعاء باستمداد السلطة والالقاب منه • وهكذا احتجب هشام في نزهه المستورة على رسمه في أيام المنصور ، وبلغه منها عبد الملك بغيته وجعل يخرجه مع حرمه مستخفياً بعد طرد الناس عن طريقه فيضرب به الى كل ناحية ثم يعود الى قصره •

لكنه اختلف عن أبيه في بذخه،وفي أمر آخر أكثر أهمية وخطورة ، وهو تركه اعباء ادارة البلاد لوزرائه ولمن يقربهم من رجاله بينما كان الوالد

يشرف على كل صغيرة وكبيرة في الدولة ويراقب كل حركة • وربما كان مرد الخلاف بين الملكين ، كون عبدالملك رجل حرب جاهل بشؤون الادارة فهو رجل عديم الفهم والمعرفة جملة حسب وصف ابن حيان له[1]، وكذلك لشعوره بالاطمئنان لهدوء الأوضاع الداخلية في البلاد ، بعدما زرع والده الرهبة في قلوب الناس من العامريين ، ولانغماس الناس في حمأة نشاط اقتصادي شمل البلاد بعد آماد الهدوء الطويلة التي سادتها • فانكب على الحرب والشراب الذي « ما كان يصبر عنه والى طلب الآلات الملوكية حتى جلب اليه من ذلك كل علق خطير وتأنق في مراكبه هو واصحابه بالحلية التامة بخالص اللجين » •

الا ان ترك الأمور تدار بيد الوزراء والاعوان كانت له آثاره السيئة على الدولة ، اذ لم يلبث هؤلاء ان تحاسدوا وتنافسوا فيما بينهم على السلطة والظهور ، ثم انتقلوا الى التآمر والدس على بعضهم ، الامر الذي ادى لمقتل كبارهم الواحد بعد الآخر على يد المظفر •

برز من بين هؤلاء الوزراء عيسى بن سعيد القطاع ، وكان من صنائع المنصور ، الذي استخدمه منذ تولى الوظائف العالية في بلاط الحكم المستنصر، وظل في خدمته بأعلى المراتب في ايام حجابته واستبداده الى ان توفي •

وبارتقاء عبد الملك سدّة الحجابة والسلطان ينفتح ، امام عيسى بن سعيد القطاع ، على مصراعيه باب تدبير شؤون الدولة لاهمال سيده هذه الامور وجهله بها • وكان من اهم مؤهلاته معرفة واسعة بالحسابات استخدمها في مراقبة الكتاب والتدقيق عليهم مما جعلهم يخشونه • ونافسه على مكانته في البلاط طرفة ، أحد الفتيان العامريين الصقالبة ، الذي جمع حوله كل حاسديه ومنافسيه وعلى رأسهم عبدالملك الجزيري ، وهو شاعر كثير الشعر غزير المادة حسب وصف من ترجموا له[2] • وكذلك قاضي

---

(١) الذخيرة ــ قسم رابع مجلد اول ، ص ٦٠ •
(٢) الحميدي ، جذوة الاقتباس ، ت ٦٢٤ ، ص ٢٦١ــ٢٦٢ •

الجماعة أبو العباس بن ذكوان الذي فسخ لابن القطاع عقد شراء ضيعة وردها الى البائع ، فالتحمت العداوة بينهما بسبب ذلك[1] .

استطاع طرفة بهذه الكتلة التي جمعها حوله ، وبسبب جمعه بين السيف والقلم ان يرفع من مكانته لدى عبد الملك ويطغى على عيسى الذي أصبح عمله يقتصر على تدبير الديوان . ومن مرتبته العالية تلك استطاع طرفة أن يرفع الشاعر عبد الملك الجزيري لمرتبة الوزارة وأوشك عيسى أن يسقط لولا استخذائه وانحنائه للموجة العارمة بانتظار فرصة مواتية وجاءت هذه ابان مرض لعبدالملك المظفر دام ما يزيد عن شهر ، الأمر الذي جعل طرفة يصرف الأمور بالكامل . ومن هنا فتح مجال الدس عليه من قبل ابن القطاع لدى عبدالملك ، الذي أفاق من مرضه وتفتحت عيناه على طرفة وقد استولى على امره كله ونفذ اشياء وأشياء بغير علمه ، وشاع عنه اضافة لذلك القدح في سيده وولي نعمته .

تخلص المظفر من تابعه بعيداً عن مركز قوته ، إذ قتله عندما كان برفقته في سرقسطة ، وأصدر أمره لقرطبة بقتل صاحبه الوزير الشاعر عبد الملك الجزيري وعزل ابن ذكوان قاضي الجماعة ، وذلك في اوائل شوال سنة ٣٩٤/٢٣ تموز ١٠٠٤[2] .

خرج ابن القطاع ، بعد القضاء على طرفة وأصحابه ، أقوى مما كان، فهابه الجميع وحاول من جهته تقوية نفسه من جهات متعددة . فقد داخل الجند وجعل ارفع طوائفهم المسماة بالموالي تحت قيادته . كما صاهر بعض العائلات العريقة في خدمة الدولة كآل حدير وآل فطيس فرفع من مكانته العائلية ورفعهم هم في سلم الوظائف . وأخيراً صاهر عبد الملك المظفر ذاته بتزويج ابنه من ابنة للمنصور .

---

(١) المرقبة العليا ، ص ٨٦ .

(٢) الذخيرة ، قسم رابع ـ مجلد اول ، ص ٣٥ـ٣٦ . أما ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢١ـ٣٥ فيجعل ضمن رواية مطولة الحدث في ٣٩٨ . والرواية الاولى أرجح لأن رواية ابن عذاري مضطربة في ترتيب الاحداث متناقضة في التواريخ التي تضعها لها .

وعندما وصل لهذه المرتبـة تكالب الكثيرون ضـده ، ولم يكونوا في هذه المرّة من رجال الدولة لأنه اتم اخضاع الجميع ، بل من افراد الاسرة الحاكمة التي انتاب كبارها القلق على مصير عائلتهم بعد استئثار ابن القطاع بالأمر • كما ان عيسى قام ببعض تصرفات تجاههم اعتبروه فيها مسيئاً لهم ، بينما كان يعتقد انه يكسب بها ود المظفر ويصون مصلحته • فالذلفاء والدة المظفر نقمت عليه لتشجيعه لابنها على زيجة لم ترض عنها • وعبد الرحمن اخو المظفر نقم على ابن القطـاع لنصحـه لأخيه بابعاده عن أصحاب لـه اعتقد انهم رفاق سوء • والتف حول الأثنين كل اعداء ابن القطاع وباشر الجميع الدس عليه ، يساعدهم في ذلك امتناعه عن حضور مجالس الشراب التي يقيمها سيده وخلو الجو لهم ، فأفلحوا في جعل عبد الملك يتغير عـلى وزيره • وأخيراً اتهموه بأنه بعد احساسه بتغير سيده عليه ، خشي العاقبة وتواطأ مع هشام بن عبد الجبار الأموي على قتل المظفر وخلع هشام المؤيد العاجز والمنـاداة بالشريك الأموي خليفـة مكانـه •

بلغت اخبار المؤامرة للمظفر من اكثر من مصدر ، فاتفق مع اخيـه عبد الرحمن على الخلاص منه ، وفتك بـه بعد دعوته لشراب اقامه سيده في ١٠ ربيع اول سنة ٣٩٧ هـ / [1] •

غيّر عبد الملك ، بعد الخلاص من ابن القطاع ، سياسته في الاعتماد على الوزراء لتسيير شؤون الدولة ، وشمر عن ساعد الجد لمباشرة الاشراف على الكتاب والموظفين بنفسه • اي انه رجـع لسياسة والده • ومثله ايضا سعى لاكساء سلطانه ثوب الفخامـة الرسمية بواسطة الالقـاب السلطانية الرنانة • فاستغل انتصاره في احدى الغزوات ليستصدر من هشام المؤيـد كتاباً شاع عنه انه خط بيد الخليفة • وفيـه يمنحه لقبـين المظفر وسيف الدولة ويبيح له التكني بأبي مروان في مجالس الخلافة ومحافلها وفي الكتب الجارية منه واليه • وفي الكتاب ذاته منح الخليفة محمداً ابن المظفر رتبة

---

(١) انظر تفاصيل النقمة على ابن القطاع ومقتله في : الذخيرة ، قسم اول ـ مجلـد اول ، ص ١٠٢ ـ ١٠٧ •

ذي الوزارتين وان يكنى بأبي عامر وأن يكون ترتيبه بعد ابيه بين المشيخة ضمن نظام التشريفات الخاص بالمقامات لدى دولة الخلافة ، وذلك في صدر سنة ٣٩٨هـ / ايلول ١٠٠٧م(١) •

بعد نيل هذه الالقاب بأكثر من سنة ، خرج المظفر للغزو • ولم يمض على خروجه الا ثلاثة ايام حتى توفي في ١٨ صفر سنة ٣٩٩/٢٣ تشرين اول ١٠٠٨ على مقربة من قرطبة واثر اشتداد مرض الذبحة الصدرية الذي اصابه • فحمله غلمانه وعادوا به للزهراء • ومع أنه أصيب بالمرض في العام السابق الا أن موته السريع ، أدى الى سريان اشاعة مفادها ان الوفاة نتجت عن شربة مسمومة دست اليه من قبل اخيه •

عبد الرحمن شنجول

هو الابن الثاني للمنصور من زوجته عبده ابنة ملك نباره ، وقد غلب عليـــه لقب شنجول (Sanchuelo) ، الـذي كانت تدعوه به امه لشبهه بأبيها • وهو اسم تصغير في الاسبانية لشانجة (Sancho) اسم الجد • وقد ارتقى سدة الحجابة اثر وفاة اخيه المظفر ليبقى ممسكاً بالسلطة قرابة ستة اشهر فقط ، قتل بعدها وزالت بموته الدولة العامريـة ، كما ان الاندلس كلها دخلت اثر ذلك في فترة الفتنة التي استمرت زهاء ربع قرن ، وغمرت واختنقت في خضمها الدولة الاموية ووحدة الاندلس التي نشأت في ظلها •

كان عبد الرحمن هذا ، سواء في صفاته الشخصية أو تصرفاته ، احد العوامل الهامة التي سهلت على اعداء العامريين الاجهاز على دولتهم • اذ تتفق روايات المؤرخين القدماء على انه ، عرف منذ ايام اخيه بالتخلق بأخلاق تعتبر جامعة شاملة لكل المساوىء والأعمال المنكرة ، وباحاطة نفسه ببطانة

---

(١) أعمال الاعلام ، ص ٨٨ـ٨٩ • ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٥ـ٢١ •

على شاكلته • اما تصرفاته فقد نمت ، منذ ايام حكمه الأولى ، عن طيش وسوء تقدير للعواقب فقد اندفع بطموح اعمى للحصول على ما احجم عن نيله أبوه وأخوه قبله ، حتى بعد أن وطد كل منهما لنفسه بالقضاء على كل اعدائه وجمع الكثير من الامجاد •

بدأ ايامه الاولى بالاختلاط الكثير مع الخليفة المحجور عليه ، فحصل منه على لقبين ملكيين وهما ناصر الدولة والمأمون ، بعد ارتقائه منصب الحجابة بعشرة ايام فقط • بينما لم يتقلد ابوه واخوه اي لقب الا بعد انقضاء مدة طويلة نسبياً على حكم كل منهما • كما انهما كانا يستغلان مناسبة مجيدة لتقلده ، كاحراز انتصار مدو على نصارى الشمال أو اعداء آخرين •

وبعد شهر ونصف فقط ، من توليه الحجابة ، ضرب ضربته التي اعتقدها الأخيرة للفوز بالسلطة والخلافة معاً ، لكنها كانت القاضية عليه • فقد استغل اختلاطه بالخليفة أثناء نزهة طويلة ، أرضى فيها الاخير لكثرة تودده اليه واخراجه من القصر في هذه النزه ، فردد على مسامعه من باب الود والمجاملة أنه قريب له من جهة الخؤولة،واعتبر شنجول ذلك بمثابة وعد بتوريثه الخلافة ، واشاع ذلك في الناس تمهيدا للحصول رسميا على ولاية العهد • لكن تصرفاته التالية لتحقيق ذلك ، جعلت تسميته في ولاية العهد من قبل الخليفة هشام العاجز ، تبدو اقرب الى الاجبار منها الى الاختيار • فبعد اربعة ايام فقط من تصريح الخليفة له عن رابطة القرابة عن طريق الأخوال ، حضر الى القصر مع قوى من الجيش سدت كل منافذ القصر على الخليفة ، وطبقات من اهل الحضرة وهم من اتباعه • وفي هذا الجو انشأ احد كبار الكتاب صيغة بيعة هشام له بولاية العهد • وفيها ان الخليفة هشام بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وبعد أن أطرح الهوى وتحرى الحق ولو قطع الاواصر واسخط الاقارب ، رأى ان يخرج لعبد الرحمن ابن أبي عامر من تدبير الأمر في حياته وولاية عهده • آملاً أن يكون ولي عهده القحطاني هذا هو الذي جاء فيه الاثر عن النبي (ص) « لا تقوم

الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه »[١] .

صدم عبد الرحمن شنجول الناس بهذه العملية ، وخاصة الامويين الذين رأوا الآن ان العامريين لم يكتفوا بالحكم فعليا مستغلين عجز هشام وتاركين لهم أملا بانتهاء دورهم بموته وارتقاء خليفة اموي قوي ، بل نقلوا حتى منصب الخلافة اليهم . ومن الطبيعي أن ينشط هؤلاء الأمويون للعمل ضد غاصب الخلافة ، في وقت ثابر فيه على تنفير حتى اقرب اقربائه . فقد عهد لابنه بالحجابة ومنحه لقب المظفر ، وبهذا اساء لأهل اخيه وعلى رأسهم الذلفاء أم عبد الملك ، التي كانت تتهمه بقتل أخيه ليحل محله . وجاء اهماله الأن لابن اخيه الذي نال رتبة ذي الوزارتين وكنّي ايام ابيه ورفع الى رتبة الحجابة ، ليشعر الذلفاء[٢]، بأنه يريد أن يحتفظ بكل الملك لنفسه فنشطت للتعاون مع أعدائه الامويين رغم أنهم أعداء ألداء للاسرة العامرية كلها ، وذلك بواسطة الفتى بشر الذي اتصل بالامويين ووعدهم بتزويدهم بالمال من قبل الذلفاء[٢] . كما أن شنجول أغضب كبار موظفي الدولة في محاولته للتقرب من زعماء الجند البربر ، فقد اوعز اليهم بطرح قلانسهم الطوال المرقشة ، التي كانت حسب قول ابن حيان « على قديم الدهر تيجانهم التي يباهون بها طبقات الرعية وأهل المملكة »[٣] .

وفي هذه الظروف التي كانت دعوة احد الامويين ، التي تدعمها الذلفاء وتمولها ، تكسب لنفسها الانصار بين عوام قرطبة ، وحتى بين بعض صفوف الجند ، والنقمة تشتد على عبد الرحمن شنجول ، اختار هذا السير للغزو في اسوأ وقت ممكن من ناحية البرد وشدة المطر . ولم يعر اذناً صاغية لنصيحة أحد فتيانه بالامتناع عن الغزو لأن أحد المروانيين يدبر للاطاحة به .

---

(١) انظر نص كتاب البيعة في ، ابن عذاري ، ج ٣ . ص ٤٤ ـ ٤٦ .
(٢) اعمال الاعلام ، ص ١٠٩ .
(٣) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

لم يكد العامري يصل الى طليطلة حتى ترامت اليه الابناء عن قيام محمد بن عبد الجبار الاموي ضده واستيلائه على القصر الخلافي في قرطبة، وعلى الزاهرة ونهبها واحراقها • فسارع بالعودة اول الامر ، الا انه توقف في منتصف الطريق ليضيع هناك اربعة ايام ، هيأت للثائر فرصة التمكين لنفسه أكثر • وأظهرته أمام من معه من الجند فاقدا للثقة في نفسه•ذلك لأنه طلب منهم خلالها البيعة على محاربة أهل قرطبة بعد أن مناهم بالوعود وعقد لهم الانزالات على اموال القرطبيين وعلى تسلمهم الخطط ، فتظاهروا له بالطاعة • واغتر بذلك رغم تحذير زعيم نصراني كان يرافقه ، ومصارحة زعيم زناتي بربري بأن البربر من زناته لن يحاربوا معه • وتجلت له هذه الحقيقة عندما اقترب من قرطبة ، اذ سبقه جيشه اليها ولم يبق معه عند منزل ام هانيء بقربها الا خمسون فارساً لم يلبثوا ايضا ان تخلوا عنه • وعرض عليه الثائر الاستسلام مقابل تأمينه على حياته فرفض • وبعدما أمَّن حريمه في قصر مجاور حاول الهرب مع القومس النصراني فتبعه فرسان عدوه فأدركوه وقتلوه مع صاحبه النصراني •

الفصل الثاني

سياسة الخلفاء الاسبانية

ذكرنا سابقاً ان الاهتمامات الخارجية للخلافة الأموية في الاندلس قد تعاظمت الى حد كبير بالقياس الى العصر السابق ، عصر الامارة • وذلك نتيجة لتناقص المشاغل الداخلية ، ولازدياد قوة الدولة مما جعل الخلفاء يرنون بأبصارهم خارج حدود دولتهم ليتبوأوا مكانة مرموقة ، إما ، ضمن ديار الاسلام ، مما جعلهم ينازعون الفاطميين السيادة على شمال افريقيا • أو ليجعلوا كلمتهم هي العليا ضمن اطار البيئة التي يعيشون فيها ، وهي شبه الجزيرة الايبيرية ، لذلك خاضوا حروباً متصلة مع دول الشمال المسيحية الاسبانية • كما أن استبحار العمران بالاضافة الى قوة سلطان الخلفاء خلق دوافع سياسية واقتصادية لبعض كبار ملوك العالم او اباطرته البعيدين جعلتهم يتصلون بالخلفاء ويرتبطون معهم بعلاقات دبلوماسية كما هو حال الامبراطور الجرماني والامبراطور البيزنطي •

العلاقات مع اسبانيا المسيحية

القوى المسيحية في شمال اسبانيا ٠ ـ

لم تعد القوّة التي تجابه الاندلس الاسلامية في شمالها قوّة واحدة هي دولة اشتوريش بل تعددت هذه القوى وتعاظمت مستفيدة من فترة الحرب الاهلية التي استمرت قرابة نصف القرن الأخير من عصر الامارة ٠

قشتاله ٠ ـ

لعل اهم القوى الجديدة التي ظهرت كونتية قشتالة التي سيتعاظم دورها تدريجيا في محاربة المسلمين حتى تصبح لها القيادة في الفترات الاخيرة من وجود العرب المسلمين في الاندلس ٠

تطابق أرض هذه الكونتية تقريباً المنطقة التي دعاها العرب بالقلاع حسب اكثرية الآراء ، حتى ان اسمها الاسباني Castilla قريب من كلمة القلاع الاسبانية Castillos ٠ وقد اطلق المؤرخون اسم بلاد القلاع على تلك المنطقة الواقعة في السفوح الشرقية لجبال الكانتابريك والى الشمال من مدينة برغش الحالية ٠ فهي عبارة عن الجزء الواقع في اقصى الشرق من دولة اشتوريش ٠ اي ذلك الجزء الذي تقترب فيه الحدود من العرب وحيث يأخذ الاحتكاك معهم اكثر أشكاله حدة ، لأن المنطقة هي مدخل الصوائف العربية لغزو دولة اشتوريش ٠ واعتباراً من بداية القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري بدأت بالتراكم تلك الأسباب والظروف التي ستجعل من ولاية الحدود أو الثغر لدولة اشتوريش كياناً خاصاً يحكمه Conde أو قمط حسب التسمية العربية لينال حق ابقاء الحكم وراثياً في سلالته ٠ وكانت عاصمتها أمايا على ضفة نهر البيسويرغا Pisuerga

في اعاليه • وفي عهد الفونسو الثالث ، عند ما وصلت شدة الحرب الاهلية الى ذروتها عند المسلمين في اواخر عصر الامارة ، أُمر حكام مناطق الشمال الشرقي من اسبانيا وعلى رأسهم قمط قشتالة بالنزول من الجبال واعمار السهول فتقدموا من منطقتهم الى اعالي حوض دويرة ، وأُعمرت مدن عدة مثل برغش ومدن اخرى على الضفة الشمالية لنهر دويرة اشهرها حصن غرماج San Esteban de Gormaz .

ونشأت قشتالة الكبرى عندما جعل راميرو الثاني في عصر الخلافة فرّان غنصالس Fernan Gonzalez قمط قشتالة القديمة قمطاً على كل هذه المناطق الجديدة المعمرة(١) •

دولة ليون • ـ

مع بداية عصر الخلافة يتغير اسم أكبر دولة مسيحية في اسبانيا وهي دولة اشتوريش فيصبح دولة ليون • وهي تسمية مشتقة من اسم العاصمة الجديدة • وهذا التغير في العاصمة الذي تبعه تغير في الاسم لم يكن امراً شكلياً البتة ، بل كان قمة لتبدلات حدثت على مر عقود عديدة من السنين اتسعت خلالها رقعتها وتعاظمت قوتها • فخلال نصف القرن الأخير من حياة الامارة الاموية ، اي في فترة الحرب الأهلية بين المسلمين ، شجع ملوك اشتوريش ، كما رأينا ، عملية اعمار مناطق السهول خلف الكانتابريك ، وامتد هذا الاعمار حتى بلغ ضفاف دويرة الشمالية وضفاف بعض روافده • وكانت الغاية من بناء المراكز الأخيرة ، أن تكون درعاً واقياً للمستوطنات الجديدة في السهول من هجمات العرب المسلمين •

ووصلت حركة الاعمار هذه ذروتها في عهد الفونسو الثالث الذي عاصر فترة طويلة من الحرب الاهلية وبداية عصر الخلافة • وجاء بعده ابنه غرسية الاول (Garcia) ، فرأى أن العاصمة أوبيدو أصبحت بعيدة

---

(١) R. Menendez Pidal; El Idioma Español, P. 83-89 .

جداً عن المستوطنات ومتطرفـة جداً بالنسبة لمجموع الدولـة ، كما انهـا محجوزة عنها بالجبال • وبما انه كسلفه ، لم يعـد يخشى قوة المسلمـين كملوك اشتوريش السابقين ، لذا نقل العاصمة الى ليون الاكثر قرباً مـن الحدود الاسلامية والواقعة في السهول وعلى طريق مواصلات رئيسي ايضاً اذ أن ليون كانت مدينة رومانية قديمة على الطريق بين بوردو واشترقة ، وهو الطريق الذي سيصبح في المستقبل ، مع بعض تعديلات في ممراته ، طريق الحجاج المسيحيين نحو مقام شنت يا قب •

واذا عنى نقل العاصمة دخول الدولة مرحلة القوة ، لكن ملك دولة ليون لم يكن الملك الوحيد في اسبانيا المسيحية ، كما كان الحال ايام دولة اشتوريش ، بل شاركه زعماء مراكز قوى مسيحية اخرى في شبه الجزيرة مثل أصحاب بنبلونة • واعتبر ملوك ليون أن لهم حق السيادة عليهم وعبروا عن هذا الحق باتخاذ لقب امبراطور[١] •

دولـة بنبلونـة • ـ

ومن المراكز المسيحية الشمالية التي استفادت من ضعف قوة مسلمي الاندلس ، دويلة بنبلونة ، التي توطّدت وبدأت تلعب دوراً معيناً في الهجوم على المسلمين •

تقع ارض هذه الدولة في اقصى الغرب من منحدرات البيرينة • وقد ارتبط خضوع هذه المنطقة للعرب بنشاط الحملات على غاليا ، ان بنبلونة على طريقها ، كما كانت في بعض الاحيان قاعدة انطلاق لها • وعندما دب الخمول على عمليات غزو غاليا اثر موقعة بواتيه اهملت بنبلونة ورفع أهلها بها • لكن احتدام النزاع العنصري والقبلي الذي سبق دخول عبد الرحمن الداخل شغل المركز عن الاهتمام بالأطراف واستغل البشكنش أهل المنطقة

---

(١) Menendez Pidal; El Idioma Español ..., P. 53-58 .

ذلك ، ورفعوا راية العصيان من جديد وقتلوا قادة عـدة حملات وجهت ضدهم • وبذلك تمردوا على سلطان قرطبة كأهل اشتوريش سواء بسواء • وبعد فترة فقدوا فيها استقلالهم في عهد عبد الرحمن وحكمهم حكام الثغور المسلمون عادوا الى سيرتهم الأولى أيام الحكم الربضي في ظل أسرة ظلت تحكمهم حتى عصر الخلافـة •

اتصف أهل المنطقة بشراستهم في الحرب ، لكن الجغرافين العرب يسمونهم بالتوحش ، اذ يصفهم احد هؤلاء في عصرالخلافة بقوله عن بنبلونة « وهي بين جبال شامخة وشعاب غامضة ، قليلة الخيرات ، اهلهـا فقراء ، جاعة لصوص • وأكثرهم متكلمون بالبشقية لا يفهمون »[١] •

ومع ذلك كان ملوكها خلال عصر الامارة يشعرون بضعفهم تجـاه القوى المحيطة بهم فمالوا الى التقارب معهم • وهكذا صادقوا الكارولنجين أصحاب الثغر الاسباني المجاور لهم من الشرق ، وبني قسي أصحاب الثغر الاعلى الاسلامي واتباع امير قرطبة بالاعتبار الرسمي • وعندما قل اهتمام الكارولنجيين ، أواخر عصر الامارة ، بثغرهم ، وتوطدت دولة اشتوريش ، وبدأت المشاكل تعصف بامارة الأمويين في قرطبة ، مال ملوك بنبلونة لمصادقة دولة اشتوريش التي تجمعهم معها رابطـة الدين[٢] •

الثغر الاسباني • ـ

عرفت أملاك الكارولنجيين في اسبانيا باصطلاح Marca Hispanica ويمكن ترجمته « الثغر الاسباني » • وكان يقصد بهذا الاصطلاح في النظام الاداري الكارولنجي «اراضي الحدود ذات الاحتكاك الدائم بالعدوالخارجي وتماثـل بذلك الليم الروماني • ومثله تخضع لمنظمة عسكريـة وتجتمع سلطات الحكم فيها في يد قائد القوات العسكرية ، صاحب رتبة الكونت أو

---

(١) الروض المعطار ، ص ٥٥ ــ ٥٦ •

(٢) Perez de Urbel; Origen del Reino de Pamplona (Al-Andalus, vol. XIX, P. 1-38).

القمط حسب التسمية العربية • أو ما أطلق عليه فيما بعد Marchisus التي حرفت الى مركيز(١) • تكوّن هذا الثغر بمجموعه منذ أواخر القرن الثامن الميلادي وخلال التاسع / الثاني والثالث الهجريين • واصبح يضم كونتيات متعددة على رأسها برشلونة وامبوريش (Ampurias) وخيرونا • كما كان متحداً في ادارة واحدة مع سبتمانيا الواقعة خلف البيرينة في أراضي فرنسا الحالية ، ثم فصل عنها في عهد شارل الأصلع عام ٨٦٥ م ، الذي كان يرى ، على ما يظهر ، أن من الخطر جمع كل هذه القوى في يد مركيز سبتمانيا • وقد شجع استمرار هذا الانفصال كونتات برشلونة على الاستقلال مستغلين ضعف أواخر الكارولنجيين •

عبد الرحمن الناصر ودول الشمال الاسبانية • ـ

رغم تعدد هذه القوى ونمو بعضها وتعاظم قوة البعض الآخر ، استطاع الخلفاء أن يخضعوا ملوكها لبذل الجزية في فترات متطاولة من عصر الخلافة ، لكن هذا الخضوع لم يكن مستمراً بل متقطعاً ، يحدث عقب كل هزيمة ثم ينقطع عندما يظن أولئك الملوك أو الحكام أن الخليفة ، لسبب أو لآخر ، غير قادر على اخضاعهم • ثم يعودون الى ماكانوا عليه من الخضوع بعد ما يتأكدون من كذب ظنونهم بهزيمة جديدة • وكما هو الحال في النواحي الأخرى ، كان عبد الرحمن الناصر المدشن لبسط سيادة قرطبة على دول الشمال المسيحية • توصل اليها بعد العديد من الغزوات والحروب التي خاضها ضدها طيلة خلافته تقريباً •

كانت الأهداف التي يبغي تحقيقها من هذه الحروب تتغير بتغير درجة قوته وبمدى سيطرته على العصاة الذين انتشروا في القسم الاعظم من الأندلس عند توليه العرش • وهكذا كانت حروبه ضد المسيحية ، أول

(١) Halphen; Charlemagne et l'Empiré Carolingien, Paris 1947., P. 154 .

الأمر ، مجرد غارات بسيطة شبيهة بغارات هؤلاء المسيحيين على الأراضي الاسلامية ، وان كانت أخف منها وطأة وأضيق منها نطاقاً • ثم تحوّلت الى غارات تأديب وعقوبة ، كان الناصر يقوم فيها بهدم وتخريب الحصون التي تستخدم كقواعد انطلاق لغارات الاعداء على بلاده ، وبتقوية الحصون الاسلامية المجاورة • ورغم انتصاراته المتعددة التي أحرزها الا أنه لم يضم شيئاً من الأراضي التي يكتسحها واكتفى بأخذ الجزية في آخر الأمر من هذه الدويلات ، فأحيا بذلك سياسة اوائل الأمويين • ويظهر لنا ذلك بوضوح إذا استعرضنا أهم حروبه • بدأ عهد عبد الرحمن الثالث وزمام المبادهة بيد ملوك دولة ليون ، فركّز أُردون الثاني (Ordoño) هجماته على منطقة الثغر الأدنى طيلة ثلاث سنوات • كان ينطلق فيها من حوض دويرة ثم يتوغل عابراً التاجو ، ليهاجم حصوناً متعددة في هذا الثغر كيابُره (Evora) اولاً ثم حصن الحنش (Alange) ، ثم يعود من غاراته حاملاً آلاف السبي من النساء والأطفال بعد قتل الرجال • ويمكن هنا ان نربط بين تركيز اوردونيه على هذا الثغر وانفصاله عن سيادة قرطبة في ظل سلطان آل الجليقي ، وتوجه اهتمام هؤلاء نحو الجنوب في جهات اشبيلية ، حيث أعاد عبد الرحمن الناصر بسط سلطان قرطبة ، لا نحو الشمال حيث يهاجمها المسيحيون • ونتيجة لما اوقعه المسيحيون بهم ولخوفهم من امير قرطبة دفع ابن الجليقي الجزية لملك ليون •

اما ردود قرطبة على الغارات فقد بدأت منذ عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، وقام بالغارة الأولى محمد بن ابي عبدة قائد الناصر • ويظهر انها كانت غارة حدود محدودة المدى لم تسفر إلا عن بعض من تخريب وبعض من غنائم وعلى تشجيعه للقيام بغارة أخرى اوسع مدى في العام التالي •

استهدف في هذه الغارة الثانية احتلال حصن شنت ايشتبين أو قاشتُر موروش (San Esteban) ، وهو من الحصون الهامة التي اقامتها دولة ليون على الضفة اليمنى لنهر دويره ، لكن الهزيمة حاقت به • وتعزو الرواية

الاسلامية هزيمته الى عاملين أولهما استعداد المسيحيين وامدادهما للموقع . وثانيهما عدم اخلاص فرسان الثغر ومداهنتهم في الدين فأظهروا الهزيمة وجرّوها على المسلمين ، فانهزم كثير منهم وثبت القائد الذي يقال عنه انه اعتنق مذهباً في طلب الشهادة وكان ذلك في ١٤ ربيع أول سنة ٣٠٥/٤ ايلول عام ٩١٧[1] . وهذا الموقف لرجال الثغر غير مستغرب لأن ولاءهم لعبد الرحمن الناصر كان موضع شك . كان لهذه المعركة نتائجها الأبعد وربما الأهم من مجرد اعداد القتلى المسلمين ، وهو استطالة المسيحيين على المسلمين في الشمال ففي العام التالي هاجم ملك ليون منطقة الثغر الأوسط محاولاً احتلال طلبيرة . كما ان صاحب بنبلونة غزا اقطاع بني قسي في وادي ابرُه الأوسط ، وضرب حول مدينتي تطيلة وناجرة .

رد المسلمون بغارات لم تكن ذات اثر يذكر . وكان أهمها ما قام به عبد الرحمن الناصر شخصياً عام ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م في غـزوة مويش التي استمرت ثلاثـة أشهر ، وجاب فيها منطقتي أعالي دويره وأواسط وادي إبْرُه . ونشر الخراب ضمن أراضي الخصوم على جوانب الطرقات التي مرّ بها لمسافة عشرة أميال من كل جانب . كما بلغت الغنائم منها وخـاصة الغذائية ، حداً أصبح معه القمح يباع بثمن زهيد جداً ، ثم احرقت المواد الغذائية لعدم وجود من يشتريها .

أما مراحل هذه الغزوة فكانت انطلاق الناصر من ثغر مدينة سالم ، ذات الموقع المتوسط بين الثغرين الأوسط والاعلى . ثم سرّح مقدمته نحو الثغر الأعـلى ليوهم الخصم أنـه يقصده ، وأسرع بمعظم قواته الى الثغر الأوسط عابـراً نهـر دويـره . وحط فجـأة عـلى حصن وخشمه . الذي جلت عنه حاميته بسبب هـول المفاجـأة . وتوجـه بعد ذلك ليحتل الحصن الذي قتل عليه قائده قبل ثلاث سنوات وهو حصن شنت ايشتبين الذي يصفه المؤرخون القدماء بالقول « بيضة الكفرة وقاعدتهم ، والموضع الذي كانوا تعوّدوا فيه الاستطالة على من وردهم » . ولقي الحصن مصير

(١) انظر : المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط ، ورقة ٦٣-٦٤ .

الموقع السابق ، ثم سار عبد الرحمن نحو قلونية التي تكررت فيها القصة ، اذ اخلاها حماتها واحرقت •

بعد هذه الانتصارات التي تحققت للناصر في الثغر الأوسط ، رجع للسير على ضفة دويرة وانتقل منه الى نهر ابرُه ومواقع المسيحيين المجاورة للثغر الأعلى والخاضع اكثرها للملك بنبلونة • وقد احتل منها حصن قلهرة ومنه عبر النهر الى الضفة الاخرى حيث وقعت بينه وبين شانجُه (Sancho) معركة هزم فيها الأخير فانسحب ليجمع قواته مع قوات ملك ليون أُرْدُون في شعاب جبلية ، وعندما نزلت الى السهــل وقعت الموقعة الفاصلة في ذلك المكان الذي تغفل الرواية العربية اسمه بينما تورده الرواية الاسبانية باسم (Valdajanqura) . (١) •

وحاقت الهزيمة بالمتحالفين ، بينما اتم عبد الرحمن الناصر انتصاره بالقضاء على بقايا الجيش المتحصنة في حصن مويش ، ثم عاد ادراجه لقرطبة فدخلها بعد غياب استمر ثلاثة اشهر •

موقعة الخندق • ــ

بعد هذه الغارة حصل اضطراب شديد شمل كــل اسبانيا المسيحية تقريباً واستمر مدة سبع سنوات ، فأعجزها عن الحركة تجاه المسلمين • واتاح ذلك لعبد الرحمن الناصر ان يبسط خلالها سلطانه عــلى الاندلس كلها ، فقد تم خلالها احتلال ببشتر والاجهاز نهائياً على استقلال بني مروان الجليقي وكذلــك عــلى انفصال طليطلــة ، وغدت اراضيه تحف بأراضي المسيحيين من الجنوب كله •

انجلى الصراع اخيراً في دولة ليون وتولى عرشها رذمير (Ramiro. II) وعاد الطرفان المسيحي والمسلم لتبادل الغارات غير الفاصلة •

وصل عبد الرحمن في بعضها الى برغش وهدمها ، بينما وصل رذمير

---

(١) . Primira Cronica General, vol II, P. 385

بدوره الى مجريط قرب حوض التاجُه • وتوجت هذه الغارات آخر الامر بموقعة الخندق قرب شنت مانكش (Simancas) • وقف فيها عبد الرحمن من جانب ومن الطرف الآخر رذمير بن أُرْدون ملك ليون وفرنان غنصالس (Fernan Gonzalez) قمط قشتالة وطوطة (Toda) الوصية على ابنها غرسية ابن شانجُه ملك بنبلونة ، واستمرت عدة أيام تأرجحت فيها كفة النصر بين الجانبين ، وانجلت اخيراً عن تقهقر المسلمين الذين الجأهم عدوهم الى خندق فقتلت منهم أعداد وفيرة قدرتها الرواية المسيحية بمائةوثلاثين الفاً[1]، وهو رقم فيه مبالغة واضحة •

أما الرواية الاسلامية التي تذكر هزيمة المسلمين، فقد انفرد ابن الخطيب بين المصادر الأندلسية بايرادها بالقول «ان المسلمين تساقطوا في الخندق حتى ساووا بين حافتيه[2]• كما تنعكس في كتب تراجم رجال العلم أصداء الخسائر الكبيرة بالاشارات لاستشهاد عدد منهم في هذه الموقعة[3] • كما استولى العدو على كل عدد المسلمين ومن بينها درع الناصر ومصحفه •

تعلّل رواية ابن الخطيب هذه الهزيمة بخيانة طائفة من جند الناصر « حسدته ما هيأ الله له من الصنع ، ولم تناصحه في الحرب حق النصح، فجالت ثانية للأعنة واختل مصاف القتال »•وهو تعليل غير بعيد الاحتمال، خاصة وان هذا الجيش ضم في صفوفه اعداداً من الثائرين السابقين الذين استنزلوا من حصونهم وادخلوا في الجيش • وربما أسهمت لحد ما خيانة بعض امراء جيش الناصر في الحاق الهزيمة به • وهذا ما تدل عليه رواية المسعودي ، وهو مشرقي معاصر ولكنه حسن الاطلاع على بعض الأمور المتعلقة بالاندلس • ويقول في روايته ان المسلمين دخلوا بعض التحصينات المحيطة بالمدينة ، ثم هزموا بعد هجمة معاكسة من داخلها ، وتراوح عدد قتلاهم بين الاربعين والخمسين الفاً • وكان سببها خيانة امية بن اسحاق

(١) Primira Cronica General, vol. II. P. 395-96.

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٣٦ ـ ٣٧ •

(٣) ابن الفرضي ، ج ١ ، ص ٢٤ و ١٢٣ ؛ ج ٢ ، ص ٤٩ •

احد أقرباء الناصر الذي قتل اخاه احمد بن اسحاق لأمر كان منه استحق عليه هذه العقوبة ، وتحالف مع رذمير ، وهرب اليه عندما دخل غلمان الناصر المدينة . وكان في جيشه يدله على عورات المسلمين . وهو الذي نصح رذمير بعدم تعقب المسلمين خوف الكمين[(١)] .

وعلى الرغم من محاولة الرازي [(٢)] مؤرخ البلاط لنفي وقوع نكسة إلا أنه من الأرجح أن الهزيمة كانت شنيعة الى حد خشية الناصر من مضاعفاتها الداخلية . فقد وجه بعد نجاته طائفة من انجاد خدمته سبقت الناس الى قرطبة ، فبشرت بسلامته وانفذت امره باتخاذ الخشب والمصالب على ضفة نهرها . وعند وصوله اليها قبض على ما يناهز ثلاثمائة من الفرسان فصلبهم ، ومر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الاسلام وكاد أهله واخلّ بمصاف الجهاد » ولم يباشر بعدها الغزو بنفسه .

ولاء دول الشمال الاسبانية للناصر . ـ

كان لهذا النصر رنة فرح واصداء على مدى واسع ، لم يقتصر على اسبانيا المسيحية بل تعدّاها الى انحاء اخرى في اوربا ، حيث ردده المؤرخ الشهير لوتبراند . ومع ذلك تظل هذه المعركة أبعد ما تكون عن الدلالة على ضعف خليفة قرطبة وقوّة خصومه . ذلك لأن دولة الاندلس كانت موحدة بينما كان خصومها حلفاء وحدهم خطر مشترك ، فما ان احرزوا النصر عليه حتى دب الخلاف بين صفوفهم . فاحتدم النزاع بين قمط قشتالة وسيده ملك ليون ، لرغبة الأول في توطيد استقلاله ، وكان دوره ، ودور جنده في المعارك وموقع بلده على حدود المسلمين ، حاسماً في موقعة الخندق . ورغم انتصار رذمير عليه ، الا انه اضطر لاعادته بضغط القشتاليين ، وان حاول توثيق ارتباطه بدولته عن طريق الزواج بين ابنه أُرذون وابنة القمط . وقد استغل الناصر هذا الوضع واحرز انتصارات متعددة خلال ما تبقى من حياة رذمير الثاني . كما انشأ عام ٣٣٥هـ / ٩٤٦ م مدينة سالم ، في اقصى

---

(١) انظر المسعودي : مروج الذهب ، ج ١ ، ص (١٨٣ ـ ١٨٤) و ج ٢ (ص ٨ـ١٠).
(٢) المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط ، ورقة ١٦٦ـ١٧٢ .

الشرق من الثغر الاوسط تجاه قشتاله ، وأشرف على بنائها قادة الثغور المسلمون وفي مقدمتهم مولاه غالب الذي أنفذه من الحضرة ، وغدت حسب ما يورده ابن عذاري « شجا في حلوق الكافرين »[١] توفي رذمير عام ٣٤٠هـ / ٩٥١ وتوج مكانه ابنه البكر أُرذون الثالث ، الذي اضطر لمواجهة تحالف يبغي تنصيب اخيه شانجه مكانه .

ضم هذا التحالف طوطة الوصية على عرش بنبلونة وجدة شانجه لأمه وكذلك فرنان غونصالس ، قمط قشتالة ، الذي يعادي صهره ارذون لأنه أكره على تزويجه بابنته ، كما أن التدخل في عرش ليون يتيح له توطيد استقلاله . ورغم انتصار ملك ليون على المتحالفين ، الا ان عبدالرحمن الناصر استغل هذا الوضع وأغارت قواته على دولة ليون وقشتالة ، في السنتين اللتين تلتا وفاة رذمير . فاضطر أرذون لطلب الصلح عام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥م . وتمت المهادنة على شروط يرجح انها كانت اعطاء حصون للناصر على الحدود أو تهديمها على الاقل . وتفاوض الطرفان على هذه الشروط ، فذهبت سفارة من قبل الناصر رداً على سفارة الملك المسيحي رأسها محمد بن حسين وحسداي بن شبروط اليهودي،الذي كان ترجمانا لها على ما يظن. وفي العام التالي انضم كونت قشتالة الى هذه الهدنة[٢] .

لم يبق خارجاً عن مهادنة عبد الرحمن من ملوك الشمال الا دولة بنبلونة ، حيث تسيطر الوصية طوطة على الحكم . لكن تطور الأحداث في دولة ليون اجبرها على البحث عن مصادقة عبد الرحمن . فقد توفي أرذون الثالث في خريف عام ٩٥٦م / ٣٤٥هـ ، وخلفه على عرش ليون اخوه ، المتآمر السابق عليه شانجه الأول حفيد طوطة ، الملقب بالضخم لسمنته المفرطة التي منعته من امتطاء الخيل وأثارت عليه احتقار الليونيين له . وقد رفض هذا الموافقة على شروط الاتفاق الذي تم بين سلفه والناصر ، فعادت

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٢) النفح ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

الغارات الاسلامية تجتاح اراضيه ، وحلت به الهزيمة فزادت بذلك من ضعف مركزه الداخلي • وانتقض عليه نبلاء ليون ، الذين يتربصون به الدوائر ليتحرروا ، وكذلك قمط قشتالة ، فخلعوه ورفعوا لسدة العرش أرذون الرابع بطريقة الانتخاب •

لجأ الملك المخلوع الى جدته طوطة ، فاستقبلته وبدأت بالعمل لاعادته لعرشه • ويظهر أنها رأت ضرورة شفائه من سمنته اولاً ثم تهيئة القوة اللازمة لتنصيبه على عرشه من جديد ، ووجدت الوسيلتين لدى الناصر ، فأرسلت له سفارة • وحمل رد الناصر اليها الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط الذي عالج لها حفيدها ، واتفق معها على زيارة قرطبة مع ابنها ملك بنبلونة وحفيدها ملك ليون المخلوع • وعندما تمت الزيارة سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٩م اتخذت الاجراءات لتنفيذ الاتفاق ، ووجهت صائفة العام ضد ليون وبرفقتها الملك المخلوع،وفي نفس الوقت هاجمت قوات بنبلونة قشتالة لتمنع قمطها من اعانة الملك القائم في ليون•وقد استطاع الجيش القرطبي احتلال سموره (Zamora) ثم أعاد شانجه لملكه بعد عدة اسابيع • «وارسل للناصر يشكره على فعلته وكتب الى الامم والنواحي بذلك • ولم يزل على موالاته واعانته الى أن هلك » [1] كما استطاعت قوات بنبلونة هزيمة القشتاليين واسر قمطهم •

اكتمل ولاء الدول المسيحية للناصر بطلب قمط برشلونة صداقته ايضاً وعادت طرّكونة للمسلمين بدلالة وجود نقش فيها يحتوي على ذكر لتجديد مسجد فيها بأمر من الخليفة عبد الرحمن الناصر •

الحكم ودول الشمال المسيحية • ـ

توفي الناصر في ظل هذه الأوضاع • وعندما خلفه الحكم طمع الملوك الأسبان بأن يكون خطهم مع الخليفة الجديد المنكب على الشؤون العلمية

---

(١) انظر : النفح ، ج ١ ، ص ٣٤٢ •

لا الحربية ، افضل منه مع سلفه . رفض شانجه تسليم الحصون المتفق عليها عندما طالب الخليفة بها . وسلك ملك بنبلونة مسلكاً فيه تحد اكبر ، اذ رغب الخليفة في تسلم أسيره فرنان غنصالس ، لكن هذا لم يكتف بالرفض بل أطلق سراحه ليعود الى الاغارة على الحدود الاسلامية .

رد الحكم على هذا الموقف بالاستعداد للحرب وترديد الغارات على بلاد الناكثين بالعهد . وكذلك باستغلال المنازعات الداخلية في دولة ليون فقد كان الملك المخلوع أُرْدُون الرابع يعيش في برغش ، وحمله حموه وكونت قشتالة الى الحدود الاسلامية ، حيث طلب المثول بين يدي الحكم . لبي طلب الملك المخلوع ، واستقبل استقبالاً مهيباً واستضيف يومين في منية الناعورة . وذلك قبل أن يحظى بمقابلة الحكم مقابلة رسمية قبل فيها يده ، وعرض أعمال شانجه الغادرة مقابل مساعدة الناصر له « قصَّر في أداء المفروض عليه وحقه وحق مولاه أمير المؤمنين » وأعلن أنه « قصد باب أمير المؤمنين محكماً له في نفسه ورجاله ومعاقله ومن تحويه من رعيته » وتعهد بمقاطعة فرنان غنصالس وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده . ومقابل ذلك وعده الحكم بنصره على عدوه وانصرف ومعه وجوه نصارى الذمة بقرطبة »(١) .

ويظهر أن أنباء وعد الحكم لأرذون بالمساعدة قد وصلت لشانجه بن رذمير ، فغير موقفه وأرسل سفارته الى قرطبة يجيب فيه على ما خوطب فيه وبيعته التي عقدها على نفسه وجميع أهل مملكته (٢) . فتقبل الحكم بيعته على شروط منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين(٣) .

بعد هذا الاتفاق لم يعد أحد يهتم في قرطبة بأرذون الذي توفي في ظلال الاهمال والنسيان في أواخر العام نفسه على ما يظهر . وأزال موته

---

(١) النفح ، ج ١ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٩ .
(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .
(٣) انظر ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .

مخاوف شانجه فنكث عن تنفيذ وعوده ، واستعد لمواجهة الحكم بالتحالف مع قمط قشتالة وملك بنبلونة وقمط برشلونة .

رد الحكم بسرعة على التحدي وضد كل واحد من المتحالفين على حدة عام ٣٥٢هـ/٩٦٣م.وكانت قشتالة الهدف الأول ، فاحتل فيها حصن غرماج (Gormaz) على نهر دويرة . كما قام القواد الموالون للخليفة في الثغر الأعلى باحتلال قلهرا . وهنا نلاحظ ظهور سياسة جديدة ، اذ لم يكتف المسلمون باحتلال الحصون وتخريبها ، كما كان الحال قبلا ، بل انهم رمموا بعض ما خرب منها وزادوا في حصانة بعضها الآخر كما هو الحال في حصن غرماج ، وشحنوها بالحامية [1] .

اضافة لرد الحكم القوي على دول الشمال المسيحية ، تعرضت هذه الدول لأخطار خارجية ، كهجمات المجوس النورمان على شواطىء جليقية ولهزات داخلية تمثلت بوفاة شانجه الأول وبارتقاء ابنه فتولت الوصاية عليه عمته طلوره (Elvira) . واستغل كبار النبلاء في المملكة ، التواقين للاستقلال ، ضعف العرش هذا لاعلان أنفتهم من الخضوع لصبي وامرأة ، واستقل كل منهم بامارته وفي الاتصال بقرطبة فتعاقبت سفارات الأمراء والوصية ، على حد سواء ، معلنة ولاءها للخليفة طالبة تحكيمه فيما يشجر بينهم من خلاف . ويظهر أن الحكم عيّن في هذه الفترة بالذات سفارة متنقلة له في هذه الأماكن لتكون صلة اتصال دائمة بينه وبينهم من جهة ، وللتعرف على ما يحدث في صفوفهم من جهة أخرى ، حسب ما يورده ابن حيان ضمن أحداث سنة ٣٦١ هـ « وكان الخليفة الحكم قد رتب المعروف بابن أبي عمروس العريف وسعيداً صاحبه ،

---

(١) انظر عن بناء حصن غرماج :

Ocaña Gimenez; Lapida Arabe de La Ermita de San Migel de Gormaz (Al-Andalus), 1943. P. 450-52.

المسلمين الماهرين بالخدمة المعروفين بصدق اللهجة للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ولقاء قواميسها والتردد اليهم كل وقت لتعرف أخبارهم والتجسس لأنبائهم وحمل الكتب اليهم كل وقت وصرفها عنهم فيصح الصحيح وتحسن الفائدة[1] » كذلك شاخ كونت قشتالة وتوفي عام ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م فخلفه ابنه غارسيه بن فرذلند (Garci Fernandez) وفي نفس العام أيضاً توفي ملك بنبلونة وانتقل تاجه لشانجه بن غرسيه الثاني (Sancho Garcia. II) الملقب أباركا (أي الحذاء ذو الساق القصير) • وما كاد الملكان الجديدان يرتقيان العرش حتى قدما ولاءهما للخليفة الجديد •

رأى الحكم استغلال توطد سلطانه على هذه الجبهة لفرض ارادته في شمال افريقيا ، وكلف بالمهمة مولاه غالب ، قائد الثغر الأوسط ، وأمده بقواد آخرين كان من بينهم قواد من الثغر الأعلى • وعندما شعر كونت قشتالة بذلك أواخر عام ٣٦٣هـ / أواسط ٩٧٤م ، خرق العهد وهاجم حصوناً اسلامية في منطقة مدينة سالم وقلعة أيوب ، في الوقت الذي كانت سفارته فيه ، تجدد العهود السابقة مع الحكم ، ورد الخليفة بسجن السفارة واعادة المولى غالب والقواد الآخرين الى مراكزهم • وكانت اعادة القوى الى ما كانت عليه في الثغور في محلها ، اذ لم يقتصر الأمر على انتقاض قمط قشتالة بل تحالف هذا مع ملك ليون وملك بنبلونة وتوجه جيش ضخم للمتحالفين وحاصر حصن غرماج ، ذي الأهمية البالغة التي أشرنا اليها قبلا ، لكن التعاون بين حامية الحصن وقوات المولى غالب ، أسهم في هزيمة المتحالفين • واتبع المولى غالب ذلك باستخلاص حصن جديد هام ، واقع على نهر دويرة أيضاً ، من قشتالة • كما لاحق حاكم سرقسطة بدوره قوات بنبلونة داخل أراضيها وهزمها في معركة جرت قرب تطيلة •

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٧٦ •

المنصور ودول الشمال المسيحية .

ضرب المنصور رقماً قياسياً في الغزوات التي قام بها الى الشمال المسيحي . ومع ذلك فان المصادر شحيحة بالمعلومات عنها ، ذلك لأن المصادر المسيحية لا تذكر العديد منها ، وتشير الى الباقي باختصار شديد لأنها ، على ما يظهر ، لا تريد تخليد هزائمها وانتصارات عدوها . ويمكن تعليل بقاء القليل من المصادر الاسلامية عنها ، الى كونها سجلت في مؤلفات ضخمة ، وعدد مثل هذه المؤلفات قليل كما هو معلوم ، مما يجعل فرص بقائها نادرة . أما المختصرات العامة التي أخذت عن هذه المؤلفات الضخمة وبقيت لنا ، فانصب اهتمام أصحابها على اقتباس النوادر المستطرفة المتعلقة بتفاصيل حياة المنصور وعدله أكثر من اهتمامها بسرد غزواته بشيء من الترتيب والتفصيل[1] .

ارتبط الكثير من غزوات المنصور بالحالة الداخلية ، اذ قام في أول الأمر بعدد منها قبيل وبعيد نيله منصب الحجابة ، بغاية كسب ود الناس وبهر أنظارهم بالخروج للجهاد والعودة منه مع الأسرى كبرهان على النصر . لذا لم تؤد هذه لاحتلال أي موقع رغم تعددها . فقد قام ، حسب ما يورده العذري ، بثلاث غزوات في العام الوحيد ، الذي انقضى بين تسلم المصحفي لمقاليد الأمور في الأيام الأخيرة من حياة الحكم وتسلم العامري لمقاليد الحجابة . وفي سنة ونصف تلت تقلد العامري لمنصبه قام بأربع غزوات أيضاً ، موجهة ضد أراضي جميع الدول المسيحية حتى برشلونة[2] .

ويفهم مما يذكره العذري ، أن نزاعه مع غالب أوقف هذه الغزوات. وانتهز هؤلاء ، على ما يظهر ، هذه الفرصة ليقفوا في صف غالب ضده . الا أنه استطاع أن يقضي على غالب وأحد أبناء ملوك بنبلونة في المعركة

---

(١) ترد قائمة كاملة لغزوات المنصور الست والخمسين ، في مخطوط الخزانة العامة « ذكر بلاد الاندلس » ورقة ١٥٧ـ١٦٤ ، وهي أكمل قائمة بقيت عنها .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢١٦ . يجمل ليفي بروفنسال من قائد مقدمته القائم بالحملة ، لكن النص العربي في الحلة لا يدل على ذلك وكذلك نص العذرى من ترصيع الأخبار .

التي سميت بغزوة النصر وحصلت في ٤ محرم سنة ٣٧١ هـ / ١٠ تموز ٩٨١ م • ومن ثـم تابع غزواته ضد الدويلات المسيحية فهاجم بعد عـدة أسابيع مدينة سمورة وعلى مقدمتـه أحـد المروانيـين الملقب بالبطرشك • ومع أن قصبتها امتنعت عليه الا أنه « عمّ بالتدمير كثيراً من نواحيها ، ومنها جهة دمر فيها ألف قرية معروفة الأسماء كثيرة البيع والديارات • ووصل قرطبة ومعه أربعة آلاف سبية ، وقد حز قريباً منها من رؤوس الكفرة »•

وقام المنصور بغارات أخـرى توجت كلهـا ، في آخر نفس العـام الهجري وأوائل العام الذي تلاه ، بغزوة الثلاث أمم والتي خرج اليها في ٦ ذي الحجة عام ٣٧١ هـ / ٢ حزيران ٩٨٢ م وانتهت في ١ صفر سنة ٣٧٢ هـ / ٢٦ تموز ٩٨٢ جرت هذه المعركة على بعد خمسة وعشرين كم الى الجنوب الغربي مـن شنت منكش (Simancas) ، واستغل المنصور انتصاره فيها باحتلال المدينة وهدمهـا وأسر عـدة آلاف منهـا • كما أن النتائج السياسية كانت ذات أهمية أكبر • فقد أخرج هذا الانتصار ، على ما يظهر ، ملك بنبلونة شانجة أباركا من حلبة الصراع ، فخضع للمنصور وقدم له ابنته التي أصبح اسمها عبده في حريم المنصور ، ونعتها المؤرخون المسلمون بالبشكنشية • وقد اعتنقت الاسـلام وحسن اسلامهـا ، ورزق المنصور منها بابنه عبد الرحمن الذي دعته امـه شنجول ، وهـو تصغير لاسم أبيهـا •

ولم يكن حظ رذمير الثالث بأفضـل من نصيب ملك بنبلونة ، فقـد أعلن تبعيته للمنصور أيضاً ، ليواجه المشاكل الداخلية التي واجهته بثورة النبلاء الجليقيين عليه الذين نصبوا برموده الثاني ، واستمر صراعه معهـم حتى سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ ، عندما توفي • وحاولت والدته عبثاً الاستمرار في هذا الصراع بالحصول على دعم المنصور ، الذي منحه لخصمها ، وعقد معه معاهدة أعاد فيهـا سمورة للملك الجديد ، مقـابل جزية سنوية على ما يرجح • كما أرسل له المنصور قوة لمساعدته في اخضاع النبلاء العاصين

عليه ، وأقامت هذه القوة في أملاك برموده حتى عام ٤٧٦ هـ / ٩٨٦ م • وخلال الموادعة بين المنصور وهاتين الدولتين اقتصرت غارات المنصور على كل من قشتالة وبرشلونة التي احتلها • وقد جرى احتلال هذه المدينة في الغزوة الثالثة لها ، اذ هاجمها في السنة الاولى مـن حجابته ، وكرّر ذلك ٣٧٤ هـ / أواخر ٩٨٤ م • وفي أواخر نفس العام أو على وجه أدق في ١٢ ذي الحجة سنة ٣٧٤ هـ / ٧ مايس ٩٨٥ ، خرج من قرطبة نحوهـا عن طريق البيرة ، ثم تطوّف في شرق الأندلس ، ونزل ضيفاً بمرسية لدى ابن خطاب مدة ثلاثة وعشرين يوماً أو ثلاثة عشر ، وبعدها تابـع طريقه الى برشلونة حيث كانت ستة أيام من الحصار كافية لاحتلال المدينة عنوة واحراقها ، بينما أصبح سائر سكانها بين قتيل وأسير •

وفي عام ٣٧٦ هـ / ٨٦ ـ ٩٨٧ م عاد العداء من جديد مع ليون اذ أن ملكها ضاق ذرعـاً بقوات المنصور في بلـده فأخرجها ، ورد المنصور بالهجوم ، في أوائل هذا العام الهجري المصادف للصيف ، على عدة مدن ، كان منها ليون ذاتها ، وأردف ذلك في آخر العام المصادف للربيع بالهجوم على قلمرية فاحتلها • وعندما ثارت في العام التالي عاد لاحتلالها من جديد في ٢٦ صفر سنة ٣٧٧ هـ / ٢٦ حزيران ٩٨٧ ، وخربها فبقيت مهجورة مدة سبع سنوات أخرى [١] •

وفي عام ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م احتل سمورة وليون ، في وقت بدت فيه دولة ليون مفككة بدليل وجود عـدد مـن نبلاء هـذه الدولة الى جانب المنصور في غزوه ، ولاذ ملكها بمرتفعات غاليسيا تاركاً بسيط أراضي دولته خاضعاً للمنصور • ثـم استعاد عاصمته بعد سنتين وسويت علاقاتـه مـع النبلاء الكبار ، وبقيت علاقاته مـع المنصور خمس سنوات أخرى علاقات موادعة واسترضاء لسيد قرطبة ، ومن جملة وسائله لتحقيق ذلك ارسال ابنته تيريز عام ٣٨٣ هـ كزوجة • ويبدو مما يروى عنها ، أنها كانت ترى

---

(١) ابن الفرضي ، ج ٢ ، ص ١٤٩ •

أن العملية عار على أهل دولتها ، وينسب اليها قولها لنبيلين كانا يرافقانها ويهونا عليها شأن تقديمها للمنصور بذكر فائـدة ذلك لقومهـا « ان القوم يدافعون عن أرضهم بحد سنانهم لا بأعراض نسائهم » • وعاملها المنصور من نفس المنطلق اذ اتخذها جارية ثم أعتقها وتزوجها ، ومع ذلك كانت ترى بقاءها في قرطبة اذلالا لها ، حتى اذا أعادها ابن المنصور الى بلادهـا ابتعدت عن الدنيا ودخلت الدير [1] •

أما علاقات المنصور بقشتالة فلا يوجـد في النصوص ما يدل عـلى تحسنها ، بل تكثر الاشارات الى سوئهـا • وتجـلى ذلك بمؤامرة ترأسها عبد الرحمن بن مطرّف التجيبي ، ورشح فيها للامرة ابن المنصور عبد الله الذي استاء من والده لتقديم أخيه عبد الملك عليه مع أنـه حسب رأيـه « أشجع وأفهم وأرجل وأفرس ، وان أباه عين الظالم له في التسوية بعبد الملك فكيف في تقديمـه عليه » وانضم اليهمـا عبد الله البطرشك المرواني أمير طليطلة •

حطم المنصور المؤامرة اثر علمه بهـا بكل روية وتؤده • استدعى ابنه من سرّقسطة ، حيث يقيم ، وأُظهر له الودّ والمبرة • وصرف المرواني عن طليطلة صرفاً جميلا وألزمـه داره • ثم توجه نحو الشمال متظاهراً بالغـزو ، فتوالت عليه امدادات الثغور وبينهم عبد الرحمن بـن مطـرف التجيبي ، وتقدم الشاكون من أهـل الثغور ، بدسيسة المنصور ، ضد عبد الرحمن من حبسه لأرزاقهم واحتجانهـا لنفسه • فصرفه المنصور عـن سرقسطة منسلخ صفر سـنة ٣٧٩ هـ / وأبقـى ولايتهـا لابـن أخيـه استرضاء لقومه التيجبيين ، ثم قبض عليه وقتل في الزاهرة •

تقدم بعد ذلك نحو قشتالة لمحاصرة شنت ايشتيبين ، وهناك فر ولده مـع بعض رفاقـه الى الملك القشتالي ، الذي آواه ورفض الاذعان لطلب

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ١٨١ •

المنصور برده ، فشدد المنصور عليه الحرب واحتل مدينة وخشمهومدينة أخرى قرب قلونية ، مما اضطره للرضوخ وتسليم الابن الذي قتله من تسلموه في الطريق الى والــده في ١٤ جمادى الآخــرة سنة ٣٨٠ هـ / ٨ ايلول عام ٩٩٠ •

ويظهر أن الهزائم الخارجية قد أضعفت من مركز الملك القشتالي غرسية بــن فرذلند فثار عليه ابنه بتأييد من أمــه • وتعكس الأساطـير القشتالية صدى كون المنصور وراء العملية • لكن الثائرين لم يسيطروا على كل أراضي الدولة ، كما أن الأب لم يكن على درجة من القوة تمكنه من اخضاعهم بسرعة • وهــذا كــله قــدّم الجو المناسب والظروف الملائمــة للمنصور كي يستصفي القواعد القشتالية على نهر دويرة واحداً بعد الآخر فاحتل شنت ايشتيبين وقلونية •

وعندما خرج الملك القشتالي للقائه في احــدى المرات جرح في ١٥ ربيع الثاني عام ٣٨٥/١٩ مايس ٩٩٥ بجانب نهر دويره ، فأسر وحمل الى مدينة سالم حيث عولــج دون جــدوى ، فتوفي وحمل الى قرطبة حيث دفن فيهــا •

وعندما حل الابن محل أبيه في كونتية قشتالة ، كان مسالماً للمنصور نتيجة للعلاقات السابقة ولكنه لم يستعد المدن التي فقدتها الكونتية وغــدت في ملكية المنصور ، الذي أسكن مسلمين في بعض الحصون الواقعة عــلى نهر دويرة • ولجأ الملك الجديد الى حصن لا الى مدينة مع أمه وأخته ، وذلك بعد أن خربت الحواضر • واضطر أيضــاً أن يهب أخته للمنصور استرضاء وذلا • وفي هــذه الرقعة الصغيرة التي انحسرت اليهــا سلطات كونت قشتالة انحل نظــام الدولة وتفككت ولا تخلو النصوص الباقية من اشارات لذلك ، فالفرسان الذين يقدمون خدمة عسكرية في حصوندويرة التي احتلها المنصور ، مثل شنت ايشتيبين ووخشمة ، أمروا بأن يعملوا

في حصون أخرى فرفضوا ، مما دعا القمط لاصدار أمر بمصادرة أموالهم .

وقدّر لليون أيضاً أن تنهار تحت ضربات المنصور أيضاً ، فقد كان من ذيول فتنة التجيبي وابن المنصور هرب عبد الله المرواني الى ملك ليون برمودة الثاني ، فهوجمت أراضيه من جديد وسقطت اشتورقة بيد المنصور وكان قد اتخذها عاصمة بعد خراب ليون . كما أن العديد من النبلاء انفصلوا عنه ووالوا المنصور ، فسلم المرواني اللائذ به في شوال سنة ٣٨٥ هـ / تشرين ثاني ٩٩٥ م ليسجن .

وعندما غدا الشمال المسيحي على هذه الدرجة من الضعف والانهاك والتفكك ، قام المنصور بغزوة شانت ياقب ، التي لم يكن لها من هدف ، حسب اتفاق الدارسين ، سوى اذلال مسيحيي الشمال .

خرج المنصور لهذه الغزوة من قرطبة في ٢٣ جمادى الثانية عام ٣٨٧ هـ/٣ تموز سنة ٩٩٧، في الوقت الذي أقلع فيه من قصر أبي دانس اسطول بحري يحمل المؤونة والعدد والرجالة .

وانضم الجيشان البري والبحري على نهر دويرة ، حيث كونت السفن جسراً عبرت عليه بقية الجيش ، وانضم الى المنصور النبلاء الجليقيون الخاضعون له منذ دخوله أرض منطقتهم . وبعد عبور الجيش للموانع المائية وصل الى شانت ياقب ، فدخلها وقد أخلاها أهلها وأتى الخراب والحريق على منشآتها بما فيها كنيستها العظمى ، ولم ينج من ذلك الا القبر ، حيث وجد المنصور بجواره راهباً فسأله عن مقامه ، فقال : « أوانس يعقوب » فأمر المنصور بالكف عنه . وقد استغرقت عملية الاجهاز على المدينة قرابة اسبوع بدأ في ٢ شعبان سنة ٣٨٧ هـ / ١٠ آب ٩٩٧ م ، توجهت خلاله بعوث الى أقصى شواطىء الشمال الغربي فوصلت الى المحيط قرب كورونيا (Corouña) ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم [١] .

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ – ٢٩٧ .
. R. Mendez Pidal, Idea Imperial de Carlos V., P. 32-72

ولم يكن بامكان أحد آنذاك من ملوك الشمال الرد على عملية المنصور ، حتى أن ملك ليون أرسل له بعدها ابناً له طالباً قبول طاعته • وتوفي هذا الملك بعد الحادثة بأقل من سنتين تاركاً الملك لطفل في الخامسة • وربما جاء هذا الرد بعد ما يقرب من ثلاث سنوات وتزعم العملية قمط قشتالة شانجة الذي أتته امدادات من الأقطار المسيحية الأخرى وخاصة من بنبلونة ، واتفق هؤلاء على التعاضد للثبات في وجه المنصور عند غزوه ، واتخذوا صخرة جربيرة (Cervera) قاعدة لهم ، وهي قمة عالية في منطقة وسط دويرة ويبلغ ارتفاعها ١٤١٥ م • وكانت هذه الصخرة نعم المراد لامتناعها وحصانتها ولما وراءها من الأعمال التي تمدها بالميرة • وعندما وصل المنصور وجيشه الى جهتهم هاجمتهم القوات التي يقودها شانجه قبل أن يأخذوا أماكنهم الملائمة للحرب ، فاندفعت نحو ميمنة الجيش وميسرته بقوة فتمزقتا • وثبت المنصور وبعض الخلص في القلب ، ومن موقعه أرسل ابنيه كلا الى جهة لدعم المجنبتين ، وأوهم الأعداء باعادة فسطاطه الى الربوة التي كان عليها وأزيح فعلاً ليوهمهم بأن وراءه امدادات كثيرة • فعاد المتراجعون الى مراكزهم وهزم المسيحيون مرة أخرى • وكعقوبة على ذلك ملأ بالغارات منطقة بنبلونة كما دخل برغش عاصمة قشتالة وعاد الى قرطبة بعد غيبة استمرت تسعة أيام • ولفظ المنصور أنفاسه الأخيرة وهو يقوم بغزوة في أعماق قشتالة بعد سنتين من هذا التاريخ •

مدى أهمية الغزوات في الشمال • ـ

كان لهذه الغزوات التي استمرت طيلة القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي نتائج هامة في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية •

في المجال العسكري استطاع الأندلسيون في عصر الخلافة القضاء على المراكز الحصينة ، التي أقامتها دول الشمال المسيحية على ضفة دويرة

اليمنى وعلى مقربة من الحدود . وقد هدم بعضها ونزل المسلمون في البعض الآخر .

أما في المجال السياسي فقد توصل الخلفاء والحجاب الى بسط سيادتهم على هذه الدول . وكان من مظاهرها اعلان الملوك المسيحيين الولاء لهم وعبروا عن ولائهم بدفع المال أو تقديم الحصون أو كليهما . كما قبلوا في بعض الأحيان الجيوش في اراضيهم او ممثلين مقيمين للخلفاء بين ظهرانيهم. وقد انحل نظام السلطة الداخلي لهؤلاء الملوك المسيحيين وتفكك بنيان الدولة لديهم .

كذلك نستطيع ان نلمح آثاراً اقتصادية واجتماعية لهذه الغزوات في المجتمع الأندلسي ذاته فكثرة الحروب المظفرة جلبت للمجتمع الأندلسي اعداداً كبيرة من العبيد ذكوراً واناثاً في وقت ارتفعت فيه اسعار هذه البضاعة في اسواق العالم الاسلامي كما يشهد على ذلك الجغرافي المقدسي[1] . وهذا يدعو للظن بأن ذلك أسهم في غنى خزينة الدولة وخزينة الخلفاء الخاصة في ذلك العصر . ولكن فيض الجواري على الاندلس بالذات كاد يخلق فيها ازمة اجتماعية لكثرتهن التي أدت الى زهد الناس بالحرائر عند الزواج ويشير المراكشي الى ذلك في أيام المنصور بن ابي عامر قائلاً « وملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم ؛ وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور وذلك لرخص اثمان بنات الروم ؛ فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة ؛ بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ـ وكانت ذات جمال رائع ـ فلم تساو اكثر من عشرين ديناراً عامرية »[2] .

وربما كان هذا من جملة العوامل التي اسهمت في ازدياد الهجنة في

---

(١) المقدسي ، ص ٢٤٢ .

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب .. ، ص ٣٨ .

المجتمع الأندلسي وزادت من العنصر الغريب فيه • وذلك في وقت كونت الفتوحات دافعاً آخر لاستقدام عنصر غريب آخر يختلف عن عنصر الأسرى والسبايا لأن رابطة الدين تربطه مع المجتمع الاندلسي وهذا العنصر هو عنصر البربر الذين اتوا للأندلس بأعداد كبيرة ليعملوا كمرتزقة في جيوش الخلفاء والحجاب • وقد شجع هؤلاء قدومهم عندما كانوا غارقين في غمرة الحروب ويشعرون بالحاجة للعنصر المحارب ليحرزوا النصر •

إضافة لكل ما مر ، من المناسب التعرض لأثر غزوات الخلفاء والحجاب على مصير الصراع بين الاسلام والمسيحية ، سواء على النطاق المحلي في أرض شبه الجزيرة الايبيرية ، أو على النطاق العام بين ديار الاسلام وخارجها• وقد استرعى هذا الأمر اهتمام باحثين مشهورين كأرنولد توينبي الذي يرى بأن قوة الاندلس التي وصلت الى ذروتها في القرن العاشر الميلادي ، جعلت الخلفاء قادرين على غزو كل دول الشمال الاسباني المسيحية • لكن اعظم عسكريي ورجال الدولة المسلمين ، بما فيهم الناصر والمنصور ، لم يستطيعوا توطين المسلمين ولا حتى الاحتلال الدائم لأي منطقة من المناطق التي تغلبت عليها دولة اشتوريش خلال القرن ونصف القرن ، اللذين سبقا ارتقاء عبد الرحمن الثالث لعرش الخلافة • وهذا العجز عن اكمال فتح شبه الجزيرة ، الذي كاد يكون كاملاً عند الفتح الأول أيام موسى بن نصير قبل قرنين ، ونجاح ملوك ليون في الاحتفاظ بتلك الزاوية الشمالية الغربية ، يمكن ان ينظر اليها على اساس انها تكوّن نقطة الانعطاف في الصدام بين الاسلام والمسيحية خلال العصور الوسطى، والبداية نحو المد الصليبي الذي سيمتد من نهر دويرة الى نهر الاردن وما وراءه[١]، ويبقى رأي توينبي صحيحاً بمجموعه ، ومن الضروري لفهمه جيداً في مجال بحثنا تحديد نوع خضوع الشمال المسيحي للخلفاء والتمييز بينه وبين خضوع المسيحيين في الاندلس •

---

(١) Toynbee (A. J.); A. Study of History, vol. VIII. P. 349-51 .

ففي الشمال لم يستوطن المسلمون ولم يعمروا شيئاً منـه ، كما هو حالهم في الجنوب ، لأنه مضى على استقرارهم في الجنوب زمن طويل ، كما ان مناخ الشمال ربما بدا لهم قاسياً وفقيراً ، كما ان عداء السكان وخاصة الجبليين منهم كان شديداً • اما ملوك الشمال وسادته من النبلاء فمهما بلغ من خضوعهم للخلفاء والحجاب ، الا ان هذا الخضوع لم يبلغ الى حـد انقلابهم لرؤساء الجماعات من أهل الذمـة[١] • كأفراد الأسرة القوطية الحاكمة عند الفتح الأول للأندلس ، بل بقي مجرد رابطـة تبعية للخلفاء والحجاب دون أن يتعدى ذلك ليشمل تابعيهم أو أفراد رعيتهم •

★ ★ ★

(١) W. Montgomery Watt, A History of Islamic Spain, p. 41-42

الفصل الثالث

سياسة الخلفاء الافريقية

علـى الجانب الآخر من المضيق كانت تعيش مجموعات قبليـة مـن البربر يقسمها ابن خلدون الى مجموعتـين : بتر وبرانس • ويلاحظ في تصنيفهم هذا انعكاس وتأثر بتقسيم العرب الى عدنانية ويمانية • وقد لعبت الدور الأساسي في احداث شمال افريقيا مجموعات قبلية مصنفة على اساس آخر ، يرجح ان يكون التقسيم الواقعي لهـذه القبائل • وبموجبه تألفت كتلة البربر من مجموعات قبلية ثلاث : هي مصمودة وصنهاجة وزناته •

مصمودة • ـ

يذكر البكري ، من جغرافيي القرن الخامس الهجري ، انها اكثر القبائل البربرية عـدداً ، واليها ينتسب القسم الأكبر من سكـان المغرب الأقصى خلال التاريخ الاسـلامي • فمن قبائلها غمارة التي سيطرت عـلى منطقة المضيق والريف • وبرغواطة التي نزلت بين بو رقراق وأم الربيع، ويليهم نحو الجنوب دكالة حتى نهر تنسيفت • كذلك كانت مصمودة تقطن الأطلس الأعلى وما وراء الاطلس ، حيث بقي الشلوح انسالهم المباشرون •

كان المصامدة في غالبيتهم زراعاً مستقرين ، وبالتالي اكثر من غيرهم يسراً وأشـد منهم تمسـكاً بالأرض ، اذ لا نراهـم في هجـرة طيلـة التاريخ الاسلامي • ومع انهم قاسوا من تسرب وغزو المجموعات القبلية

الأخرى ، الا ان الاستقرار ساعدهم على تكوين مجموعات سياسية على جانب من الأهمية ، وبقوا حتى القرن الرابع الهجري أسياداً غير منازعين لمراكش الداخلية ومراكش الجبل •

صنهاجـة • ـ

وهي واحدة من اكبر المجموعات القبلية وفرة عـدد ، لكنها أوسعها انتشاراً على الاطلاق في ارض المغرب • لانها ، رغم وجود بعض المستقرين في صفوف قبائلها ، كانت بدوية بصورة عامة وقبائلها أهـل صحراء ومدر ومنهم كان الجمالة ، الذين يعتبرهم ابن خلدون أبعد البدو نجعة •

لم يتفق على تحديد المواطن الأصلية لقبائل هذه المجموعة • الا أنه من المعروف أن بعض قبائلها مثل هـوارة ولمتة ولمتونة ومسوفة وجدالة ، وكلها صحراوية ، أخذت منذ القرن الثالث بالاتجاه غرباً في الصحراء حتى موريتانيا • حيث انحدر قسم منهم الى مسافة ابعد عبر الجنوب فوصلوا الى السودان والنيجر ، واستوطنوا في تلك المناطق ، اما بعـد ازاحة سكانهـا المحليين ، أو اقاموا بين ظهرانيهم وفرضوا عليهم نوعاً من السيادة ، كما فعلوا ببعض الامارات السوداء وخاصة مملكة غانة ، أقوى هـذه الامارات وأقدمها • وقد اعتنق هؤلاء الاسلام ، ومع احتفاظهم بالكثير من طقوسهم القديمة الا انهم نقلوه للخاضعين لهم • وفي القرنين الثاني والثالث للهجرة ، كانت بعض القبائـل الصنهاجية من بدويـة أو شبه مستقرة سيدة للأقسام الغربية من الصحراء الافريقية •

أما في موريتانيا (شنقيط) فقد اتحدت مسوفة ولمتونة مع مجموعات أصغر تنتمي للملثمين وأقاموا حكومة قبلية ، ظلت منذ الربع الأول للقرن الثالث الهجري الى اوائل الرابـع قوة استقـرار وسط مجتمـع الصحراء الفوضوي تسيطر وتدير تجارة القوافل الى موانـي الأطلسي والمتوسط ، الا انها انهارت فيما بعد بسبب المنازعات الداخلية •

وفي نفس الوقت ، كانت بعض القبائل الصنهاجية تقوم ببسط سلطانها على الواحات الداخلية في مراكش كسجلماسة . بينما تحركت مجموعات اخرى جلّها من جزولة ولمته وهسكورة ، فاستقر قسم منها على الشواطىء المراكشية جنوب السوس ، واستمر قسم آخر في السير متجهاً نحو الشمال الشرقي فنزل بعضه في منحدرات الاطلس الأوسط في منطقة تازا ، وسار البعض الآخر مسافة ابعد ليحط عصا الترحال في الريف .

بهذا تكون كل الأقسام المذكورة قد اتجهت غرباً ، وقسم واحد فقط اتجه شرقاً ونزل في معظم اراضي دائرة قسنطينة اليوم ، وكانت كتامة أحد فروع هذا القسم ، ومنها تنحدر القبائل الحديثة . نتج عن هذا الانتشار الكبير لصنهاجة ، الذي رافقه تعاضد وتآزر بين فروعها المتباعدة ، قيام هذه المجموعة بلعب دور كبير في تاريخ المغرب خلال العصور الوسطى ، وسيطرتها في بعض الأحيان على مصمودة رغم استقرارها ويسرها ووفرة عددها ، وعلى زناته رغم خفة تنقل قبائلها وشدة مراسها .

زناته . ـ

كانت مواطنها الأصلية ، على ما يظهر ، في السهوب الواقعة جنوب تونس وطرابلس الحاليتين ، وقبائلها من رعاة الخيل ، لذلك كان لديها أفضل خيالة في المغرب الاسلامي ، وهذا جعل حركتها خفيفة ، وبالتالي جعل هجراتها سريعة وواسعة المدى ومعقدة . وبما أن قبائل هذه المجموعة قد وردت الى المغرب من الجهة الشرقية ، وتعاونت في العصور المتأخرة مع العرب القادمين من المشرق ، فقد شاع أن أصلها عربي ، الا أن ابن خلدون ينفي ذلك ويجعلها من نفس أرومة المجموعات البربريةالأخرى .

في وقت لا يمكن تحديده بدقة قبل الاسلام ، بدأت القبائل الزناتية بالهجرة غرباً عبر حوافي الصحراء ، ثم انتشرت في التل الجزائري ، حيث نزل بعضها حول تاهرت وتلمسان ، واستمر بعضها الآخر في سيره

حتى المغرب الأقصى ، وفي هذه المنطقة الأخيرة استقر قسم من الزناتيين وبقي القسم الآخر متنقلا بدوياً •

كان بنو يفرن ومكناسة ومغراوة من أشهر القبائل الزناتية ، وتميزت بضعف الترابط لا بين قبائلها فقط بل بين فروع القبيلة الواحدة أيضاً • ومع ذلك قامت ، متحالفة حيناً ومتعاونة حيناً آخر ، بلعب دور كبير في تاريخ المغرب العربي الاسلامي : كمساعدة البعض للعرب في فتح الشمال الافريقي والأندلس ، ووقوف البعض الآخر ضدهم • كما دعم كثير من قبائلها المذهب الخارجي •

قيام الدول في المغرب والنزاع بين المجموعات القبلية • ـ

يكاد يكون النزاع بين هذه المجموعات مستمراً لا بين مجموعة ضد مجموعة أخرى فحسب ، بل حتى بين قبائل من نفس المجموعة ، أو حتى بين أقسام من القبيلة الواحدة (أخماس • لف • أحلاف) • وكان العامل الأساسي في هذا النزاع الهيمنة على الأرض أو بسط السلطان السياسي • وقد يتمخض ذلك في بعض الأحيان عن انشاء دولة ، تتمثل بفرض سلطان القبيلة ، أو القبائل المنتصرة على الآخرين • اذ يغدو شيوخ القبيلة المنتصرة زعماء وأفرادها قوة عسكرية ، ويتحمل أفراد القبيلة المغلوبة عبء دفع الضرائب وتعسف الحاكمين ، لكنهم لا ينهارون معنوياً ، في أغلب الأحيان بل ينتظرون ويأملون بفرصة تسنح لينتقموا • وكثيراً ما كانت القبيلة المنشئة للدولة تتحرك تحت راية دينية أو مذهبية • وتقدم الدول أو الدويلات التي قامت في المغرب بعد انفصاله عن العباسيين ، كالادريسية والصالحية والرستمية والمدرارية ، نماذج تصلح كشواهد على الحكم العام الذي أطلقناه • كما أن سلطان هذه الدول كما يقول جوليان « لم يكن يغطي جميع أراضي البربر كما لم تكن لها حدود دقيقة » بل كان لها خارج حاضرتها مناطق نفوذ ضمن حدود متغيرة وغير دقيقة المعالم • لذلك

لم تقم بينها حروب الا في النادر ، لعدم وجود الاحتكاك مع فقدان الحدود المباشـرة ٠

قيـام الدولة الفاطميـة ٠ ـ

في هذه البيئة وفي تلك الأجواء قامت الدولة الفاطمية كتتويج لجهود دعاة للشيعة على رأسهم أبو عبد الله الشيعي (الحسين بن أحمد بن محمد ابن زكـريا) ٠ وهـو داعية من أصل كوفي قدم للشمال الافريقي عن طريق مركز الدعوة الاسماعيلية في اليمن ٠ ووصل برفقة حجاج كتامـة عام ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م أو سنة قبلها [١] ، أو سنة ٢٨٨ هـ/٩٠٠ م ونزل في فج الأخيار بجبل ايكجان الواقع قرب سطيف ٠ ثم بدأ بنشر دعوته في جو ملائم ، اذ كانت المنطقة ميداناً لعمل دعاة شيعة قبله[٢]،ولو أنهم لم يكونوا اسماعيلية ، منذ أكثر من قرن ٠ كما أن الظرف كان مواتياً سياسياً بسبب الاضطراب الذي عـم الدولة الأغلبية وأجهزتها : فالجند القدماء ناقمون لاعتمـاد الأمـير الأغلبي على الجنود السود ، والناس ناقمون لجوره في فرض الضرائب وقسوته في جبايتها ٠ كذلك كان وضع الكتاميين لما يجيش في نفوسهم مـن نقمة قديمة بسبب قيام الجند العرب في بلزمة واذلالهـم لهم ، وكان ظرفهم مواتياً الآن للقيام والانتقاض ، اذ لم يعودوا يخشون هؤلاء الجند الذين قتلهم الأمير الأغلبي[٣] ٠

لكل ذلك كانت سبع سنوات كافية للداعي كـي يقضي على الدولة الأغلبية ويقيم الدولة الفاطمية مكانها ٠ واستكملت الدولة الجديدة قيامها بوصول عبيد الله المهدي ، صاحب الدعوة الى مقر دولته والدعوة له كاملا على المنابر يوم الجمعة ٢١ ربيـع الآخر سنة ٢٩٧ هـ / ٢٨ تشرين ثاني ٩٠٩ م ٠

---

(١) ابن الخطيب ، تاريخ المغرب في العصر الوسيط ، ص ٢٩ ٠

(٢) أنظر : القاضي النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة ، ص ٥٤ـ٥٨ ، حيث يقول أن اثنين من الدعاة نزلاها من قبل جعفر الصادق ٠

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٢٣

التوسع الفاطمي • —

كان الأئمة الفاطميون كاسماعيلية يدعون أنهم أصحاب الحق في امامة المسلمين بدار الاسلام ، ومن هذه النقطة يبدو احتلال المشرق ، بما فيه من المراكز الاسلامية الكبرى والحرمين الشريفين ، هدفاً له الأولوية لكن وقائع الأحداث تدل أيضاً على أنهم لم يكونوا زاهدين باحتلال الجناح الغربي من ديار الاسلام لأنه يدخل في اطار الهدف الكبير من جهة ، ومن جهة ثانية يكوّن شمال افريقيا في هذا الجناح قاعدة الانطلاق والامداد لاحتلال المشرق • ويبدو غير صحيح الزعم القائل ، بأنهم لم يتوجهوا غرباً بعد انشاء دولتهم الا عندما فشلوا في فتح المشرق ، كما أن الوقائع تكذب هذا الزعم ، فخلال السنوات الأربع التي انقضت بين الدعوة للمهدي على المنابر ، وتوجه أول حملة نحو الشرق ، نرى قيام أبي عبد الله الشيعي بحملة عام ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م في بلاد البربر ضد زناته • وبحملة أخرى في العام الذي تلاه انتهت باحتلال تاهرت (١) حاضرة الرستميين في المغرب الأوسط (٢) •

وفي بداية القرن الرابع الهجري وبعد حملة سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣م الى المشرق التي وصلت الى الاسكندرية ثم الفيوم ، وذلك قبل أن ترتد أمام جيش الخلافة العباسية ، بدأت الحملات تتجه حيناً الى أقصى المغرب وحيناً الى مصر في فترات متناوبة •

كانت عدة الشيعة في هجماتهم على المغرب ، في هذه الفترة ، كتامة الصهناجية ومكناسة الزناتية ، التي أعطى زعيمها مصالة بن حبوس حكم تاهرت منذ احتلالها ، وكان قائد حملة عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م التي وصلت

---

(١) تقع أطلال هذه المدينة على بعد عشرة كيلو مترات شرق مدينة تياريت الحالية وتسمى أيضاً تيهرت •

(٢) انظر : ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٥٢ و ١٦٥ •

قريباً من الريف ، واحتلت ناكور عاصمة الدولة الصالحية [١] . وتقدم بعد ذلك الى فاس حيث حاصر يحيى بن ادريس الى أن صالحه على أخذ البيعة للشيعة . وغادر أخيراً المنطقة بعد أن ترك ما احتله بيد ابن قبيلته موسى بن أبي العافية ، الذي اتخذ تازا حاضرة له ، وهي ذات مركز هام اذ تتحكم في الممر بين شرق المغرب الأقصى وغربه .

بعد أربع سنوات أخرى عاد مصالة الى المغرب الأقصى ليقصي الادريسي عن فاس ويضع مكانه حاكماً كتامياً [٢] ثم يتوغل في العام التالي في صحارى المغرب ويستخلص سجلماسة من أئمتها المدراريين ، لكنه وضع قبل قفوله عنها مدرارياً آخراً في حكمها خوفاً من شغب أهلها .

يبدو اكتساح مصالة للمغرب وقضائه على دويلاته وتمتينه للصلات مع المكناسيين ، وكأنه يعني بسط السيطرة الفاطمية على المغرب ، لكنه في الواقع ظل بعيداً جداً عن تحقيق ذلك . لأن هذه الدول ، لا تعني أبداً عالم المغرب بكامله ، ولا تعدو كونها مجرد جزر وسط بحر يموج بقبائل بربرية لا سلطان لدولة عليها ، وبين هذه القبائل أكثر فروع زناته ، وقبائل مغراوة منها على وجه الخصوص ، ظلت تتحدى سلطان الفاطميين رغم كل حملات أبي عبد الله الشيعي ضدها . وقد زاد من خطر تحديها أهمية الأماكن التي تنزل بها بالنسبة للدولة الناشئة ، اذ تكثر جموع مغراوة منها بين وادي شلف (بين الجزائر ومستغانم حالياً) الى ما حول تلمسان (أي الأقسام الشمالية من ولاية وهران الحالية) . ولم يكن مصالة موفقاً في حربه ضد مغراوة اذ قتل في اصطدام معها قادها فيه محمد بن خزر يوم الجمعة ٢٠ شعبان سنة ٣١٣ هـ / ٩ تشرين ثاني ٩٢٥ م . كما أن المغراويين لم يستغلوا نصرهم تماماً فبقيت تاهرت بيد المكناسيين ووليها

---

(١) تقع خرائب ناكور في شمال شرق المغرب وتبعد عن شاطىء البحر خمسة أميال ، وميناؤها الجسيمة .

(٢) ابن الخطيب ، تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، ص: ٢١٠ ــ ٢١١ .

بعد مصالة أخوه يصل . ومن ناحية أخـرى أرسل المهدي حملة جديدة قادها ابنه أبو القاسم فانسحبت مغراوة أمامها حتى الملويه [١] ، لكن الحملة الفاطمية لم تكن أكثر من غارة أبعدت خطر الزناتيين مؤقتاً ولم تنل من قوتهم ، اذ بعد عودة أبي القاسم رجعت مغراوة الى ما جلت عنه واستطاعت بعد ذلك أن تتوغل شرقاً حتى الزاب وتتملكه كله عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م حسب قول ابن عذاري [٢] .

نستطيع استناداً عـلى الوقائـع الماضية أن نلخص وصف أوضاع الفاطميين في شمال افريقيا عند التدخل الأندلسي ، بأن سيطرتهـم كانت كاملة على افريقيا ، بينما كانوا يحاولون بسط سلطانهم على المغربين الأوسط والأقصى بالتحالف مع كتامة ، وتحاول قبائل زناتة ومغراوة بشكل خاص منعهم من تحقيق هـذا الهدف . وحتى في ولايـة افريقيا كانت تتأصل في أرضهـا جذور حركـة لأقوام زناتية متبرقعة بثوب مذهبي في بلاد الجريد الحالية ، حيث التف حول أبي يزيد مخلـد بن كيداد جماعـة خارجية تأتمر بأمره في بلدة تقيوس منذ عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

الصدام بين عبدالرحمن الناصر والفاطميين . ـ

كوّن هـــذا المـد الفاطمي في الشمال الافريقي خطراً عظيماً على أمويي الأندلس في نظر خليفتهاـوسنفصل فيمابعد مظاهر هذا الخطرـومع ذلك وقفوا أثناء حدوثه موقف المراقب والمتوجس منه ، فهم لا يستطيعون التدخل وأقسام كبرى من بلادهم عاصية لهم ، أضف الىذلك أنسلطانهم على المنطقة الأندلسية الجنوبية المطلة على المضيق ضعيفة ان لم تكن معدومة بسبب ثورة ابن حفصون . لذلك اكتفوا أول الأمر بالعطف على الأمراء الذين أطاح بهم الفاطميون ، كماهو الحال مع أمراء دولة ناكورالصالحية، الذين أكرموا وفادتهم ، عند هربهـم للأندلس اثـر أول هجوم شيعي ،

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٧ ، ص ٢٤ . ابن الاثير ، الكامل ، ص ١٧٩ .
(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

وتركوا لهم حرية الاقامة في أرض الأندلس فاستقروا بمالقة . وعندما عادوا الى بلدهم ، اثر عودة جيش الشيعة ، واستردوا سلطانهم أمدوهم بالأموال وأنعموا عليهم بالخلع (١) .

وكلما زاد سلطان عبد الرحمن الناصر لدين الله توطداً في الأندلس كلما أصبح تدخله مباشراً ، وهكذا قام سنة ٣١٤ باحتلال مليلة وفي سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م احتل سبتة ليتخذهما مفتاحاً لشمال افريقيا (٢) وربما كان يقصد باحتلال هاتين القاعدتين والاكتفاء بهما أن يأمن من سيطرة أعدائه على المناطق المغربية التي يسهل منها النزول للأندلس . ولجأ لابعاد الفاطميين بعيداً عن حدوده ، أو أنه حاول أن يجعل سلطانهم مزعزعاً في الشمال الافريقي ، دون أن يواجههم وجهاً لوجه أو يقذف بقواته الأندلسية في خضم هذا العالم الواسع ، وانما استجلب لحلفه أولئك الزعماء القبليين المعادين تلك القبائل التي اعتمد عليها الفاطميون ، كمحمد ابن خزر زعيم مغراوة الزناتية التي كانت تحارب الشيعة . وأرسل لهذه الغاية محمد بن عبيد الله بن أبي عيسى منذ سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م وهو شخصية ملائمة للاتصال مع زعماء القبائل الافريقية لأنه فقيه من أصل بربري من جهة ، ولم يكن قد مضى على اتصاله بشمال افريقيا أكثر من سنتين ، اذ أقام هنالك ردحاً من الزمن في طريقه من والى الديار المقدسة (٣) .

استجاب لدعوة عبد الرحمن مباشرة محمد بن خزر زعيم مغراوة الذي كان كما رأينا ، في حرب مستمرة مع الفاطميين . وأعلن الدعوة الأموية في كل مراكز المغرب الأوسط ما عدا تيهرت التي بقيت فاطمية . كما بدأت علاقات عبد الرحمن تتحسن مع قبيلة زناتية أخرى هي مكناسة التي بدت في السابق وكأنها شذت عن طريق أخواتها من القبائل الزناتية

---

(١) أنظر : البكري ، ٩٦ ـ ٩٧ ، وابن الخطيب ، تاريخ المغرب في العصر الوسيط ص ١٧٦ـ١٧٧ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٠٣ـ٢٠٤ . والبكري ص ٨٨ـ٨٩ .

(٣) أنظر : الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ١٧٢ـ١٧٥ . والمرقبة العليا للنباهي ص ٥٩ـ٦٣ .

لأنها تبعت الدعوة الفاطمية • وكان منها حاكم تاهرت في المغرب الأوسط وموسى بن أبـي العافية في المغرب الأقصى • وقد غيّر الأخـير من سياسته وأخذت علاقاته بالتحسن مع قرطبة منذ العام الذي تلا ارسال عبد الرحمن الناصر لبعثته الى الشمـال الافريقي ، ففي هذا العام حقق هذا انتصاراً في فاس وأرسل برؤوس خصومـه الى قرطبة [1] ، ثـم أردف ذلك باعـلان الدعوة لعبد الرحمن الناصر رسمياً عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م [2] • ويظهر أن ذلك أثار شكوك الفاطميـين بالمكناسيين كلهـم وحتى بأصحاب تيهرت ، ولـذا نراهـم عند وفاة والي المدينة المكناسي يصل بن حبوس لا يعطون حكمها لأحد أفراد عائلته كما اعتادوا قبلا • بهذه الأعمال استطاع عبد الرحمن لا احتلال قاعدة أرضية له في الشمال الافريقي فقط ، بل الاعتماد على كتلة بشرية تبسط دعوته في بقاع واسعة من المغربين الأقصى والأوسط قد تعادل ان لم تزد على البقاع التابعة للدعوة الفاطمية في المنطقتين •

من الطبيعي أن يحـاول الفاطميون استعادة ما فقدوه ، فمـا ان توفي عبيد الله المهـدي في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ / ٥ آذار ٩٣٤ م حتى كانت أول أعمـال ابنه أبي القاسم القائم بأمـر الله استعادة سلطان الفاطميين المزعزع في الشمال الافريقي ، فأمر عماله في سائر البلدان بعمل السلاح وجمع الآلات الحربية ، ثم وجه عام ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ مولاه الفتى ميسور باتجاه الغرب ، فانتهى الى فاس حيث استطاع الاستعانة بالأدارسة ضد موسى بن أبي العافية فأسر له ابناً وألجأه للصحراء وورث الأدارسة أملاكه [3] • ورغـم أنـه لم يستطع احتلال فاس الا أنـه استعاد سلطان سيده في قسم من المغرب الأقصى • كما استعاد الفاطميون السيطرة عـلى تيهرت وانتزعوها من المكناسيين الذين أخـذوا حكمها غصباً من ولاة

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢١٤ •
(٢) أنظر : البكري ، ص ٩٨ •
(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٩٨ •

الفاطميين • ولكن زعماء مكناسة سواء في أبناء موسى بن أبي العافية ، أو أبناء أسرة مصالة بن حبوس أصبحوا أتباعاً لعبد الرحمن الناصر •

قبل أن يفقد عبد الرحمن الناصر كل ما ملكه في المغربين الأوسط والأقصى جاء العقد الرابع من القرن الرابع الهجري بالفرصة الذهبية له كي ينشر نفوذه على أغلب بقاع الشمال الافريقي • فقد اشتد في بداية هذا العقد نشاط حركة النكار الأباضية بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني المشهور بلقب صاحب الاتان • ومن مظاهر نجاح هذه الحركة اكتساحها لكبريات مدن المغرب الأدنى ، ووصل قائدها الى حد ضرب الحصار على عاصمة الفاطميين المهدية قرابة عشرة شهور[1] • وتوفي الخليفة الفاطمي في شوال سنة ٣٣٤ هـ / مايس ٩٤٦ م وكتم ابنه وخليفته أبو الطاهر اسماعيل المنصور بنصر الله نبأ موته خشية من الثائر الذي ما زال قريباً من المدينة ، ولم يستطع القضاء عليه الا عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧م ورغم كون أبي يزيد خارجياً ، الا أنه سلك مسلك الثائرين الآخرين ضد الفاطميين بالاتصال بالأمويين بسفارتين ، وتقديم ولائه للناصر واعلان اعتقاده بامامته[2] • لم تسهم ثورة صاحب الأتان في نشر النفوذ في المغرب الأدنى فقط ، بل دعمت هذا النفوذ في المغرب الأوسط ، حيث عاود اتباع الناصر نشاطهم مستغلين ضعف الفاطميين وانشغالهم بمحاربة عدوهم القريب الدار صاحب الأتان ، كما تكاثر هؤلاء الأتباع في صفوف زناتة ، وهكذا تقدم تابع الناصر محمد بن خزر مع قومه مغراوة من جهات الساحل ووادي شلف ، حيث كانت تنس خاضعة لهم ، واحتلوا بسكرة • وانضم اليه يعلى بن محمد زعيم بني يفرن الزناتيين ، وكذلك عائلة المكناسيين حكام تاهرت ، واحتلوا تيهرت قاعدة الفاطميين في المغرب الأوسط ، وذلك عام ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م أي في الوقت الذي كانت فيه ثورة صاحب الأتان في

---

(١) انظر : اتعاظ الحنفاء ، ص ١١٤ـ١١٦ •

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢١٢ـ٢١٤ •

أوج شدتها [١] • وأخيراً قدم على الناصر بقايا الأدارسة في المغرب الأوسط وأعلنوا تبعيتهم له •

من المفيد أن نعيّن ماهية النفوذ الأموي الذي انتشر هذا الانتشار الواسع ، فقد كان عبارة عن ولاء زعماء قبائل وهذا ما جعله واهياً غير مكين ، لأن هؤلاء الزعماء كانوا عند اعلان ولائهم يعملون في خدمة أغراضهم الذاتية ، وما تبعيتهم لهذا الخليفة أو ذاك الا لكسب الواجهة الشرعية والحصول على الأموال • وطبيعة هذا النفوذ تفسر زواله بسرعة أثناء العقد الخامس من القرن الرابع الهجري •

زال هذا النفوذ في المغرب الأدنى بعيد القضاء على ثورة صاحب الأتان وانتهاء ملاحقة أتباعه • أما في المغرب الأوسط فقد حوّل محمد بن خزر ، أقدم أتباع الناصر ، ولاءه مع بداية العقد الخامس من القرن الرابع ، ويظهر أن عاملين اثنين كانا وراء انقلابه ، أولهما ترغيب وترهيب الفاطميين له • فقد حاول الخليفة الفاطمي اجتلابه منذ أواخر أيام ثورة صاحب الأتان بطلب معونته مقابل عشرين حملا من المال • أما الترهيب فكان بواسطة تابع الفاطميين زيري بن مناد الصنهاجي [٢] صاحب اليد الطولى في انقاذ الفاطميين من صاحب الأتان ، وقد بنى بعد ذلك مدينة أشير (قرب الجزائر الحالية) كقاعدة له ، وهذا ما جعله مجاوراً لمواطن محمد بن خزر من الشرق ، واشتعلت الحروب بينهما وتنازعا على تيهرت• أما العامل الثاني وراء انقلاب محمد بن خزر ، فمرده الى شعوره بالحسد ليعلى بن محمد اليفرني ، التابع الجديد للناصر ، الذي استغل حروب محمد بن خزر مع صنهاجة ليقوي نفوذه بدلا من معونته ضد العدو المشترك • ومهما يكن من أمر فقد أعلن محمد بن خزر بيعته رسمياً للفاطميين عندما وفد على الخليفة الفاطمي المعز سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م اثر وفاة أبيه اسماعيل • أما يعلى بن محمد اليفرني فقد بقي تابعاً للناصر ،

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٧ ، ص ٢٤ـ٢٦ •

(٢) عن علاقة زيري بالفاطميين ، انظر : ابن ابي دينار ، المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، ص ٧٤ •

ووطد مركزه في المغرب الأوسط من قاعدته ايفكان (هي عين فيكان حالياً وهي على بعد خمسة عشر ميلا الى الجنوب الغربي من بسكرة) ، واحتل كذلك وهران عام ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م وامتد سلطانه حتى المغرب الأقصى ، أي من تاهرت الى طنجة [١] ، وكان يعمل الى جانبه في هذه المنطقة بقايا الأدارسة من أصحاب الأملاك فيها ، وكذلك اسرة مصالة بن حبوس المكناسي وعلى رأسهم حميد بن يصل الذي تزود بالأموال والعددوالامداد من الناصر واحتل تلمسان [٢] .

كانت حملة فاطمية قوية واحدة كافية للاجهاز على كل نفوذ للناصر بين القبائل البربرية . قاد هذه الحملة جوهر الصقلي مولى المعز عام ٣٤٧ هـ/٩٥٨م واستأمن لها يعلى بن محمد اليفرني وحول ولاءه للشيعة فقبله جوهر ثم غدر به . وتابع سيره نحو المغرب ففتح مدينة فاس وفي جملة جيشه محمد بن خزر الزعيم الزناتي وزيري بن مناد [٣] الصنهاجي زعيم صنهاجة ، الذي يعزى اليه فضل فتح المدينة .

خشي عبد الرحمن ، بعد أن رأى أتباعه قد حوّلوا ولاءهم ، من هجوم الحملة على قواعده في الشمال الافريقي ، فقام بتقوية الدفاع عن سبته القاعدة الأموية الأساسية ، وذلك بمدها بالجند الذين بقوا فيها حتى آخر سنة ٣٤٨ هـ / وانتقلت المواجهة بين الطرفين الى البحر ، حيث حصل بينهما عام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م أول صدام ، وقد تمثل بلقاء مركب أندلسي كبير مركباً فاطمياً يحمل رسولا من صقلية الى المعز ، فاستولى الأندلسيون على ما في المركب ، ووضعوا أيديهم على الكتب الموجهة الى المعز ، ورد الفاطمي بارسال اسطول بقيادة صاحب صقلية ، توجه الى المرية قاعدة الأمويين البحرية ودخل المرسى وأحرق جميع ما فيه من

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٧ ، ص ١٠ .
(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢١٩ـ٢٢١ .
(٣) ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ٧٤ .

المراكب وأسر المركب المهاجم • كما نزل رجال الأسطول الى البر فقتلوا ونهبوا • وثأر عبد الرحمن بارسال اسطول الى بعض بلاد افريقية ، نزل رجاله ونهبوا واشتبكوا مع جند المعز الذي أرسل اليهم ثم صعدوا الى مراكبهم بعد أن قتلوا وقتل منهم خلق كثير • وأمر الناصر باطلاق اللعن على الخلفاء الشيعة من أعلى المنابر في الأندلس [١] •

سياسة الحكم الافريقيــة • ـ

ارتقى الحكم العرش في وقت ضاع فيه للامويين ، اثر ضربة جوهر الصقلي ، كـل نفوذ عـلى القبائل البربرية ، واقتصر سلطانهم في الشمال الافريقي عـلى قاعدتهم سبته • ومـع ذلك استمر الحكم في اتباع سياسـة والده القائمة على تقريب القوى البربرية المعادية للفاطميين أو المنقلبة على حكمهم • واذا كان هناك من شيء جديد فعلا فهو استخدام المال على نطاق أوسع ، واستخدام الجيوش الأموية في المغرب خارج مدينة سبته القاعدة وان لم تبعد عنهـا كثيراً ، اذ اقتصر عملهـا عـلى شمال مراكش وكذلك السعي للحصول على ولاء القبائل الصغيرة لا الكبيرة •

بدأ الحكم أيـام خلافته بالتقرب مـن أهالي سبته باسقاط جميع الضرائب عنهم [٢] ، واستقبل مـن غرب مراكش بالترحيب سفيراً لدولة برغواطة رغم مروق مذهبها عن الدين • وتدل بعض أخبار مبعثرة عند ابن عذاري على أن بقايا الأمراء القدماء في مراكش ، عادوا لاعلان طاعـة الأمويين ، رغم خضوعهم للفاطميين اثر حملة جوهـر ، مثل بعض أبناء موسي بن أبي العافية الذين لم تبق لهم الا أملاك صغيرة ، و كذلك الأدارسة من آل محمد الذين أصبحوا أعظم قوة في شمال المغرب الأقصى بعد أن ورثوا أملاك ابن أبي العافية • ثم واتت النفوذ الأموي في المغرب فرصة سانحة تمثلت باحتـلال جيش فاطمي يقوده جوهر الصقلي مصر ودخـل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٥١٢ـ٥١٣ •

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ •

قائده الفسطاط في شعبان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م أي بعد ثماني سنوات من ارتقاء الحكم عرش الخلافة • وقد أصبحت مصر مقراً للخليفة الفاطمي فقد باشر جوهر بعد دخوله مصر بناء مدينة القاهرة ، وانتقل اليها المعز بعد ثلاث سنوات بأهله وعماله وخزائن أمواله • وبذلك غدت افريقيا مجرد ولاية للدولة الفاطمية لا قاعدة لها ، الأمر الذي يخفف من اهتمامهم بالمغرب ككل ويفسح المجال لدخول النفوذ الأموي •

كما استفاد الأمويون من النزاع الذي جرى بين الزعماء الموالين للفاطميين على منصب النيابة عن الخليفة في افريقيا • فقد عهد الخليفة الفاطمي بالنيابة عنه وحكم ولاية افريقية لعائلة زيري بن مناد الصنهاجي زعيم الصنهاجيين الذي كان له ولأسرته على الفاطميين أياد كثيرة، كان آخرها قبل رحيلهم قيام ابنه بلكين بمهاجمة الزناتيين بقيادة محمد بن الخير بن خزر ، حفيد الزعيم المغراوي الذي ظل يقاتل الفاطميين منذ السنوات الاولى لقيام دولتهم،وجرت المعركة الفاصلة يوم الخميس ١٧ ربيع الآخرة سنة ٣٦٠ هـ / ١٧ شباط ٩٧١ م ، وكانت كارثة بالنسبة للزناتيين اذ قتل منهم الكثيرون على مختلف طبقاتهم ، وعندما أيقن قائدهم من الاحاطة به وتعذر نجاته اتكأ على سيفه وقتل نفسه[١] ، بينما كان لها رنة فرح واسعة المدى لدى الفاطميين اذ « قعد المعز للهناء به ثلاثة أيام » حسب قول ابن الأثير[٢] • وربما أكد هذا الأمر للمعز أن العهد بمصائر شمال افريقيا لهذه العائلة يعني وضعها في أيد أمينة • لكن تقديم الزيريين أدى لنقمة عائلة الأندلسي المنافسة لهم في خدمة الفاطميين •

يعود أصل جد عائلة الأندلسي الى كورة البيرة من الأندلس ، وفي عام ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م توجه ثعلبة بن حمدون منها الى الحج برفقة جده وهو في السابعة عشرة ونزل في كتامة حيث كان أبو عبد الله الشيعي يبشر

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٣٨ •
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٦١٦ •

بالدعوة الفاطمية ، فعمل معه وغير له الداعي اسمه الى علي ، وسرعان ما احتل في الدعوة ، ومن ثم في الدولة الفاطمية مركزاً مرموقاً ، و قد استخدمه الخليفة الفاطمي الأول في مهمات في المشرق ، كما رافق ابنه في حملاته باتجاه الغرب وبنى بتكليف منه مدينة المسيلة ، التي يطلق عليها الشيعة اسم المحمدية نسبة للفاطمي الآمر ببنائها ، وأضحى أميراً عليها . وعندما قتل علي أثناء الحروب بين الفاطميين وأبي يزيد النكاري ، حل ابنه جعفر في مكانته الرفيعة . ويظهر أنه طمع بولاية افريقيا كنائب للمعز عند توجهه لمصر ، وغص بمكانة زيري بن مناد الصنهاجي وابنه وعظم عليه أن يولي المعز هذه العائلة في ولاية افريقيا ، كما شاع ذلك وانتشر قبل مغادرة المعز الى الديار المصرية [1] . وشعر الزيريون بخطر منافسته لهم وبدأوا يصغرون من شأنه بين القبائل المحيطة ببلده والمحتمية به ، وهي القبائل الزناتية النازلة بالزاب (المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من قسنطينة الحالية) وذلك بمهاجمتها واخفار ذمته [2] . كما زعموا للخليفة الفاطمي أن بلكين بن زيري وجد بعد مقتل الزعيم الزناتي محمد بن الخير بن خزر لديه فرساً كان الخليفة أهداه لجعفر بن علي بن حمدون وكتباً بخطه للزناتيين تنذرهم بتوجه بلكين نحوهم وتطلعهم على عوراته . وعندما أمر الخليفة جعفراً بالقدوم عليه في حضرته ، أخبره أحد عيونه في البلاط بأن الخليفة عازم على قتله . فتظاهر جعفر بالاذعان للأمر ، وخرج في عقب جمادى الثانية ٣٦٠ هـ / أواخر نيسان ٩٧١ م مع كل أهله ومواليه وما استطاع حمله من ماله وتظاهر بالسير نحو القيروان لكنه انحرف بعد سيره مسافة قصيرة باتجاه الغرب حيث التحق بالزناتيين من مغراوة الذين يقودهم أبناء زعيمهم المقتول [3] .

سارع زيري لملاحقة جعفر قبل أن يقوى أمره بين الزناتيين ، لذا

---

(١) ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ، ص ٧٤ .
(٢) رواية ابن الجزار في المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٣٦-٣٧ .
(٣) رواية الوراق في المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٣٥-٣٦ .

لم ينتظر عودة ابنه الذي كان في قاصية الغرب،بل اتجه نحو أعدائه والتقى بهم في شهر رمضان من نفس السنة فلاقى حتفه وقتل معه الكثيرون من الصنهاجيين • وأوفد جعفر كاتبه مباشرة الى قرطبة ليحمل النبأ السار للحكم الثاني ، وتقاطر زعماء المنتصرين في النزول بالأندلس ، اذ قدم يحيى ثم أخوه جعفر ابنا علي بن حمدون وعدد من زعماء زناته ، بينما بقي زعماء آخرون في مواطنهم ينتظرون توجيهات الحكم الثاني والأهم منها امداداته وأمواله لهم • واستقبل الحكم الوافدين بحفاوة منذ نزولهم ومثلوا بين يديه في بروز فخم كما جرت العادة ، عادوا بعده الى منازلهم الممنوحة لهم ، كما خصص لجعفر وأخيه يحيى اللذين طلبا البقاء الى جواره راتب ضخم يقدر بألف دينار كل شهر لكل منهما،عدا المخصصات العينية الأخرى [١] عند ذلك ارتبط مصير عائلة بني حمدون الأندلسي بالخلفاء الأمويين ، رغم تأزم علاقات جعفر ويحيى بالحكم بعد وصولهما بثلاث سنوات • فقد خفض راتبهما ، وعندما تلاسنا مع مندوب الخليفة المكلف بالتعاقد معهما على أثمان عبيدهما الذين استعفوا من خدمتهما ومن الخروج معهما ودعوا الى الانتقال عن ملكيتهما لسوء ما يجشمانهم ، اعتبرت أقوالهما مساً بجلال الخلافة ودلالة على الميل الشيعي الباطن ، فسجنا قرابة سنة ثم أطلق سراحهما [٢] •

رد الفاطميون ، كما جرت عادتهم ، بحملة جديدة للانتقام لما أصاب تابعهم ولاعادة الهيبة لسلطانهم أمام القبائل البربرية وذلك بتجريد حملة جديدة الى المغرب • قاد الحملة بلكين بن زيري ، وكانت عنيفة وكاسحة ضد زناته ، فقد تساقطت مدن افريقيا والمغرب التي كانت بيدهم كتاهرت والمسيلة وطبنة وبسكرة ، واستأصل منهم الآلاف وتهدد الباقين بقوله مامن أحد يرعى الخيول ويمكنه أن يطمع مني بالأمان • لكن تقدمه مع كل هذا

---

(١) رواية الرازي في المصدر السابق ، ص ٣٨ـ٥٧ •

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٢ـ١٧٣ •

الاندفاع لم يتجاوز المغرب الأوسط ، وبقي المغرب الأقصى للأدارسة يسيطرون على أغلب بقاعه منذ تحطيم دولة موسى بن أبي العافية المكناسية.

كانت علاقات الأدارسة بالحكم علاقات تبعية في أول الأمر ، وعندما أوجسوا خيفة من نشاط الزيريين في المغرب الأقصى طلبوا منه تقويتهم بقوة من الرماة . الا أن النزاع سرعان ما ذر قرنه بين الأدارسة من أبناء العمومة ، وانتقل فيما بعد ليصبح بين بعضهم وبين الحكم سيد الجميع . ولعب الدور الرئيسي في هذا المجال الحسن بن كنون من بني محمد الأدارسة ، صاحب حجر النسر ، المعقل الرئيسي للأدارسة والواقع في الأقسام الشمالية من المغرب الأقصى . كما كان يبسط سلطانه مباشرة أو عن طريق أخوته أو أقاربه الموالين له على طنجة ومواقع أخرى بينها وبين فاس ، مثل أصيلا والبصرة وحتى على فاس ذاتها .

يفهم من رسالة للخليفة الحكم الى أحد قواده ، أن النزاع مع الحسن بن كنون بدأ عندما طلب منه الأدريسي عوناً ضد بعض أبناء عمومته لكنه (أي الخليفة) عرض التوسط في الصلح بين الطرفين وفق أحكام الآية القرآنية للتدخل في نزاع بين طرفين ، ووعده بالعون والمساعدة عند رفض الطرف الثاني للتحكيم . الا أن الحسن ردّ على ذلك بتحصين مدينة طنجة والدعاء على المنابر للخليفة الفاطمي في المناطق التي يسيطر عليها (١) .

في ١٢ رمضان سنة ٣٦١ هـ / ٢٩ مايس ١٩٧٢ م أمر الحكم المستنصر الناظر بالحشم محمد بن قاسم بن طملس بالاستعداد للرحيل الى سبته وقيادة الجند الذين سيلحقهم به لمحاربة ابن كنون ، وكذلك فعل بالنسبة لقائد الاسطول عبد الرحمن بن رماحس . ووجه في أواخر نفس الشهر أوامره أيضاً الى بعض الموالي والأحرار لتهيئة اسطولي المرية

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٩٩ .

واشبيلية للتوجه نحو نفس الهدف • وبعد نزول الجيش ووصول الأسطول الى الشواطىء بشهر ونصف الشهر احتلت طنجة وزلول وأصيلا ثم توقف التقدم بعد ذلك وقتل قائد الجيش ابن طملس في معركة مع الادريسى بفحص مهران من أحواز طنجة ، بعد ذلك بأربعة شهور أي في ٢٣ ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ / ٢٢ كانون أول ٩٧٣ •

دفعت هذه النكسة الحكم لتحريك أشهر قواده وقسم كبير من قواته لاخضاع الادريسى الذي أثبت بعمله أن قواه أعظم مما قدّر الحكم • فأمر قواده بألا يتحركوا نحو عدوهم الى أن يصل اليهم القائد الأعلى المولى غالب صاحب منطقة الثغر الأوسط ، الذي استدعاه الحكم وكلفه بالمهمة فأبحر هذا مصطحباً معه شاعراً من أصل بربري ، خبيراً بشؤون القبائل البربرية • واستمر الحكم في امداد مولاه بالرجال والقواد كيحيى بن هاشم التجيبي من الثغر الأعلى،وكذلك بالأموال لشراء أتباع الأدريسي •

في أول العام التالي احتلت مدينة البصرة في ٨ محرم سنة ٣٦٣ هـ / ٩ تشرين أول ٩٧٣ م وضيق على الحسن بن كنون في حجر النسر واستسلم آخر جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ / ٢٦ آذار ٩٧٤ م على نفس الشرط الذي اشترطه الحكم وأخبر به قواده المحاربين وهو : « الجنوح والرجوع عن غيه والانابة الى رشده باللحاق بسدة أمير المؤمنين ، وهي أقل الأحوال المرتضى بها منه أو نفيه عن أرضه واخراجه عن جميع ذلك البلد » • أما أتباع الادريسى الذين استسلموا قبله ، أثناء تقدم جيش الخليفة فكان وضعهم غير ذلك ، اذ تقبل عودتهم للطاعة ويبقوا في أمكنتهم ويسجل لهم على قومهم على أساس الاعتراف بامامة الحكم والطاعة له التي يعتبرونها كجزء من ايمانهم ويقسمون على أن تصبح أملاكهم وعبيدهم صدقة وأن يسيروا الى مكة مشياً على الأقدام في حالة مخالفتها • ومن مظاهر هذه الطاعة موالاة من والى الخليفة ومعاداة من عاداه والسير مع السنة

والجماعة وفق أحكـام المذهب المالكي » [1] • وقد استخدم الحكم عـدة وسائل لنيل طاعتهم : عن طريق الترهيب ، أن يعلموا بأنه لن يتنازل عن تحقيق هذه الغاية مهما كلفه الأمر،وعن طريق الترغيب بالمال وتعيين الزعماء حكاماً على أقوامهم من قبله• وكان يقوم بتبليغهم ذلك الجواسيس الذين أمر الحكم بنشرهم حول الحسن بن كنون في وسط أتباعه •

السياسة الافريقية للمنصور بن أبي عامر • ـ

اذا شهد عصر الحكم انفراد الأمويين بالمغرب الأقصى وبسط نفوذهم على قسم كبير من بقاعه ، فان عصر المنصور رأى قيام حكم مباشر ايضاً في هذه المنطقة • لكن هذا الحكم لم يكن دائماً ، كما ان المنصور لم يتوصل اليه الا بعد حروب متطاولة مع أتباع الفاطميين من جهة ، وبعد التغلب على العديد من الانتفاضات والردات من جانب زعماء القبائل البربرية ، المتقلبي الولاء بحسب الظروف المحيطة • ولكي تبدو واضحة هذه الاحكام ومداها بدقة يجب سرد احداث الفترة •

رافق بداية عهد المنصور مد وجزر في نفوذ قرطبة في المغرب ، فقد قـام خزرون بن فلفل الزناتي ، من آل خـزر أصدقاء قرطبة القدمـاء ، باحتلال سجلماسة في ٢٥ رمضان سنة ٣٦٧ هـ / ٥ مايس ٩٧٦ م وارسال رأس حاكمها الى الأندلس • لكن بلكين [2] يوسف بن زيـري بن مناد الصنهاجي ، نائب الخليفة الفاطمي في حكم المغرب ، استطاع أن يستصفي المغربين الأدنى والأوسط بعد هجماته على الزناتيين الذين قتلوا والده ، مما دفعهم للفرار الى ما وراء الملوية واقفار المغربين الأدنى والأوسط منهم ، ثم اتبع ذلك عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م أي بعد تولي المنصور للحجابة • بالقيام بهجوم كاسح على المغرب الأقصى واحتلال فاس ، ولاذ أمراء زناته أمامـه بالفـرار ومنهـم يحيى بن علـي بن حمـدون ، واعتصموا بسبته معقـل

---

(١) انظر : ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٨١ ؛ ٨٩ـ٩١ ؛ ٩٦ •

(٢) بلكين او بلقين اسمه البربري القديم ، واعطاه الخليفة الفاطمي اسم يوسف •

الأمويين في الشمال الافريقي • ومنها بعثوا بطلب النجدة من ابن أبي عامر فلبى الطلب بارسال من كان في بلاطه من الزناتيين كمدد وعلى رأسهم جعفر بن علي بن حمدون ، كما غادر قرطبة الى الجزيرة الخضراء ليشرف منها بنفسه على الامدادات المرسلة [1]•ولما اقترب يوسف بن زيري من سبته وارتقى المرتفعات المطلة عليها هالته رؤية الحشود فيها وكذلك سيول الامدادات المتجهة نحوها ، فانسحب عنها قائلا انها أفعى فغرت فاها [2]•لكنه لم يغادر المغرب الأقصى بل بقي فيه قرابة ست سنوات حاول فيها تدمير أعداء سلطانه المقيمين ، فهدم البصرة حيث كانت عمارة كبيرة للأندلسيين والبربر • كما هاجم برغواطة وقتل ملكها وسبى منها الكثير ، ثم توجه نحو سجلماسة وقتل صاحبها خزرون بن فلفل وغادر بعد هذه المدة عائداً الى افريقيا • ويظهر أن المنصور رغب في قطع هذه المواجهة مع الصنهاجي ولجأ لاسترضائه ، ونرى دليلا على ذلك في ارساله [3] اليه برأس جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي قائد القوى التي قتلت أباه قبل زمن ، وقائد القوى التي حشدت في سبته للوقوف بوجهه قبل وقت قصير نسبياً •

كانت هذه الحملة آخر محاولة لاتباع الفاطميين لاعادة بسط نفوذهم المباشر على المغرب مستخدمين قواتهم لتحقيق ذلك ، ورغم سعة الأراضي التي اكتسحتها الحملة ومدى الخراب الذي أحدثته ، الا أنها لم تكن ذات أثر فعال في اعادة النفوذ الفاطمي الى المغرب الأقصى ، اذ عاد نفوذ قرطبة الى ما كان عليه اثر عودة الحملة • وكان الزناتيون أداة هذا النفوذ ، فقد عادوا للانسياح في أرجاء المغرب الأقصى وسيطروا على قواعده وعندما حاول نائب الخليفة الفاطمي الجديد ، وهو المنصور بن بلكين بن زيري ، استعادة ما فقده آله وأسياده هزمه الزناتيون ، وهم تحت قيادة

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٣٠-٢٣١ •
(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٥٦ •
(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٣١ •

زعيم زناتي جديد بدأ نجمه بالصعود وهو زيري بن عطية حفيد عبد الله بن خزر ، الذي كان بدوره أخا لمحمد بن خزر الزعيم المغراوي الذي انضوى تحت لواء الأمويين في أيام الناصر لدين الله. وأقلع المنصور بن بلكين بعد ذلك عن مهاجمة المغرب الأقصى ، الا أن الخليفة الفاطمي أرسل للمنطقة الادريسي الثائر القديم حسن بن كنون ، وربما لم تكن غايته استخدامه كبديل عن القوة العسكرية ووسيلة لبسط النفوذالفاطمي من جديد ، بقدر ما كانت تعكير الجو واقامة العراقيل أمام بسط السيادة الأموية . وكان الحسن بن كنون ـ كما رأينا ـ قد حمل الى الأندلس ابان فشله في الانتقاض على السيادة الأموية عام ٣٦٤ هـ / وقد أقام قرابة عام لدى الحكم ، ثم فسد ما بينهما بسبب خلاف على شراء قطعة عنبر كبيرة كانت معه ، على حد قول الرواية ، فأجلي عن الأندلس بحراً ولحق بالفاطمي في مصر . وقد كتب الخليفة الفاطمي للادريسي عهده بالولاية على المغرب وأمر نائبه في افريقيا بمده بالعون . و استطاع الحسن بن كنون البقاء في المغرب سنة واحدة وتسعة أشهر ، لا بفضل ما استطاع جمعه من أعوان في المنطقة أو بمساعدة وعون الخليفة ونائبه في افريقيا ، وانما بسبب استغلاله للمنافسة بين القبائل الزناتية الموالية لقرطبة . ترجع أسباب هذه المنافسة الى الحظوة التي نالها زيري بن عطية زعيم مغراوه في بلاط الخليفة في قرطبة بعد انتصاراته اللامعة على اتباع الفاطميين وأثار ذلك نقمة يدو بن يعلى زعيم قبيلة يفرن الزناتية ، وأخذ جانب الحسن بن كنون.

تجاه هذا التكتل وجه المنصور بقوات أندلسية انضمت الى المغراويين الذين يتزعمهم زيري بن عطية وأخوه ، وجعلت قيادة هذه القوى لابن عم المنصور بن أبي عامر ، وهو عمر بن عبد الله الشهير بعسكلاجة فانهزم بنو يفرن والحسن بن كنون أمام هذه القوى ، والتمس الادريسي الأمان واللحاق بالأندلس ، فقبل منه ذلك . لكن المنصور نكث بوعد ابن عمه وأنفذ من قتل الحسن وهو في طريقه الى قرطبة في جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ / ايلول ٩٨٥ م .

حاول المنصور بعد ذلك حكم المغرب مباشرة ، وعين كوال الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي الذي حل بفاس عام ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م وخوله صلاحيات واسعة في توزيع الأموال واصطناع الرجال ، وأوصاه بالاعتماد على آل خزر المغراويين بزعامة زيري بن عطية • كما حاول المنصور العامري ، على ما يظهر ، تقريب كل الزناتيين وتناسي الماضي حتى مع بني يفرن وزعيمهم يدو بن يعلى الذين وقفوا مع الحسن بن كنون • لكن هؤلاء أصروا على موقفهم المعادي تجاه المنصور الذي يدعم منافسيهم المغراويين ، ويورد ابن خلدون أن يدو بن يعلى ردّ على دعوة للمنصور لزيارة قرطبة بالقول « متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبياطرة [1] » وكانت النتيجة ، نشوب المعارك بين الوزير القرطبي وزيري ابن عطية من جهة وبني يفرن بقيادة يدو بن يعلى ، وقد أصابت الوزير في أحد المعارك جراحات توفي على أثرها عام ٣٨١ هـ / فعين ابن أبي عامر زيري بن عطية المغراوي لحكم المغرب ، وهذا يعني العودة للحكم غير المباشر •

وسّع زيري مجال سلطته فأضاف للمغرب الأقصى تلمسان في المغرب الأوسط ، وتعاظمت قوته بعد أن انضم للدعوة الأموية أبو البهار وبعض اخوته من أعمام المنصور بن بلكين نائب الخليفة الفاطمي في افريقيا • وتعاون معه على محاربة يدو بن يعلى ، الذي استغل زيارة قام بها زيري للمنصور سنة ٣٨١ أو ٣٨٣ الى قرطبة ليحتل فاس ، وعند عودته استطاع مع أبي البهار استخلاصها منه ، ثم طورد الى الصحراء حيث اغتاله أحد أقاربه • وقسّم المنصور بن أبي عامر أعمال المغرب بين زيري وأبي البهار حتى مدينة فاس ذاتها • ثم فسد ما بينهما وخرج أبو البهار واخوته من المغرب فانفرد زيري بحكمها ، وسلك مسلك جميع رؤساء القبائل الذين يرون في الدعوة للخلفاء وسيلة لتقوية أنفسهم بالمال والسلاح والواجهة

---

(١) ابن الخطيب ، تاريخ المغرب من العصور الوسطى ، ص ٢٢٢ـ٢٢٤ •

الشرعية مما يساعدهم على فرض سلطانهم ومنازعة خصومهم أو حتى منافسيهم القبليين ، وعندما يتحقق لهم الانتصار يميلون لخلع الطاعة والاستقلال بما تحت يدهم استقلالا تاماً .

ومن مظاهر استقلال زيري بناؤه لمدينة وجدة واتخاذها عاصمة له وانتقاله لها عام ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م اذ أن موقع فاس العاصمة كان متطرفاً بالنسبة للبلاد الواسعة التي يسيطر عليها ، في حين تقع وجدة في وسطها . ثم لم يلبث أن نصَّب نفسه مدافعاً عن حق الخليفة هشام المؤيد الذي حجر عليه المنصور بن أبي عامر ، مما دفع المستبد العامري لاستخدام القوة . أرسل لذلك مولاه واضحاً الفتى الذي عسكر بطنجة عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م حيث انضم اليه عدة أمراء زناتيين معادين لزيري . وكانت أول أعماله توسيع قاعدته باحتلال أصيلا وناكور ، وعندما وصلت قوات أخرى على رأسها عبد الله بن المنصور ، خاض زيري ضد الأندلسيين معركة حاسمة في وادي منى قرب طنجة ، حيث أصيب بجراح وحلت الهزيمة بقواته فتقهقر نحو الصحراء تاركاً جميع أعماله في المغرب . بينما دخل عبد الله بن المنصور فاس آخر شوال سنة ٣٨٨ هـ / آخر تشرين أول سنة ٩٩٨ م ووزع الحكام على مناطق المغرب الأقصى ، ثم قفل عائداً للأندلس في العام التالي .

تتالى بعد عبد الله بن المنصور على حكم فاس ولاة متعددون منهم المغاربة ومنهم الأندلسيون ، في الوقت الذي استغل فيه زيري اضطراب أمر صنهاجة واختلافهم على باديس بن المنصور ، ليغادر مقر نزوله في الصحراء ويهاجم المغرب الأوسط فيحتل كل قواعده تقريباً . دخل تاهرت بعد هزيمته لصنهاجة في وادي ميناس بجوارها ثم أتبع ذلك باحتلال تلمسان وشلف وتنس وأقام فيها كلها الدعوة لهشام المؤيد . كما حاصر العاصمة أشير حيث استأمن له عدد من أقارب الأمير الصنهاجي فكتب الى

المنصور راجياً منه قبولهم لديه ومسترضياً له ، وتوفي من مرض أصابه عندما كان على حصار المدينة عام ٣٩١ هـ •

خلف زيري ابنه المعز ، الذي تزعم كتلة الزناتيين القوية من آل خزر ومغراوة ، وكف عن محاربة صنهاجة وأعلن طاعته للمنصور بن أبي عامر الذي قبلها لكنه لم يعد له حكم سلفه • لكن عبد الملك المظفر لبى رغبته ، اثر توليه الحجابة بعد أبيه ، وأعاده لحكم فاس بعد أن أخذ ابنه كرهينة [١] •

وسائل الامويين في الصراع مع الفاطميين

فيما سردناه من وقائع يتبين لنا أن خلافة قرطبة قد استخدمت في صراعها مع الفاطميين قوى الأندلس العسكرية والمالية ، كما انها استغلت العداوات القبلية لتجذب نحوها القبائل المعادية لتلك التي اعتمد عليها الفاطميون ، وعدا عن ذلك استخدمت وسائل أخرى لم يسجلها المؤرخون القدماء ضمن اطار الأحداث التي جرت بين الطرفين التخاصمين • كما أن المؤرخين المحدثين لم يركزوا عليها كثيراً ، ولم تحظ منهم الا باشارات عابرة أثناء ذكر أحداث النزاع • ويمكننا أن نجمع العديد منها من خلال الأخبار المتناثرة في كتب قديمة متنوعة ، ذكرها مؤلفوها عرضاً ودون ربطها ببعضها أو ادراجها ضمن الموضوع الأساسي • وأهم هذه الوسائل :

١ ـ المذهب المالكي والفقهاء المالكيون • ـ

حالف الخلفاء الأمويون ، كما رأينا ـ بعض رؤساء القبائل وهم ذوو حول وقوة وسيطرة في الصحارى والأرياف والجبال في الغالب ، ولم تكن قواهم في الحواضر كبيرة ، بدليل أن الواحد منهم ما ان يصبح ذا

---

(١) أنظر : عن علاقة المنصور وابنه بآل خزر ، ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٥٧ ؛ ج ٧ ، ص ٣٠ـ٣٣ ؛ ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٥٠ـ٢٥١ ؛ ابن الخطيب ، تاريخ المغرب ، ص ١٥٣ـ١٦٠ •

سلطان حتى يبني لنفسه قاعدة • واحتل الزعامـة والتوجيه في الحواضر أناس من نوع آخر ، ربما كان الفقهاء على رأسهم • وقد يتحالف الخلفاء الأمويون والحجاب معهم ، لأنهـم حالفوا كـل من عادى الفاطميين حتى ولو كان من أصحاب المذاهب التي اعتبرتها السنة مارقـة ، فمن الطبيعي والحالة هذه أن يحالفوا من تجمعهم معهم وحدة المذهب الفقهي • وأول مجموعة من الفقهاء المالكية تسجل لنا الروايات التحالف معها هي جماعة فقهاء القيروان اثر ثورة صاحب الأتان ، اذ خرج معه حسب قول صاحب ترتيب المدارك « كل الفقهاء المدنيين الا واحد منهم بسبب عماه [1] » ومع ذلك شارك في التهيئة للخروج ، وعقب فشل هجوم القيروانيين وصاحب الأتان ، كان ابن أحد مشاهير هؤلاء الفقهاء ، وهو أبو العرب بن تميم ، ممن وصلوا الى قرطبة ضمن وفد الثائر الخارجي للخليفة الناصر لدين الله•

كما أن الفقهاء المالكين كانوا عرضة للاضطهاد الفاطمي وللقتل في بعض الأحيان • ويسجل لنا مؤلفو بعض كتب التراجم أو الأخبار العديد من الشواهد على هذا الأمر [2] •

ولم يقتصر تحالف الخلفاء الأمويين مع المالكية على الشمال الافريقي الذي يسيطر عليه الفاطميون ، وانما تجاوزوا ذلك ليتصلوا بالمالكية بمناطق في المشرق ، سواء عندما كانت مهددة بالغزو الفاطمي أو بعد احتلالها • فمن المذكور لدى المؤرخين القدمـاء عن الحكم أنه كان يرسل لكل فقيه (مالكي على ما يرجح) مائة مثقال ، ويضاعفها لمحمد بن القاسم بن شعبان المشهور بابن القرطبي [3] • كما أنه أرسل اليه عشرة آلاف دينار ليفرقها في شيوخ المالكية [4] وذلك قبل دخول الفاطميين لمصر • وقد عرف عـن

---

(١) ترتيب المدارك ، ج ٣-٤ ، ص ٣١٩ •

(٢) أنظر : الخشني ، قضاة قرطبة وعلماء افريقية، ص ٢٨١-٢٨٢ • وكذلك : ابن عذاري، ج ١ ، ص ١٨٨ •

(٣) ترتيب المدارك ، ج ٣-٤ ، ص ٣١٩ •

(٤) الكواكب السيارة ، ص ٨٤ : الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢٠١ •

هذا الشيخ شدة كرهه لهم ، حتى كان يدعو الله أن يميته قبل دخولهم ، فتوفي قبل ذلك بثلاث سنوات • لكن مقاومة الفاطميين كانت قد تأصلت حتى بدت كتقليد لهم ، اذ استمروا في محاربة الفاطميين أمداً طويلا بعد استقرارهم في مصر ، مما اضطر الخليفة الظاهر لاجلائهم عن مصر عام ٤١٦ هـ (١) / كما نشأت للأمويين دعوة على مقربة من مصر في برقة قام بها أموي لقب بأبي ركوة لركوة كان يحملها على سنة الصوفية • وقد عاش في مصر برهة وزار الجزيرة العربية ، ثم قام بالدعوة في جهات برقة سالكاً طريقة الدعاة الفاطميين في السابق ، اذ تظاهر بالنسك وعمل في التعليم ، ثم ضم لنفسه بني قرة وقوماً من زناته سيطر بهم على برقة وتوغل بعد ذلك في أراضي مصر من الصعيد حتى الجيزة ، حيث هزم جند الفاطميين وأوشك على تهديد القاهرة عاصمة الدولة ، وذلك قبل أن ينهزم باستخدام الحيلة عام ٣٩٧ هـ / (٢) •

وصل عداء الفقهاء المالكين للفاطميين حتى الى بلاد الشام فشيخ مدينة الرملة محمد بن علي النابلسي اعتبرهم أجدر من الروم بالمحاربة وأثر عنه قوله « لو أن معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة وواحداً في الروم » • لذا أدخل القرامطة عام ٣٦٠ هـ أثناء هجومهم على بلاد الشام وتوجههم نحو مصر • وعند هزيمة القرامطة واستعادة الفاطميين للرملة هرب مع القرامطة الى الشام • وعندما استعاد الفاطميون دمشق وأسروا من بها من حكام القرامطة ، قبض على النابلسي معهم • وحلت بالجميع عقوبة الاعدام على الطريقة المألوفة ، باستثناء النابلسي الذي خصوه بالذبح كما تذبح الأنعام ثم سلخ وحشي تبناً وصلب (٣) •

في موقف شيخ الرملة ما يستوقف النظر ، فاعتباره للفاطميين أجدر

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢٧٤ •

(٢) أنظر : تفاصيل حركته في ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٩٧ـ٢٠٣ •

(٣) ترتيب المدارك ، ج ٣ـ٤ ، ص ٣٠١ـ٣٠٤ • وابن الاثير، الكامل، ج ٨ ، ص ٦١٥و٦٤٠ •

من الروم بالمحاربة ، يمكن تفسيره بأن العداء بين الفرق في الدين الواحد قد يقلبه التطرف ليصبح أكثر مرارة من العداء لدين آخر . لكن انضمامه للقرامطة ضد الفاطميين ، وهم أبعد عنه مذهباً يدل على أن العداء ليس مذهبياً تماماً . فهل كان ذلك نتيجة لتراكم الحقد على الفاطميين الذين نكلوا بمالكيي المغرب ومصر ؟ أم انطلق وسلك من منطلق سياسي ، ذلك لأن الدولة المالكية وهي الأندلس كانت في حرب معهم ؟ وهل كان ذلك نتيجة لاتصال رسل الخلفاء الأمويين به وتقديم الأموال له كما فعلوا في مصر ، وهو أمر غير مستبعد لأن المنطقة كان فيها حتى ذلك الوقت كما يشهد المسعودي شهادة من رأى بعينه مولى أموياً ومعه كتب دعوى . وربما رأى الخلفاء الأمويون أن يزيدوا ارتباط المالكيين بهم عن طريق اظهار أنفسهم كحماة للمذهب ، ولذا صار في هذه الفترة مذهباً رسمياً للدولة بشكل واضح جلي . وبدت مظاهر ذلك في اعتبار اتباعه رمزاً للولاء للخليفة ، اذ كان أحد شروط الحكم المستنصر لقبول ولاء الأمراء المغاربة « السير مع السنة والجماعة وفق أحكام المذهب المالكي (1) » . واعتبر الحكم في بعض ما كتبه ، أن اتّباع المذهب وسيلة للنجاة والفوز بالآخرة لأنه أنقى المذاهب الفقهية ، وقد خلت صفوفه من اتباع الفرق المارقة وصاحبة البدع ، ويعبر عن ذلك بقوله « وكل من زاغ عن مذهب مالك فانه ممن رين على قلبه وزين له سوء عمله . وقد نظرنا طويلا في أخبار الفقهاء وقرأنا ما صنف في أخبارهم الى يومنا هذا فلم نر مذهباً من المذاهب غيره أسلم منه ، فان منهم الجهمية والرفضية والخوارج والمرجئة والشيعة ، الا مذهب مالك رحمه الله تعالى فانا ما سمعنا أحداً ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع فالاستمساك به نجاة ان شاءالله تعالى (2)» . وشجع الخلفاء الأمويون الدراسات المالكية ، ففي عهد الحكم كلف اثنان من كبار الفقهاء الأندلسيين بمهمة جمع أقوال مالك باختلاف الروايات عنه

(1) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ١٧٥ .
(2) ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٥١ .

وذكر من رواها ، أي أن الاهتمام بأقوال صاحب المذهب قد اقترب من الاهتمام بأقوال الرسول الكريم . وقد أباح الحكم للمكلفين بهذه المهمة خزانة كتبه على ضنانته بها [١] .

وأخيراً لم يعترف نفس الخليفة ، وهو الحكم المستنصر ، بفقيه ويسمح له بارتداء زي الفقهاء ، مالم يحفظ كتاب الفقه الأساسي لدى المالكيين في المغرب وهو المدوّنة [٢] ، وقد ذكر ذلك ابن حيان بقوله « وقد ذكر أن المستنصر بالله أمر ونادى في أزقة قرطبة ألا يتعمم رجل لا يحمل جامع المدوّنة حفظاً وفقهاً [٣] » .

الجاسوسية . ـ

منذ عصر الأمارة استخدم الأمويون الجاسوسية لتحاشي الأخطار ، حتى البعيدة منها ، فمن المعروف ، أن الأمير محمداً على سبيل المثال ، كان حريصاً على التعرف بأفضل شكل ممكن على نشاط الخلافة العباسية ، فاستخدم لهذا الغرض صداقاته مع الأئمة الرستميين أصحاب تاهرت ومع المدراريين أصحاب سجلماسة ، الذين كانوا يزودونه بمعلومات من جواسيسهم عن الوضع السياسي في بغداد وسوريا ومصر وافريقيا [٤] . وفي الوقت نفسه كان هؤلاء الأمراء يحتاطون من معرفة أعدائهم على أسرار دولتهم . ويذكر ابن خلدون « كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم ، وما أبيح الحج لأهل الدول من الأندلس الا بعد فراغ شأن الأموية [٥] » .

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ٣٨ . ترتيب المدارك ، ج ٣ـ٤ ، ص ٦٣٤ .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥٠ .
(٣) الزهري ، كتاب الجغرافية ، ص ٨٨ .
(٤) Levi Provençal, Histoire ..., vol. III, P. 502-503 .
(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٥ .

وفي عصر الخلافة تكثر لدينا الشواهد على استخدام الخلفاء للجاسوسية على نطاق قد يكون أشمل اتساعاً وأكثر عمقاً . فعبد الرحمن الناصر لدين الله « كانت له عيون على ما قرب وبعد وصغر وكبر »[1] . أما الحكم فقد استخدم الجاسوسية في أمور متعددة ، اذ وضعهم في بلد آخر لرصد تحركات عدو بعيد سريع الحركة ، وهكذا وضع رجالا في شنت ياقب الخاضعة لملوك ليون ، والواقعة في أقصى شمال غرب شبه الجزيرة الايبيرية لرصد تحركات المجوس النورمان ، وكلف سفراءه بالتجسس على الأمراء المسيحيين الموالين له ، ويقول ابن حيان أن الخليفة الحكم رتب المعروف بابن أبي عمروس العريف وسعيداً صاحبه المسلمين الماهرين بالخدمة ، المعروفين بصدق اللهجة للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ولقاء قواميسها والتردد اليهم كل وقت لتعرف أخبارهم والتجسس لأنبائهم وحمل الكتب اليهم كل وقت وصرفها عنهم فيصح الصحيح وتحسن الفائدة[2] . وفي حربه مع الحسن بن كنون في شمال المغرب الأقصى استخدم الحكم نوعين من الجواسيس: نوع لرصد حركات العدو، ونوع سمي « بدسيس اعلام » لتفريق أتباعه وتقريبهم ، وذلك نستنتجه مما يورده ابن حيان بقوله من رسالة للحكم الى قواده « ان أفضل ما احتمل عليه وأعمل به استشعار الحزم وادراع التحفظ .. واذكاء العيون وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن حركة ولا يتوارى له مذهب[3] فليكن منكم الى خاصتهم وعامتهم (يقصد أتباع الحسن بن كنون) دسيس أعلام وتقديم تعريف باعتقاد هذا المذهب ومبايعة الرب تعالى عليه واشاعته في جميع الناكثين من جميع القبائل الصاغين الى الملحد والناشبين في حبالته . ليكونوا على علم برأي أمير المؤمنين في استصلاح أحوالهم وتقبل انابة بيعتهم » .

---

(١) ابن سعيد ، المغرب ، ص ١٨٥ .
(٢) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٧٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

من كل ما مر ، يبدو لنا طبيعياً لحد كبير استخدام الخلفاء الأمويين لسلاح الجاسوسية ضد الفاطميين ، والعداوة بينهما على ماهي عليه من المرارة والضراوة وقد حفظت لنا روايات المؤرخين أسماء لبعض هؤلاء الجواسيس ومهماتهم وأعمالهم • كان بعضهم عيوناً يزودون البلاط الأموي بالأنباء من مصادر مختلفة ، قد تكون في بعض الأحيان البلاط المعادي • فمحمد بن محمد بن كليب يخبر الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد شهرين فقط بموت الخليفة أبي القاسم وتولى الخليفة اسماعيل المنصور وبصفات هذا الخليفة الفاطمي الجديد وبانتصاراته ، رغم أن البلاط الفاطمي أخفى نبأ موت القاسم مدة سنتين [١] ريثما ينتهي من أمر الثائر الذي يهدده • وهناك أمثلة أخرى على جواسيس يقومون بضربات في البحر للحصول على أسرار الأعداء ، فعند الهجوم على الأسطول الصقلي الفاطمي لم يأسره الأندلسيون وانما أخذوا منه الرسائل ، ويرى دوزي أن تلك الرسائل كانت تحتوي على مشروع لمهاجمة الأندلس[٢] • وفي حادثة أخرى نجد المراكب الأندلسية تعمل بالتعاون مع جواسيس البر لاختطاف رجال أندلسيين هاربين الى الفاطميين عاملين في خدمتهم • وكمثل على ذلك التاجر الشهير الذي عمل بالتعاون مع مركب أرسله له أمير البحر ، ليقبض على أحد العاملين في جيش خليفة الأندلس ، وانتقل الآن لخدمة الفاطمي ، وكان يتجول في شمال افريقيا عند أسره ساعياً للفتنة حسب قول الرواية ، ويمكن ترجمة التعبير بأنه كان يعمل على بث الانتقاض ضد الخليفة الأموي ولمصلحة الخليفة الفاطمي [٣] •

وربما قام بعض هؤلاء باغتيال كبار رجالات الدولة الفاطمية، اذ يروي ابن حجر العسقلاني أن رجلا أندلسياً حاول اغتيال قاضي قضاة مصر

---

(١) أنظر : رواية ابن حيان في الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢٩٠-٢٩١ • اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٦ • أخبار العبيديين ، ص ٣٦ •

(٢) R. Dozy; Histoire ..., vol. II, p. 165 .

(٣) أنظر : تفاصيل عملية الاسر في : المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٨٦-٨٧ •

الحسين بن علي الفاطمي أثناء تأديته الصلاة في أحد مساجد القاهرة سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م ، وانه منذ ذلك الوقت اضطر القضاة لاتخاذ حرس خاص أثناء الصلاة [١] .

في نفس الوقت الذي كان الخليفة الأموي يعمل فيه على استخدام الجاسوسية ضد أعدائه الفاطميين ، كان يتعقب ويوقف في الأندلس كل من يشتبه بعمله لمصلحتهم ، أو أنه يمكن أن يعمل في خدمتهم لمشاركته لهم في الاعتقاد أو بصلة القرابة .

حرب الدعاية واعلان الخلافة . –

كانت الأندلس ، شأنها في ذلك شأن عدة مناطق من ديار الاسلام ، ميداناً للدعوة الاسماعيلية التي انبثقت عنها الدولة الفاطمية . ومع أن عمل الدعاة سري وأشخاصهم كذلك ، الا أن الرواية حفظت لنا أسماء بعض هؤلاء الدعاة الذين عملوا في الأندلس ، والذين كشفهم فيما بعد عملهم في الدولة الفاطمية والمراكز التي احتلوها في جهازها . وكان دخولهم للأندلس معاصراً ، ان لم يكن سابقاً ، على وصول أبي عبد الله الشيعي للشمال الافريقي . وعلى عادة الدعاة الفاطميين الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ، فقد دخل في الفترة الأولى للأندلس شخصان بثوب العلماء ، أحدهما أبو اليسر الرياضي الشيباني الوافد على الأمير محمد ، ورغم كونه عالماً بأمور متعددة : منها النثر الذي أخذه عن الجاحظ والشعر الذي حمل منه الى افريقية شعر الشعراء المجددين مثل أبي تمام والبحتري ودعبل الخزاعي ، والنحو الذي أخذ منه على المشاهير في المشرق [٢] ، الا أنه زيادة في الخطوة زوّر رسالة توصية على لسان أنصار للأمويين من بلاد

---

(١) ابن حجر العسقلاني ، رفع الاصر عن قضاة مصر ، آخر كتاب الكندي الولاة والقضاة ، ص ٥٩٦ .

(٢) ابن الأبار ، التكملة ، ج ١ ، ت ٤٥٤ ، ص ١٧٣ .

الشام ، ويظهر أن أمره اكتشف فغادر الأندلس الى مصر وهناك سجن[1] ولا ندري كيف توصل للخروج من سجنه حيث عمل لدى الأغالبة ، وتوفي بعد عدة سنوات من قيام الدولة الفاطمية والعمل لديها .

أما ثاني الجاسوسيين الفاطميين فهو أبو جعفر البغدادي[2] ، وحمل كالأول بعض كتب الأدب ، وقد شغل هذا لدى الفاطميين بعد قيام دولتهم منصباً خطيراً اذ ولاه الشيعي على ديوان البريد[3] ، ولا تخفى أهمية هذا المنصب من ناحية الاشراف على ما يسمى بالاستخبارات في عصرنا . ولذا استعان به أول الخلفاء الفاطميين للقضاء على أبي عبدالله الشيعي ، داعية الفاطميين الأول ومؤسس دولتهم . وفي عصر الخلافة دخل الأندلس ابن حوقل صاحب كتاب صورة الأرض ، على هيئة تاجر رحالة . وقد أعطى صورة للأندلس فيها كل ما يرغب في غزوها ، لغناها بالثروات النباتية والمعدنية ووفرة جبايتها ، كما أن فيها ما يجعل هذا الغزو سهلا لجبن أهلها وقصورهم عن اكتساب المهارة في الفروسية ولقلة جندهم كما يستنتج من قوله « وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وان شجعت أنفسهم ، ومرّنوا بالقتال ، فان أكثر جروبهم تتصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غيري بها انساناً قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم . وهم يفرسون على الأعراء من الخيل ، وما أطبقت قط جريدة عبد الرحمن بن محمد ولا من سبقه من آله وآبائه على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه » .

---

(١) الاخبار المجموعة ، ص ١٤٦_١٤٨ .

(٢) يذكره ابن الابار في التكملة ، ج ١ ، ت ١٧٠٦ ، باسم محمد بن أحمد بن هارون البغدادي ، بينما يرد عند ابن الفرضي ، تاريخ العلماء ... ، ت ٢٠١ ، ص ٧٤_٧٥ باسم احمد بن محمد بن هارون البغدادي .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

ويشير ابن حوقل الى شدة بأس المعارضين للدولة بقوله «وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدّن،وهم على دين النصرانية روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات ولجأ بعضهم الى حصن فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد،واذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم الا باستئصالهم، وذلك شيء يصعب ويطول » .

وابن حوقل يتعجب بناء على هذا في بقاء الأندلس بيد صاحبها الى هذا الوقت مع علم الفاطميين بذلك ، ويقول « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والابطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها [1] » .

يحيط الغموض بأسماء من تقبلوا الدعوة في الأندلس، نظراً لطبيعة الدعوة السرية ، ولعدم ملائمة الأندلس ذات الوحدة المذهبية للجهر بآراء بعيدة عن السنة . لكن ملاحقة الأمويين لمن يعتقدون بمذهب الفاطميين وهرب شخصيات كبيرة الى المغرب مثل بني حمدون [2] والشاعر ابن هانيء ، ووجود شخصيات أندلسية شيعية في افريقيا حتى قبل وصول أبي عبد الله الشيعي ، مثل أبي عبد الله الأندلسي الذي نزل عنده الداعي الفاطمي أول ما نزل [3] ، كل ذلك يوحي بأن الدعوة لاقت ولو بعض النجاح . وهذا يعني أن دعوة الفاطميين غزت الأمويين في عقر دارهم من جهة ، ودلت من جهة ثانية ــ وهو الأمر الهام على أن الأندلس

---

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٤ــ١٠٥ و ١٠٨ــ١٠٩ . أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ الاندلس والمغرب ، ص ٦٦ .

(٢) رواية الوراق في المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٣٣ــ٣٤ .

(٣) القاضي النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة ، ص ٦٧ــ٧١ .

داخلة ضمن أطماعهم ، وبشر شاعرهم محمد بن رمضان بسقوط دولة الأمويين ودولة بني العباس بعد دولة الأغالبة :

فدولة القائم المهدي قد أزفت   أيامها والذي أنبا به الأثر
عن النبي ، وفيها قطع مدتكم   ياآل أغلب أهل الغدر فاقتصروا
وقطع أمر بني العباس بعدكم   وقطع آل بني مروان فانتصروا[١]

تجاه هذا الخطر كان الأمير الأموي في الأندلس ضعيفاً من الناحية المعنوية فتجاه امام ينحدر من علي وفاطمة الزهراء ، كان هو مجرد أمير متغلب لا يسنده نسب عريق اسلاميا لأنه من بني مروان ، ولا تعترف الخلافة القائمة منذ زمن ، أي خلافة العباسيين ، بشرعية حكمه .

عالج عبد الرحمن الثالث هذا الأمر بالسير في الطريق الذي بدأه جده الى نهايته ، وهو اضفاء الصفة الدينية على منصبه واعلان نفسه خليفة وكان جده وسلفه الأمير عبد الله قد لجأ عندما ضعف سلطانه الفعلي الى التمسح بالدين واظهار التقوى والورع ، وصار شعراؤه ينعتونه بالامام مستفيدين من ردة عمر بن حفصون ومحاربته له . وهكذا يقول شاعر في مدح أحد قواده :

ففي كل صيف وفي كل مشتى   غزاتان منك على كل حال
فتلك تبيد العدو وهذي   تفيد الامام بها بيت مال

كما أن شاعراً آخر يقول من قصيدة مدح له :

هذا النجاح امام المسلمين وذا   هو القفول الذي أوفى بعيدين[٢]

لكن اتخاذ اللقب رسمياً تم في عهد عبد الرحمن ، الذي استغل حادثة الانتصار النهائي على حركة آل حفصون المارقة ، فأعلن في

---

(١) القاضي النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة ، ص ٨٩ .

(٢) انظر الجزء الاول من كتابنا ، دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ، ص ٢٤١-٢٤٤ .

٢ ذى الحجة عام ٣١٦ / نفسه خليفة • وتمت اجراءات الاعلان باصداره أمراً للقاضى صاحب الصلاة بأن يدعى أميراً للمؤمنين في خطبة الجمعة • كما وجه للأمصار رسالة بهذا المعنى يشرح فيها موقفه قائلا بأنه أجدر من يستوفي حقه ويلبس من كرامة الله ما ألبسه ، اذ أعلى الله من شأنه ونصره ونشر في الآفاق ذكره • وهو بهذا يسترد الحق الضائع لأسلافه ويثبت الاسم الساقط [١] •

بهذا العمل تخلى أمويو الأندلس عملياً عن المبدأ الذي اتبعوه منذ سيطرتهم على الأندلس ، وهو احترام وحدة منصب الخلافة ، اذ أضحى هناك ثلاثة خلفاء ، العباسى في المشرق ، والفاطمي في افريقيا ، والأموي في الأندلس • الا أن عبد الرحمن لم يعترف بهذا الواقع العملي وأصر على عدم الاعتراف بغير خليفة واحد ، وأشار لذلك في الاعلان بقوله « اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه » • كما أنه اتخذ لنفسه على شاكلة الخلفاء العباسيين لقباً دينياً الى جانب أمير المؤمنين ، هو الناصر لدين الله ، ويقول ابن حزم أنه تجاوزهم أيضاً وأخذ لقبين الناصر والقائم ، ومع أن الثاني لم يشتهر لكنه وضعه الى جانب الأول في كتابه لملك الروم [٢] •

ولم يكتف عبد الرحمن لتعظيم رتبته بهذه الألقاب ، بل زاد على ذلك بأن تصدر المخاطبات بالخبر عنه ، أي يخاطب بصيغة الغائب ، كما أن مواليه وكبار موظفيه صاروا يصلون أنفسهم معه برابطة العبودية في كل ما يصدر عنهم وأن يكتبوا على عنواناتهم « عبد أمير المؤمنين فلان بن فلان [٣] » •

---

(١) أنظر نص الاعلان في : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٩٨ـ١٩٩ •
(٢) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٧ •
(٣) اخبار الناصر ، ص ٦٤ •

هـل وجـد تشيّع أموي ؟

رغم كل هذا الاعلاء من شأن الخليفة وخلع الصفات الدينية عليه ، يبقى على مستوى الخلفاء العباسيين ، وأدنى بكثير من مركز الامـــام عند الشيعة الفاطميين الذين يقاومهم • لكـن مؤرخاً مشرقياً ، هـو المسعودي المعاصر والمطلع على أحوال الأندلس والمغرب الاسلامي بشكل عام ، يذكر لنا رواية ينقلها عن غيره ، وكتاباً عثر عليه وقرأه وفيهما ما يدل على أن الخليفة الأموي في الأندلس أضحى اماماً شبيهاً بالأئمة الشيعة الاسماعيلية •

في الرواية التي نقلها عن معاصر له ، أن الخلفاء الأمويين في المشرق كانت لهم ألقاب دينية ، فمعاوية الناصر لحـق الله ، وابنه يزيد المستنصر ومروان بن الحكم المؤمن بالله ، وعبد الملك المؤثـر لأمـر الله • والوليد المنتقم بالله ، وسليمان المهدي أو الداعـي الى الله ، وعمـر بن عبد العزيز المعصوم بالله ، ويزيد بن عبد الملك القادر بصنع الله ، وهشام بن عبد الملك المنصور ، والوليد بن يزيد المكتفي بالله ، ويزيد بن الوليد الشاكر لأنعم الله ، وابراهيم بن الوليد المتعزّز بالله ، ومروان بن محمد القائم بحق الله ويعلق المسعودي على هذه الرواية التي سمعها من معاصر له أن الكافة على خلافه ، ولم يذكره الجمهور من حملة الأخبار ونقله السير والآثار ، ولا دونه مصنفو الكتب في التواريخ والسير •

أما الكتاب فقد وجده المسعودي في سنة ٣٢٤ بمدينة طبرية عند بعض موالي الأمويين وعنوانه « البراهين في امامة الأمويين » يذكر فيه خلافـة عثمان بن عفان ومعاوية ويزيد ومعاوية بن يزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان ومن تلاه من بني مروان الى مروان بن محمد ، ثـم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل) ، « وان مروان بن محمد نص عليه وعهد بالأمر بعده اليه » ويتسق بعد ذلك سائر من تملك بالأندلس من بني أمية من ولد عبد الرحمن المقدم ذكره الى سنة ٣١٠ • ووصف لكل واحد منهم فضائل ومناقب واموراً استحق بها الامامة ، ونصوصاً على اسمائهم وأعيانهم

وادعى الأخبار المتواترة الجانية مجيء الاستفاضة . معارضاً لأهل الامامة وهم جمهور الشيعة في المنصوص والنقل ومستدلاً على فساد اقاويل اصحاب الاختيار ، ومناقضاً لأصحاب النص على أبي بكر ، وأتى بمسائل ومعارضات على من ذكرنا والزامات » .

وذكر بعد ذلك « أخباراً من أخبار الملاحم الآتية والأنباء الكائنة مما يحدث في المستقبل من الزمان والآتي من الأيام من ظهور ورجوع دولتهم، وظهور السفياني في الوادي اليابس من ارض الشام في غسان وقضاعة ولخم وجذام وغاراته وحروبه ومسير الأمويين من الأندلس الى الشام ، وانهم اصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر ، وما يكون لهم من الوقائع والحروب والغارات والزحوف » .

يؤخذ من أقوال المسعودي هذه ان هناك ما يمكن ان ندعوه بنظرية متكاملة في امامة الامويين ، خلعت فيها الصفات الدينية على كل امراء الامويين وخلفائهم حتى عهد عبد الرحمن الناصر . وهي نظرية الامامة عند الشيعة الامامية وفرعها الاسماعيلية التي ينتمي اليها الفاطميون في كثير من نواحيها ولكنها تبدأ بعثمان بن عفان بدلا من علي بن أبي طالب ، وتتسلسل الامامة بعد ذلك في معاوية والأمراء والخلفاء الأمويين دون انقطاع حتى عبد الرحمن الثالث ، بدلا من تسلسلها في الأئمة الشيعة الاسماعيلية حتى عبيدالله المهدي . وما عدا ذلك تتفق معها من ناحية المبادىء كالقول ان الامامة بالنص لا بالاختيار والقول بالرجعة ، وان كانت النصوص هنا دالة على خلافة الأمويين والرجعة لهم .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : ما علاقة الخلفاء الامويين في الأندلس بذلك ، وهل كان هذا الكتاب المحتوي لهذه النظرية كتاب دعوة ، وهل كان للخلفاء الأمويين علاقة بنشره ؟

لعل أول ما يتبادر للذهن ان الكتاب موجود في المشرق ، حيث توجد مجموعات من الناس مناصرة للأمويين كأناس من مواليهم ، وآخرين أكثر

عدداً من العثمانية كانت وراء وضع مثل هذه الأفكار المتضمنة في الكتاب ، خاصة وان العثمانية كانوا يرون في الامويين الخلفاء المجسدين لآمالهم ، وكانوا متعصبين للأمويين وللأندلس،والدليل على ذلك ما نراه من اختلاقهم للأحاديث في فضل معاوية،كما تفعل سائر الفرق بالنسبة لرجالها البارزين وقد شاهد الجغرافي المقدسي بعضاً من هؤلاء في العراق ، وسمع أحدهم في جامع واسط يقول « حدثنا فلان عن فلان عن النبي (ص) أن الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه الى جنبه ويغلّفه بيده ثم يجلوه على الخلق كالعروس[1] » .

ويظهر تعصبهم للأندلس من تعظيمهم لقرطبة ، فبينما يقول ابن حوقل الجغرافي [2] الشيعي الهوى أن « قرطبة وان لم تلك كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك،يذكر لنا المقدسي المعاصر له عنها [3] « هي مصر الاندلس سمعت بعض العثمانية يقول هي اجلّ من بغداد » .

لكن مما يجعل هذا الفرض مستبعداً ، أن العثمانية وحتى الموالي قديمين في المشرق ، وقد انقضى على سقوط دولة الامويين فيه قرابة قرنين ، فلماذا لم تظهر الألقاب الدينية ، ولا كتاب على شاكلة « البراهين في امامة الأمويين » الا في هذه الفترة التي اشتد فيها الصراع بين خلفاء الاندلس والخلفاء الفاطميين ؟ هذا الأمر يدفعنا للميل نحو الفرض الآخر ، وهو أن أمويي الأندلس قد يكونون ذوي صلة به ، وانه ربما كان كتاب دعوة لهم كما كانت هناك كتب دعوة للفاطميين ، وما يجعل هذا الامر غير مستبعد هو انهم كانوا على علاقات دائمة بالمشرق سواء قبيل عصر الخلافة أو اثناءه . ففي عصر الأمير محمد زور أبو اليسر الرياضي الشيباني المشرقي، أو أحد رجال الدعوة الفاطمية ، كتاب توصية على لسان جماعة من اهل الشام كي ينال الحظوة لدى البلاط الأموي في الأندلس[4] .

---

(١) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٣٦ .
(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٨ .
(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٣ .
(٤) أخبار مجموعة ، ص ١٤٦ .

والحكم يرسل رسلاً يبقى أحدهم عشرين سنة في المشرق لابتياع الكتب في البصرة[1] ، ويؤلف له البعض كتباً في تمجيد الاسرة الاموية[2] ، فلا يستغرب والحالة هذه ان ترسل بعض الكتب من الاندلس الى المشرق وان يكون لخلفاء الاندلس وكلاء سياسيون ايضاً .

ومن ناحية أخرى نرى فيما ألّفه البعض ممن يعيشون حول البلاط الأموي افكاراً متناثرة تعود كلها الى النظرية الواردة في كتاب البراهين في امامة الامويين ، فابن عبد ربه صاحب الارجوزة في الخلفاء يسوق الخلافة من ابي بكر الى عمر فعثمان فمعاوية ، ويغفل ذكر علي كخليفة راشدي ، وفي هذا تأكيد على صحة امامة الأمويين ونفي لأي حق للطالبيين فيها[3] .

كما أن الشعراء عندما مدحوا الخلفاء خلعوا عليهم من الصفات ما هو مماثل لصفات الامام عند الشيعة ، ولو أنها لا تبلغ حد التأليه الواضح الذي نجده في مدائح ابن هانيء للخليفة الفاطمي .

لكنها على كل حال متفقة مع ما يرد في كتاب البراهين ، وتبدو بليغة في دلالتها رغم أننا لا نملك من مدائح الخلفاء الا نذراً يسيراً ، وهي تلك التي يحتويها ذلك الجزء من المقتبس لابن حيان والمتعلق بسنوات قليلة من خلافة الحكم . ويبرز في هذا المجال الشاعر محمد بن شخيص الذي ينعت الخليفة بالمهدي ويعلن التشيع الاموي كمذهب ورأي وذلك في مجال مديح هشام عندما كان وليا للعهد .

الا قل لمولاي الامام الذي غدا
أبــوه لمهـدي الائمـة منجبا

لعمري لقد صار التشيع والهوى
لنا في بني مروان رأيـا ومذهبا

---

(١) ترتيب المدارك ، ج ٣-٤ ، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣ .
(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٣) المقري ، النفح ، ج٣ ، ص ٢٦٦ .

ويقول برجعته ليقضي به الامر نهائيا ويسود العالم الاسلامي ، كما تقول أنباء الحدثان والملاحم :

هو العاشر الموجود في الكتب انه
يحم به الامر الذي قد تقربا
شواهده تبقى بحمل لوائه
الى بابل بعد المرور بيثربا

ويجعل نفس الشاعر للامام الشفاعة في الآخره ، كما هو الحال عند الشيعة الامامية من أن طاعة الامام من ضرورات الايمان :

وأشفع ما يحظيهما الطاعة التي
غدت في غداة البعث احدى الشوافع

كما أن نفس الشاعر يعبر عن قضية النص على امامة الامويين ، المماثل لمبدأ الشيعة الامامية المشهور (الامامة بالنص لا بالاختيار) ، لكنه يتجرأ هنا على الاشارة لنص من القرآن يفسره على أنه دليل على امامة الحكم والمؤيد ، وان ارفق اشارته بدليل على التردد ، وذلك بقوله :

يا ولاة الورى اصيخوا لقيل
انا فيه جبان جري
في تولي الامام وحي من الله
وعاه عن جبريل النبي
غير أن الذي يضاف له الاسـ
ـم الى الطاعة التقي الزكي[1]

ويلاحظ هنا أن التقي والزكي واردتان في القرآن الكريم كنعتين ليحيى وعيسى بن مريم[2] .

وحتى أصحاب الحكم بالاندلس تنسب الرواية اليهم بعض الاشعار

---

(١) انظر ابن حيان ، المقتبس تحقيق الحجي ، ص ٥٥ ؛ ٨٤ ؛ ٢٣١ .
(٢) القرآن الكريم ، الآية ١٣ و ١٩ من سورة مريم .

الدالة على العودة للسيطرة على المشرق ، كما تقول أنباء الملاحم الموجودة في كتاب البراهين على امامة الأمويين ، اذ يعزى للحاجب المنصور قوله[١] :

لي ديون بالشرق عند أناس
قد أحلوا بالمشعرين الحراما
ان قضوها نالوا الاماني والا
جعلوا دونها رقابا وهاما
عن قريب ترى خيول هشام
يبلغ النيل خطوها والشآما

كما أن قضية ضرورة النص لتولي خليفة من الخلفاء أضحت مرعية حتى أواخر أيام الخلافة الاموية في الاندلس ، فعندما عهد هشام المؤيد بولاية عهده لعبد الرحمن شنجول ، جاء في كتاب العهد أن الأثر قد نص على ذلك ، وهو الحديث المنسوب للرسول الكريم « لا تقوم الساعة حتى يظهر قحطاني يسوق العرب بعصاه » .

وأخيراً قد يقول قائل : كيف يمكن القول بأن خلفاء الأندلس ذوي علاقة ما بدعوة لامامتهم ضمنت مبادئها في كتب ككتاب البراهين على امامة الأمويين ، دون أن تكون في المؤلفات الأندلسية أي اشارة لوجودها ؟ وفي الواقع لا نجد اشارة لأمثال هذه الكتب عند كاتب أندلسي باستثناء ابن حزم الذي يشير لوجود نظرية حول النص في امامة الأمويين لكنه يجعل القائم بها شيخاً في منطقة فلسطين من بلاد الشام ، وربما كانت اشارته مأخوذة عن المسعودي [٢] .

انما يمكن قبول وجود علاقة للأمويين بكتب الدعوة وعدم وجود كتب عنها أو اشارة لها في كتب الأندلسيين ، اذا أخذنا بعين الاعتبار وضع الأندلس ذات المذهب الواحد مذهب أهل المدينة ، وحيث لا يمكن للخلفاء

(١) المقري ، النفح ، ج ١ ، ص ٣٨٣ .

(٢) ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

أن يعرضوا أمثال هذه الأفكار لأنها تتعارض مع آراء الفقهاء المنافحين على المذهب من ناحيتين : اولاهما قضية امامة علي وكونه رابع الخلفاء الراشدين وقد عبَّر أحد الفقهاء عن غضبته الصريحة عندما اطلع على أرجوزة ابن عبد ربه ، التي تنكر امامة علي • وسجل رأيه الغاضب وشتائمه للشاعر على نفس النسخة التي اطلع فيها على الأرجوزة ، وفيه يقول :

أوما علي لا برحت ملعناً ... يا ابن الخبيثة عندكم بامام
رب الكساء وخير آل محمد ... داني الولاء مقدّم الاسلام[(١)]

والقضية الثانية سيادة الرأي في الأندلس بأن الامامة ليست بالنص فقد وقف قاضي الجماعة في مناسبة أخرى في وجه المنصور بن أبي عامر منافحاً عن مبدأ الامامة في قريش ولكن حسب مبدأ الاختيار[(٢)] وهذا يتعارض مع القول بأن الامامة بالنص لا بالاختيار، المبدأ الشيعي والمبدأ المعتمد في كتاب الدعوة للأمويين •

ولعل أوضح دليل على علاقة الأمويين بكتاب الدعوة هذا ، هو أن كتبهم الى زعماء البربر الموالين لهم في شمال افريقيا ، وكذلك منشوراتهم الرسمية فيها ، تركّز على نفس أفكاره من تواتر النصوص الدالة على امامتهم وحلول ساعة ظهورهم • ويشير الرازي الى كتب ورسائل أولهم الناصر لدين الله ، الذي أنشىء كتاب الدعوة في زمنه ، بقوله : « كان الناصر لدين الله لا يكاد يخلي كتبه الى هؤلاء الأمراء المؤالفين له من أملاك البرابرة بأرض العدوة من ذكر طلبه لسلطان المشرق وقيامه في ارتجاع ما سلب آباؤه منه وتحمّله في الجواز الى ما هنالك للمقارعة عنه • وذكر تظاهر الروايات واجماع الآثار على أنه المرتجع له والتملّق لهؤلاء الملوك بأنهم أنصاره عليه ومقدمته في طلبه »[(٣)] •

---

(١) المقرّي ، النفح ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ •
(٢) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٧٦ـ٧٧ •
(٣) المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية في الرباط ، ورقة (١٢٢) •

الفصل الرابع

العلاقات مع الامبراطوريات المعاصرة

النشاط البحري ٠ ـ

وصل النشاط البحري للأندلس ، سواء المنبثق عن الدولة أو الصادر عن جماعات أخرى ذروته في عصر الخلافة ٠ وكان من جملة ما نتج عن هذا النشاط في مجالي الحرب والتوسع أو التجارة ونقل البضائع ، بروز الأندلس على مسرح السياسة الأوربية والبيزنطية ، اما كعدو يجب استخدام جميع الوسائل الحربية والدبلوماسية ضده ، أو كقوة يمكن التفاهم معها وحتى التحالف لتحقيق مصالح مشتركة ٠

ظلت الأخطار المحيقة بالأندلس من وراء البحر ، كما كانت في عصر الأمارة ، دافعاً يدفع الخلفاء للاهتمام بالبحرية ، فقد ظل خطر المجوس الذي كان دافعاً للأمراء في السابق للاهتمام بالاسطول ، قائماً كما كان قبلا وبرز واضحاً بشكل خاص خلال خلافة الحكم التي حدثت فيها ثلاث هجمات لهؤلاء المجوس على الشواطىء الأندلسية٠ولاح في الأفق بالاضافة اليه خطر آخر ، قد يكون أدهى وأمر ، لقرب قواعده من الأندلس ولسعة طموح أصحابه ، الذين لا يكتفون كالمجوس بغنيمة يحملونها معهم واسلاب يغتصبونها ، بل يرغبون بحكم البلد والاطاحة بحكامه ومذهبه وجعله جزءاً من دولتهم التي يعلنون أنها ستضم كل ديار الاسلام ٠ ويتجلى هذا الخطر بالفاطميين ، أصحاب افريقيا وصقلية المتوغلين في المغربين الأوسط والأقصى ، والذين يملكون اسطولا ضخماً تنتشر قواعده على شواطىء المغرب وصقلية ٠

أمام هذا الخطر المحدق لبى الخلفاء الضرورة الملحة للعناية بالبحرية فانشأوا القواعد ونشطوا في بناء الاسطول • شيد بأمر من عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ أو ٣٤٣ هـ / حصن منيع أمام المرأى الذي اتخذه العرب منذ أيام عبد الرحمن الأوسط عندما بدأت غارات المجوس،وبذلك قامت قاعدة المرية الهامة التي أضحت مقراً لأحد الأسطولين الرئيسيين في عصر الخلافة ، وهو اسطول المتوسط ، وأضحت اشبيلية بعد أمد قصير مقراً للاسطول الرئيسي الثاني ، أو اسطول بحر الظلمات ، وذلك عندما أمر المستنصر سنة ٣٥٦ هـ / بصنع سفن على هيئة سفن المجوس ، ولا يخفى أن هذه السفن أثبتت قدرتها على العمل في هذا البحر بشكل دائم ، بينما لم تستطع ذلك سفن الأندلسيين منذ أيام الأمير محمد • وقد أطلق العرب على سفن الأطلسي اسم القراقير،ووصفها أحد الجغرافيين بالقول « انها مراكب كبار بقلوع مربعة تجري أمامها والى خلفها »،وقد استخدم هذان الاسطولان معاً في بعض الأحيان ، كماهو الحال عند حرب الأدارسة في شمال المغرب خلال أيام الحكم • كما استخدم كل منهما على حدة في أحيان أخرى ، مثل استخدام المنصوراسطول المتوسط لنقل الجند في احدى غزواته لبرشلونة بعد ابتعاد الخطر الفاطمي ، كما استخدم اسطول بحر الظلمات لحمل الرجالة من جنده أثناء غزوة شنت ياقب • الى جانب هذا النشاط البحري الرسمي ، سارت بحرية جماعات الغزاة أو البحريين في خط نشاط مواز بلغ ذروته في عصر الخلافة • ويقدّم لنا الحميري الاشارة الوحيدة [١] في المصادر العربية عن أول مركز لهم ، انطلقت فعالياتهم منه في الأندلس • ويفهم من نصه أن البحريين جماعة من أوباش الأندلس ، لهم مراكب يرتادون بها الأمكنة الخالية وينتجعون البلاد ، منتهزين الفرص في المراكب اذا أمكنهم غازين سواحل افرنجة وغيرها • وقد مرّت عليهم ، أول أمرهم فترة كانوا فيها على وفاق مع الأمراء الأمويين ، مما مكنهم من انشاء قواعد

---

(١) الحميري ، الروض المعطار ، مخطوط عارف حكمت في المدينة المنورة ، ورقة ٤٤ •

ثابتة لهم في الأندلس ، كان أهمها في طرطوشة • وهو أمر يمكن فهمه جيداً وتعليله بملائمة المكان لغرضهم المطلوب واتفاق مصلحتهم مع مصلحة الأمير في نزولهم • ذلك لأن طرطوشة ثغر بحري ، تساعد اقامة جماعة بحرية فيه على توفير الحماية له ، كما هو الحال في الثغور البرية الأخرى التي قامت فيها اسر اقطاعية شبه مستقلة • كما تبدو ملائمة طرطوشة لغرض البحريين ، بشكل واضح في وضعها الطبيعي ، فهي قائمة على صخرة عظيمة سهلة الأعلى ، مما يجعلها منيعة أمام الهجمات البحرية • وفي الجبال المحيطة بها يكثر خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ كما أنه خشب أحمر صافي البشرة بعيد التغير لا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره من الخشب ، أي أن هذه الأشجار تقدم المادة الأولية اللازمة للصواري ولجسم السفن •

لم يستمر الوفاق أمداً طويلا بينهم وبين الأمير ، اذ لم يلبثوا أن انتهكوا حرمة بعض أملاكه ونالوا منها سبياً وعادوا الى ديدنهم في الترحل والتنقل على الشواطىء حتى أقاموا لأنفسهم قاعدة أخرى في بجانة في الجنوب • وكانت هذه على حد قول الحميري « أشرف قرى أرْش اليمن ، وانما سمي[1] لاقليم ارش اليمن، لأن بني أمية لما دخلوا الأندلس أنزلوا بني سراج القضاعيين في هذا الاقليم ، وجعلوا لهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل،فكان ما ضمنوا من مرسى كذا الى مرسى كذا يسمى أُرْش اليمن ، أي عطيتهم ونحلتهم[1] » •

وكان أول نزول البحريين في الشرق من هذا الاقليم وهو خلاء قفر ولاطفوا من بازائهم من العرب وأغروهم بتحف المشرق وخلائبه، وأوسعوهم براً فأذنوا لهم في النزول وانتشروا على وادي أرش اليمن على وجه التضييف والتجارة ، وأظهروا حسن المعاملة وأداء الطاعة ثم كثروا وتلاحق بهم من كان تخلف عنهم ، واشتدت شوكتهم وعظمت على تلك الناحية

(١) المرجع السابق ، القسم المطبوع ، ص ٣٧ •

مضرتهم حتى تغلبوا على مدينة بجانة ذاتها ، وطردوا عنها مشاهير عربها ومن تقدمت له رياسة بها وفرقوهم في البلاد . وكانت المدينة حسب قول العذري « حواير متفرقة الى أن سيطر عليها البحريون فابتنوها على هيئة مدينة قرطبة بعد أن استأذنوا الأمير محمد في ذلك ، ورغبوا أن يسجل لرجل منهم ويعقد له بالتأمير على ذلك » . وكان الأمير محمد آنذاك في وضع لا يمكنه معه من الرفض ، اذ كانت الحرب الأهلية قد بدأت شدتها بثورة عمر بن حفصون وابن مروان الجليقي فوافق سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م[١] لكن الحاكم الأول كان عربياً غسانياً حسب قول ابن عذاري[٢]، ولا نعلم على وجه الدقة ، متى أصبح الأمير منهم .

في السنة التي تولى فيها الأمير عبد الله طلبوا منه ، اقرار واليهم عليهم واعفاءهم من غيره واباحتهم البنيان حول قصبتهم بجانة لتكاثر الناس عندهم. ويظهر أن الدافع لطلب البنيان تزايد شدة الحرب الأهلية وانتشار الفوضى مما خلق ضرورة احاطة مدينتهم الغنية المغرية بحصون تدافع عنها.وعندما أجابهم الأمير الى ما سألوه بنوا عشرين حصناً[٣] . وأحسنوا مجاورة أهل بجانة وأظهروا العدل فيهم ، بعدما أساء عربها مجاورتهم وأكثروا الجور فيهم فتسامع الناس بأمرهم وما بسطوه من عدلهم في وقت كانت الأندلس فيه قد فقدت فيها السلطة المنظمة ، وأصبحت ممزقة بالحرب الأهلية بين عصابات المتمردين من عرب وبربر ومولدين على الأمير في كل مكان . ولاريب ان هؤلاء البحريين كانوا من المغاورين على بلاد الفرنجة ، ولكنهم تجار أيضاً في أماكن أخرى . لذلك كان الأمن والحفاظ على الملكية شيئاً أساسياً بالنسبة لهم . وقد حققه حاكم بحري منهم ، الى حد أصبحت فيه المدينة مضرب المثل في هذا المجال حتى شاع « ان المسافرين عندهم كانوا يضعون أمتعتهم ورحالهم بالأسواق والشوارع مطروحة بلا حارس فلايكاد

---

(١) يرد في المخطوط سنة ٣٧٦، وربما كان ذلك تصحيفاً ، لأن الأمير محمد توفي سنة ٣٧٢هـ .
(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق ملتشر ، ص ٥٣ .

يضيع شيء منها [1] ، لذا أمَّها الناس من الأقاليم القاصية والأقطار النائية وصارت حرماً لمن سكنها وأمناً لمن أوطنها . ونتيجة لاستبحار العمران وتعاظم الغنى فيها ، استيقظت أطماع سوار بن حمدون ، زعيم الجند العرب بألبيرة المجاور ، بها في سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م وتعلل بالدفاع عن حقوق العرب الغسانيين الذين تطاول عليهم جيرانهم البحريون واستخفوا بهم . وعندما نزل عليها استطاع البحريون أن يقنعوا الغسانيين بألا يكونوا معه ، وأن يطلب زعماؤهم منه ألا يتدخل فيما بينهم ، وهذا جعله على ما يظهر يدرك استحالة الانتصار على البحريين ما دام الغساسنة ليسوا معه . ولم يكن حظ ابن أضحى ، الذي تلاه في زعامة عرب البيرة ، بأفضل من حظه . اذ رافق نزوله عليها حلول حملة بحرية غازية من افرنجة بشواطئها ، فظن أن مدداً قد جاءهم ، ورحل عنها .

لم تكن طرطوشة وبعدها بجانة الا قاعدتين كبيرتين من قواعد البحريين ، وربما كانت تخص جماعة دون غيرها منهم . اذ كانت لهم قواعد أخرى على الشاطىء الشرقي للأندلس ينطلقون منها ، مثل دانية . كما أسسوا قواعد لهم في الشمال الافريقي في الوقت الذي كانت تزدهر فيه قواعدهم في الأندلس ، كتنس الحديثة التي أقامتها عام ٢٦٢ هـ / جماعتان من أهل تدمير والبيرة ، وكذلك وهران التي أعمرت عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م [2] وربما كانت غزواتهم من شمال افريقية تنطلق من مرسى الخرز التي يقول عنها البكري « منها كانت تخرج الشواني غازية الى بلاد الروم وجزيرتي سردانية وكورسيكا ، واليها كان يقصد الغزاة من كل أفق لأن مقطعها يقترب من جزيرة سردانية بينهما نحو مجريين » .

أما من القواعد الأندلسية ، فكان البحريون يغزون شواطىء برشلونة

---

(١) ابن حيان ، تحقيق ملتشر ، ص ٨٨ .

(٢) انظر : الجزء الاول من كتابنا ، دراسات في تاريخ الاندلس والمغرب ، ص ١٤٥ .

وما يليها الى الشمال من شواطىء غاليا وايطاليا [١]•ويرد أمراءهذهالمناطق بالهجوم على قواعد البحريين الأندلسية [٢] • ويذكر ابن حيان ، في معرض حديثه عن هجوم عرب البيرة على بجانة ، أن وصول الحملة وافق هجوم قومس انبوريش في خمسة عشر مركباً رست بساحل المرية ميناء بجانة فأحرقت كثيراً من مراكبهم وانتشرت بالغارة في تلك النواحي وقتل أحد أعلام البحريين[٣] •

التوسع في بروفانس • ـ

ويعود وجود الأندلسيين في البروفانس الى تلك السنوات التي تلت هزيمة بواتيه عام ١١٤ هـ / ٧٣٢ م • فمن المعروف أن شارل مارتللاحقهم بعدهـا حتى نهر الرون وشكّه بالحصون • ثم عاد لمحاربتهم عندما تحالف معهم كونت مرسيليا ولاحقهم حتى ايكس عام ١٢١ هـ / ٧٣٩ م، حيث انقسم المنهزمون الى قسمين أحدهما سار مع نهر دورانس حتىالألب واجتاز القسم الآخر طولون على الساحل ، واستمر في سيره ليتوقف عند الجبالالتي أصبحت تعرف بجبال المور نسبة الى Maure التي تعني المغربي أو المسلم عموماً • وعندما انسحب الفرنجة من مناطق بروفانس واكتفوا بالبقاء على الأرديش رافد الرون ، تسامح الزعيم البروفنسالي (موروننت) Mouronte بنزول الأندلسيين في الأراضي التي تخلى عنها الفرنجة ، لأن تلك القوى رغم هزيمتها ، تكون حاجزاً مانعاً ضد تهديد اللومبارديين في هذه المنطقة الحساسة لمجاورتها لمرسيلية •

ومع أن تغير الأوضاع بقيام امبراطورية شارلمان وضمه للومبارديا ، قد أزال الفائدة الأولى من وجودهم ، لا أنهم تركوا وشأنهم وربما كان مرد ذلك الى استقرارهم كفلاحين وعدم قيامهم بنشاط حربي •

---

(١) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٥٥ •

(٢) انظر امثلة عن هذه الغزوات ، في شكيب أرسلان : غزوات العرب •••، ص ١٥٠ـ١٥٥ •

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق ملتشق ، ص ٨٩ •

وبعد ما يزيد عن قرن على استقرار الأندلسيين الأول في البروفانس، أي في أواخر القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي، حدث توسع البحريين الأندلسيين الكبير. وهو أمر يبدو لأول وهلة غريباً، لأن هذه الفترة كانت فترة ضعف للأندلس بسبب الحرب الأهلية والثورة الشاملة على الأمير الأموي فيها. الا أن التعمق في أوضاع الأندلس آنذاك يؤدي للاقتناع بأن الضعف كان من نصيب قوى المركز في قرطبة والأمير الأموي. لكنها كانت فترة وصل فيها نشاط كل القوى المحلية الى ذروته، اذ تمكن بعضها من اقامة ما يشبه الدويلات المستقلة. وبرزت بين هذه القوى المحلية قوة البحريين الأندلسيين الذين أنشأوا قواعد كبرى لهم في هذه الفترة في شمال افريقيا وفي الأندلس، وذلك في نفس الفترة التي يحدد فيها لوتبراند نزولهم في بروفانس وانشائهم لقاعدتهم المشهورة فراكسينيت.

جرى النزول حسب قول المؤرخ المذكور بين عامي ٨٩١ و ٨٩٤ م/ ٢٧٨ – ٢٨١ هـ وأول جماعة نزلت كانت صغيرة العدد لا يتجاوز عدد أفرادها العشرين وبسبب ملاءمة المكان وانعدام المقاومة عند النزول فيه، أنهوا الخبر الى اخوانهم في الأندلس فلحقت بهم جماعة أخرى أوفر عدداً وأفضل عدّة. وأحاطت بهؤلاء الغزاة جميع الظروف الملائمة للتمركز والتحصن في مكان نزولهم ثم التوسع منه في جميع الجهات[1].

فالمكان الذي نزلوا فيه وهو خليج سان تروبّي حالياً « تحيط به أجمة اشبة بلغ من اشتباك سرحها أن الانسان لم يكن يجرؤ على الدخول فيها. وفي شمال الخليج تقع جبال المور، وهي عبارة عن مرتفعات متوالية مطردة الارتفاع فاذا ما وصل الانسان الى آخرها وأعلاها أشرف على قسم من بروفانس السفلى » وفي هذا المكان وفي النقطة التي يشرفون منها على منحدري الجبل والطرق المتجهة منه نحو الداخل، بنى البحريون أهم حصن لهم في المنطقة فراكسينيت في موقع قرية غارد فرينه Le Garde Freinet

(١) J. Lacam, les Sarrazins dans les haut Moyen Age Français, p. 100.

الحالية ، وقد ضمن موقعه لهم صعوبة الوصول اليه • كما أن قربه من البحر يجعل حصولهم على الامداد سهلا • وزادوا من مناعة موقعه ببناء الحصون والأبراج والخنادق في نواحي الجبل الأخرى • كما أنهم بنوا على الجانب الأخر من الخليج نقاط حراسة وأبراج انذار وقلبوا بذلك الخليج كله الى ميناء حصين قادر على ايواء اسطول كامل •

من هذه القاعدة التي تشمل الخليج وما حوله من حصون في البر توسع البحريون في المناطق المحيطة بهم مستفيدين من ظروف ملائمة متعددة فمنطقة البروفانس حيث نزلوا في جزء منها،استقلت اثر انقسام الامبراطورية الكارولنجية في وقت ساد فيه النظام الاقطاعي فزاد في التجزئة • واشتعلت الحرب بين أتباع بوزون أمير بروفانس المستقل وأتباع الكارولنجيين ، وبنفس الوقت ظل العداء مع اللومبارديين قائماً وهذا ما جعل أصحاب المنطقة في شغل شاغل عن البحريين الأندلسيين الذين كانوا أكثر قوة منهم سواء في البحر ، أو بوحدة صفهم ، أو بكون اعداد من المستقرين القدماء من أبناء جلدتهم ، وأخيراً بمهارتهم وتفوقهم في حرب غارات العصابات التي أتقنوها في الأندلس • كان أول نجاحهم بسط سيطرتهم على المنطقة المحيطة بقاعدتهم • الا أن سيطرتهم المباشرة كانت في الأرياف ، أما المدن فقد تركوا لها حكمها الذاتي ولم يتعرض للتخريب منها الا ميناء فريجوس ، ربما لأنه ينافس ميناء غريمو Gremaud الذي بنوه • ثم تخطى البحريون في غاراتهم منطقة بروفانس شرقاً وغرباً وشمالا ، فشملت كل الأراضي الواقعة بين نهري البو شرقاً والرون غرباً ، كما انساحوا ضمن مسافات واسعة في الشمال حتى وصلت بعض غزواتهم الى الرين • جرى جلّ هذه الغزوات في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري ، وأشهرها الاغارة على ايكس ومرسيلية ثم عبور مضائق الدوفيني أوائل هذا القرن واحتلال غرينوبل • كما اجتاحوا السافوى وحوض نهر فالوا Valois وفي نفس الفترة هوجمت نيس وبلاد البيمونت • ثم سيطر البحريون على

ممر سان بيرنار الشهير في جبال الألب حيث فرضوا الأتاوة على الحجاج الأوربيين الى روما وكان الطريق الطبيعي لأكثرهم،كذلك فرضوا الأتاوات على التجارات المارة به •

لكن هذه الغارات لم تكن مظفرة دوماً ، كما أن توسعهم لم يتم دون اثارة ردود أفعال من جانب أصحاب بروفانس ، خاصة عندما يصبحون في وضع يمكنهم من الرد • ففي عام ٩٢٦ م / ٣١٤ هـ أصبح هوغو صاحب بروفانس ملكاً على لومبارديا أيضاً ، وبذلك زالت حالة النزاع بين الدولتين الذي كان يستفيد منه البحريون ، وأصبح بالامكان توجيه قوتيهما ضدهم• لكن نزاع هوغو مع بطريق روما وتوجيه جهوده نحو حربه قلب الوضع الخطير على المغيرين الى فرصة سانحة لتوسعهم • الا أن اتساع نطاق غاراتهم وخاصة اكتساحهم لفريجوس عام ٣٢٩/٩٤٠ ، وما أثاره هذا العمل من استغاثة أتباع هوغو به جعله يقرر العمل ضدهم • وطلب من صهره الامبراطور البيزنطي أن يعمل ضدهم بحرياً بأسطوله القوي المجهز بالنار الاغريقية في الوقت الذي يهاجمهم هو فيه برياً من الشمال • وشُن الهجوم بعد سنتين أي عام ٣٣١/٩٤٢ ، وقطع على درب النجاح أشواطاً . فقد تمكن الاسطول البيزنطي من احراق سفن البحريين في موانئهم بخليج سان تروبي كما ضيق هوغو عليهم في البر واضطرهم للارتفاع الى حصنهم فراكسينيت حيث ضيق عليهم • وربما ساهم في انقاذهم ما ترامى الى سمعه عن المؤامرة التي حاكها ضده مركيز ايفريا Ivrea لانتزاع تاج لومبارديا منه • ومع أن المؤامرة كشفت وهرب صاحبها خوفاً على نفسه لكنه استطاع الوصول الى الامبراطور أوتون الكبير ، وهذا ما زاد من خطره على هوغو • فرأى أن يسالم العرب المسلمين عوضاً عن محاربتهم ، مقابل الاستفادة من امكانياتهم الحربية ضد عدوه • وهكذا عقد صلحاً معهم ينص على تعهدهم بالاشتراك معه في مدافعة عدوه ، وذلك احتلال منافذ الألب وشعابه بهدف انشاء دولة تكون حاجزاً بينه وبين هذا العدو • وكذلك بعدم التعرض للمسيحيين بسوء في بروفانس على الأقل •

كانت الفرصة المذكورة سابقاً هي الفرصة التي أفاد منهـا البحريون الأندلسيون ، وذلك بعدما فاتت فرصة أخرى يرجح أن يكون الأسطـول الأندلسي الرسمي قام بها لانقاذهم ، اذ يورد العذري أنه في شوال من سنة ٣٣١ غزا قادة بحريون بأسطول كبير من المرية عدته ثلاثون مركباً وستة شواني افرنجة وعندما كشفوها دارت عليهم ريح عاصفة فرقتهم[١] .

ومهما يكن من أمر ، فقد استطاع البحريون الخلاص من هذا الهجوم ونفّذوا من المعاهدة الشرط المتعلق بممرات الألب . لكنهم استمروا في الهجوم على المناطق التي تعهدوا قبلا بالكف عن الغارات فيها . لكن احتلالهم للمناطق الجديدة لم يكن طويل الأمد ، فقد أخرجهم أمـير ساكس من ممـر سان بيرنار عام ٩٥٠ م / ٣٣٩ وفي عام ٩٦٥/٣٥٤ فقدوا الدوفيني . وبعد ثلاث سنوات أمر الامبراطور أوتون الكبير الذي شملت سيادته منطقة البروفانس قائدين له باخراج الأندلسيين من المنطقة وخاصة من فراكسينيت ، بعـد أن فشلت مساعيه الدبلوماسية لدى عبدالرحمن الثالث لتحقيق هذه الغاية . وفي نفس العام أصبح غليوم الأول بن بوزون الثاني دوقاً لبروفانس وانضم الى صف الامبراطور . وربما دفعه الى ذلك ضغط عام من شعب بروفانس ، الذي أثار حماسه رئيس دير كلوني بدعوته لحرب صليبية تخرج الأندلسيين وكان هؤلاء قد أسروه أثناء عودته من رحلة لايطاليا ووجـه دعوته هـــذه عقب خلاصه من الأسر .

استجاب غليوم لنداءات رئيس الدير المتكررة ، وعهد لجيبلين دي غريمالدي Gibelin de Grimaldi بقيادة الجيش المكلف بالمهمة . هاجـم هذا الجيش بروفانس من الشمال والشرق ، وأحاط بالقوات الأندلسية في بروفانس العليا وجعلهـا ترتد الى الجنوب ، حيث حصلت موقعة فاصلة في تورتور Tortour ، كـانت نتيجتهـا لصالح البروفنسيـين الذين لاحقـوا

---

(١) العذري ، ترصيع الأخبار ، ص ٨١ . العبادي ، دراسات في تاريخ الأندلس والمغرب ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

الأندلسين حتى حصنهم الرئيسي فراكسينيت • ويظهر أن المقاومة كانت ضارية ، بدليل استمرار الحصار للحصن مدة سنتين ، نزل المهاجمون خلالها من مرتفع مجاور • ومع ذلك فان السقوط عام ٩٧٣ م / ٣٦٣ هـ ، لم يحدث ـ على حد زعم الرواية وهي رواية أعداء ـ الا بالخيانة ، اذ أدخل أحد أصحاب المواقع المتقدمة بعض جند المهاجمين للحصن الرئيسي انتقاماً لاغتصاب قائده لزوجته الحسناء • تلا ذلك طرد بعض الأندلسيين الى البحر بينما استعبد القسم الآخر ، وانتهى على هذا الشكل الوجود العربي في بروفانس بعد أن عاش قرابة قرنين من الزمان •

التراث الحضاري الاندلسي في بروفانس • ـ

لم يعترف الخلفاء الأمويون في الأندلس بوجود علاقة لهم بنشاطات البحريين الأندلسيين في أراضي الفرنجة ، وأنكروا أي سلطان عليهم • ونجد صدى لهذا الموقف الرسمي في أعمال المؤرخين الأندلسيين ، أو على الأقل فيما بقي لنا من كتابات هؤلاء ، اذ لا نجد فيه أي ذكر لأعمال هؤلاء البحريين ومآثرهم ، رغم كونها مجيدة من ناحية سياسية ، وقياماً بفريضة الجهاد من ناحية دينية •

وربما يكون الاستثناء الوحيد لذلك ، الاشارة التي ترد عند الجغرافيين المشرقيين ، الاصطخري وابن حوقل ، لجبل القلال ، الذي يرجح أن يكون مكان قاعدة فراكسينيت • لأن الاصطخري يصفه قائلاً انه « جبل فيه ماء خرارة فوقع اليه قوم من المسلمين وعمروه وصاروا في وجوه الافرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم [(١)] » ، ويقول ابن حوقل « ولجبل القلال الذي بنواحي افرنجة بأيدي المجاهدين عمارة وحرث ومياه وأراض تقوت من لجأ اليهم ، فلما وقع اليه المسلمون عمروه وصاروا في وجوه الافرنجة والوصول اليهم ممتنع لأنهم يسكنون في وجه الجبل فلا طريق اليهم ولا

---

(١) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٥١ •

متسلق عليهم الا من جهة هم فيها آمنون ، ومقداره في الطول يومين[1] ، ومما يجعل المرء يرجح كون جبل القلال هو قاعدة فراكسينيت ، ان القلال تعني التلال المتدرجة ، كما أن الوصف يجعل أعلى التلال في وجه الفرنجة وهذا هو حال القاعدة أيضاً .

ومع ذلك فان الاشارتين عبارة عن اشارتين جغرافيتين فقط . أما أخبار وأعمال البحريين ، فيبقى مصدرنا الوحيد عنها المصادر الأوربية المعاصرة لهم ، ككتابات المؤرخين ومرويات الأديرة ، وكلها مصادر من جانب واحد ومعاد ، لا تتسع الا لذكر أعمال التخريب والقتل ونهب الكنائس والأديرة ، والتفنن في المكر لابتزاز الأموال كفدية للشخصيات . كما يتجلى ذلك في حادثة رولان رئيس أساقفة آرل الذي أسره البحريون الأندلسيون سنة ٨٦٠ م/٢٤٦ هـ وساقوه الى أحد مراكبهم ، وطلبوا فيه فدية كبيرة . ورضي أهل آرل بتقديم هذه الفدية ، وأخذوا في جمعها لانقاذ أسقفهم ، ولكن حدث في أثناء ذلك أن مات الأسقف وهو لا يزال أسيراً ، فكتم الأندلسيون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التي طلبوها ، أخرجوا جثة الأسقف الى البر ، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عندما كان حياً وأجلسوه على مقعد مرتفع . وكان المسيحيون قد جاءوا جمعاً عظيما لتهنئة الأسقف بالخلاص ، فلم يجدوا سوى جثة هامدة وتحول فرحهم مأتماً[2] .

أما الأعمال الايجابية والحضارية ، فمن الطبيعي أن تمتنع هذه المصادر المعادية عن ذكرها ، وبالتالي لم يبق من شواهد عليها سوى الآثار المادية والدلائل الفلولوجية وبعض العادات الاجتماعية ، ورغم صدق هذه الدلائل الا أنها لا يمكن أن تدل الا على النذر اليسير من الحضارة التي كانت قائمة .

في مجال العمران كشف المنقبون الأثريون عن أشكال مختلفة منه ،

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٨٤ .
(٢) شكيب ارسلان ، غزوات العرب ... ص ١٥٩ .

تبرز منها الأبنية ذات المنفعة الاقتصادية والعسكرية كقنوات الري والطرق والخنادق والأبراج ، وهذا يعني أن البحريين الأندلسيين بنوا عدا عن القواعد الرئيسية ، أبراجاً وحصوناً في أمكنة منيعة تشرف على منحدر أو مدخل واد ، وذلك لحراسة الطرق أو السيطرة عليها ، وربما كانت الأبراج تستخدم كمخازن أيضاً ونقاط انذار ، بالنار ليلا والدخان نهاراً عند حلول خطر أو اقتراب عدو . أما الأبنية الدينية ، فما اكتشف منها ، اضافة لجامع نربونه ، لا يتعدى مجموعة من الرباطات[1] .

ويلاحظ أن جميع هذه الأبنية أفقر بالتزيينات وأدنى في المستوى الفني من أبنية الأندلس ، وهذا أمر طبيعي ، لأن الجماعات الاسلامية التي أقامت لأمد طويل نسبياً في البروفانس ، كانت مجموعات زراع أغلبها من البربر وتعيش في بيئة فقيرة لسيطرة الغابات آنذاك على الأرض . ومن نزلوا في هذه المنطقة آخر الأمر من البحريين ، الذين توفر لهم الغنى من مصادر متعددة ، عاشوا بعيداً عن المدن ، وقضوا حياتهم في الحروب والغارات من جهة ، ولم تطل اقامتهم ، من جهة ثانية ، الى الحد الذي يوفر لهم الوقت اللازم لادخال التحسينات واضافة العناصر التجميلية لأبنيتهم. ومن المعروف أن أبنية الأندلس الفخمة والجميلة ، غالباً ما كانت من عمل عدة أمراء أو خلفاء خلال فترة طويلة من الزمن نسبياً ، وكانت مجالا للتوسيع والتجميل خلال الفترات المتعاقبة .

ومع ذلك فان ما كشفت عنه الحفريات الأثرية ، وحتى ما يمكن أن تكشفه فيمابعد ، لا يمكن أن يعطي الصورة الكاملة لعمران هؤلاء البحريين لأن أبنيتهم قد تعرضت ، على ما يرجح ، لتخريب منظم مقصود بعد اخراجهم كما أن بعض العناصر المعمارية فيها ، قد نقلت واستخدمت في أبنية أخرى.

أما في مجال الصناعة فقد أسهم المسلمون الذين أقاموا في البروفانس والبحريون في ترقية بعض الصناعات ، مثل استخراج القطران من شجر

(١) J. Lacam, Les Sarrazins ...., p. 191.

الصنوبر والبلوط الذي يكثـر في المنطقة • وكانوا يستخدمونه في قلفطة السفن ، ولا تخفى أهميته لذلك بالنسبة للبحريـين الذين كانوا يحتفظون بأسطول في خليج سان تروبتي • وتبدو علاقة هذه الصناعة بالعرب في تلك المنطقة واضحة باستخدام أهلها لكلمة القطران العربية بدلا من Goudron الفرنسية • كما أنهم استخدموا صمغ الصنوبر لاستخراج القار الذي أصبح عنصراً من عناصر المزيج المكوّن لمقذوفات النار الأغريقية •

وكانت الأراضي حول قاعدتهـم فراكسينيت غنية بالمعادن ، وتعزو الروايات المحلية الى العرب تطوير استثمارها ، وأشهر ما استثمروه كبريت الرصاص (الغالين) سلفور الرصاص Alquifoux كما استخرجوا الحديد من أماكـن أخرى وحوّلوا مـا استثمروه مـن المعادن الى أدوات وأسلحة وآلات زراعية[1] • كما يعزي الى الأندلسيين اصلاح جنس الخيل في فرنسة • ذلك لأنهم كانوا يأتون على سفنهم بالجياد العراب ليتسنى لهم عليها بث الغارات في داخل البلاد ، فبقي جنسها في فرنسا من ذلك الوقت والآن يوجد صنف من الخيل في مقاطعة كامرغ متولد من ازدواج الخيل الأندلسية لخيول تلك المقاطعـة[2] •

وتعتبر الروايات المحلية أن أنواعاً من الرقصات أو المواكب في جنوب فرنسا هي من بقايا الوجود العربي هناك • منها رقصة الفاكهة التي يرقص فيها شاب بين فتاتين وفي أثناء رقصته يقدم فاكهة تارة الى هـذه وطوراً الى تلك • وكـذلك تلك الرقصـة التي يقف فيهـا الراقصون خطـاً ، بازاء الراقصات خطاً ثم يشتبك أحدهما بالآخر والشخص الذي يكون على رأس كل من الخطين يعمل اشارات يقتدي بها الآخرون • وهناك رقصةعسكرية يرقص فيها اثنان كل منهما يتقلد سيفاً يحاول به طعن الآخر • وعـدا عن هذه رقصة تعرف بالموريسيكية ، يعبر فيها الراقصون الشوارع في صف وهم

---

(١) J. Lacam, Les Sarrazins ...., p. 142, 149-150.

(٢) شكيب ارسلان ، غزوات العرب .... ص ٢٣٨ •

يقفزون ويتوقفون من وقت لآخر ليتعاطوا الشراب • أما الموكب الذي ترجع نشأته الى الوجود الاسلامي هناك فهو موكب التحدّي ال « Bravade » ويبدأ بسير مجموعة من الرجال ، منهم خيالة ومنهم رجالة ، مع بقايا قديس لحراستها ، ويصل بعدها أتراك برفقة السلطان الكبير وكبار وزرائه ويجرون خلفهم عبيداً مكبلين بالأغلال ، وفي النهاية تأتي جماعات بأزياء متنوعة من أزياء الجند ليحيوا البقايا باطلاق نار البنادق بغزارة • ولاريب ان هذا الموكب كما يدل عليه اسمه « التحدي » يرمز الى حث رجال الدين المحليين لرعاياهم لتحدي منع السلطة الاسلامية للاشتراك في المواكب الدينية، وخاصة تلك التي يرافقها تقديس لبقايا القديسين لأنهم يعتبرون تقديس البقايا مظهراً من مظاهر الوثنية [١] •

العلاقات مع بيزنطة • ـ

عادت العلاقات الدبلوماسية الى النشاط من جديد بين بيزنطة والاندلس ويمكن تعليل استئنافها ونشاطها بأمور متعددة منها : ان الطرفين يواجهان عدواً مشتركاً يتمثل بالفاطميين اسياد شمال افريقيا وصقلية ، وقد وصل خطرهم على املاك الدولتين الى ذروته عند استئناف هذه العلاقات • كما ان النشاط البحري للفاطميين الذي صار يهدد الوجود البيزنطي بجنوب ايطاليا توافق مع وجود الأسرة المكدونية على الحكم التي اعتبرت هذا الوجود عنصراً أساسياً من عناصر سياسة دولتهم الخارجية [٢] • وغدا تعاون القوتين البحريتين البيزنطية والأندلسية في وجه هذا الخطر أمراً مرغوباً فيه من قبل البيزنطيين • يضاف الى ذلك تشابه الميول العلمية بين الامبراطور البيزنطي والامير ولي العهد الاندلسي • اذ تربع على عرش بيزنطة آنذاك قسطنطين السابع ٩١٢/ ٩٥٩ م ٣٠٠ ـ ٣٤٨ هـ ، وسرعان ما ترك شؤون الحكم لحميه رومانوس ليكابينو ، الذي اتخذ اول الامر لقب والد الامبراطور ثم شريك الامبراطور وصرّف شؤون الدولة ، بينما اكب الامبراطور على تنفيذ مشروعاته الفكرية ،

---

(١) J. Lacam, Les Sarrazins, p. 201-202 .

(٢) Dihel, Grandeza ...., p. 162 .

التي كان منها لمّ شتات المجموعات الثمينة من ثمرات الثقافة اليونانية ، التي اوشكت على الضياع ، وكذلك الاهتمام بشؤون الجامعة في القسطنطينية[1] .

وفي هذه الفترة بالذات كان الحكم ابن الخليفة ، الذي ولي العهد منذ سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م[2] قد بلغ سن النضج وشارك والـده في ادارة شؤون الدولة ، في الوقت الذي أخذ على عاتقه قيادة الحركة الفكرية في الاندلس ، التي أضحت على درجة من النضج جعلتها لا تقنع بما تأخذه من المشرق على علاته ، بل صارت تأخذه أخذ الناقد ، وهذا ما قادها الى البحث عن اصول الثقافات القديمة لا الاكتفاء بالاطلاع على الترجمات المشرقية لها . ولا يخفى ان بيزنطة كانت عامرة بهـذه الأصول وامبراطورها يولي نفس الموضـوع عناية فائقة .

واذا كان من السهل تعليل استئناف نشاط العلاقات بين الدولتين ، إلا انه من الصعب تحديد صاحب المبادهة بها والمباشر لها . وعلى نفس المستوى من الصعوبة تحديد تفصيلات المناقشات والاتفاقات بين الطرفين .

ضمن هذا الاعتبار ، تنفرد الروايات العربية بذكر وصول عدد مـن السفارات البيزنطية الى قرطبة ، رد عليها البلاط الخلافي بسفارة مماثلـة . وردت اولى هذه السفارات سنة ٣٣٧ هـ/[3]. وفي صفر من عام ٣٣٨ هـ/ آب ٩٤٩ م استقبلت في قرطبة سفارة بيزنطية بحفاوة ووسط مظاهر الفخامة والابهة وعرض القوة ، ويظهر انها نفس السفارة التي التقى في طريق عودته منها الخصي سلمون بلوتبراند في البندقية ، ووصلت سفارة الرد القرطبية الى بيزنطة في ٢٤ تشرين الاول من نفس العام[4] . ويعطي ابن حيان وصفاً مفصلا لكيفية استقبال هذه السفارة ، وترتيبات مرافقتها منذ نزولها على ارض الأندلس حتى حلولها في معية ولي العهد الحكم ، ثم استقبال الناصر لهـا ، كما يصف الكتاب الوارد من الامبراطور وشريكه .

---

(١) Karl Roth, El Imperio Pizantino, p. 79 - 80 .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص

(٣) يجعل ابن خلدون في تاريخـه ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ، تاريخ هـذه السفارة قبل عامين

(٤) Levi Provençal, Histoire ...., vol. II, p. 149-150 .

وفي اثناء تبادل هذه السفارات حملت من القسطنطينية الى قرطبة هدايا ثمينة من الكتب ، كان احدهما كتاب الحشائش لديسقوريدس ، وقد كانت له بالأندلس ترجمة مشرقية غير كاملة ، اذ ترك صاحبها اسم ما لم يعرف له مرادفاً أو عينا من المواد الطبيــة لمن يأتي بعده • وكــان بعض الاندلسيــين يجتهدون في القيام بهذه المهمة ، وقد اسدى لهم وصول الكتاب خدمة جليلة خاصــة وأن ملك القسطنطينيــة أرسل راهبــاً من لدنــه يعرف الاغريقيــة واللاتينية[١] • ومن الكتب المشهــورة التي وصلت ، كتــاب هروشيش في الاخبار ، وكان لاتينيا فترجم للحكم ايام ولايته للعهد زمن ابيه ، واستفاد منه المؤرخون في المغرب الاسلامي ، حتى اولئك الذين عاشوا في الفترات المتأخرة كابن خلدون[٢] •

كذلك نقلت هذه السفارات على سبيل الهدية، آثاراً فنية قيمة استخدمت في الزهراء • واهمها مائة واربعون سارية • وكذلك حوض غريب منقوش مذهب التماثيل اثمن من كل قيمة ، حسب قول ابن عذارى[٣] •

وقد استمرت هذه السفارات البيزنطية في الورود على قرطبة بعد وفاة الناصر ، لكن ما نملكه عنها من اخبار لا يتعدى اشارات مقتضبة في المصادر العربية تقتصر على ذكر تاريخ وصولهم • كتلك السفارة التي وصلت في **٢٣** جمادى الاولى سنة **٣٦١** هـ / **١٣** آذار سنة **٩٧٢** من قبل الامبراطور يوحنا تزيمسكيس • كما ان ابن بسام ينقل عن ابن حيان وصول سفــارة أخرى للمظفر العامري،وافته بمدينة سالم ومعها كتاب الامبراطور « يسأله المواصلة على سبيل سلفه مع ملوك الروانية • وساق له هدية وعدة من اســـاري الأندلس ظهر عليهم بأطراف جزائره البحرية »[٤] •

---

(١) أنظر : ابن أبي أصيبعة ، ج ٢ ، ص ٤٨ • صاعــد الطليطلي ، طبقات الأمم ، ص ٢٥ • المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٤٦ •

(٢) أنظر عن محتوى هذا الكتاب ، حسين مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون ••• ص ٣٠ـ٣٩ •

(٣) ابن عــذاري ، ج ٢ ، ص ٢٣١ •

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ـ المجلد الاول ، ص ٦٥ـ٦٦ •

العلاقات مع الامبراطور اوتون الكبير • ـ

تقتصر اشارة المصادر العربية لهذه العلاقات على مجرد ذكر لوصول سفارة اوتون الكبير ، ويبقى مصدرنا الاساسي عن هذه العلاقات ، حياة جون راهب غورز ، الذي قام بمهام اهم سفارة من اوتون الكبير الى بلاط عبد الرحمن الناصر لدين الله • ويذكر هذا ان سفارة قرطبية وصلت في البداية الى بلاط أوتون عام ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م واستقبلت بعرض مظاهر الأبهة والفخامة التي تتناسب مع وضع ملك عظيم كاوتون • ثم احتجزت هذه السفارة مدة تقرب من ثلاث سنوات • أما ما يذكره هذا الراهب عن دوافع ارسال هذه السفارة ، فيبدو غير معقول ، إذ يعزو المبادهة في الاتصال لعبد الرحمن الناصر مدفوعا لذلك بتأثره بعظمة ملك اوتون وانتصاراته التي حققها على شعوب متعددة • ولكن المرء يقف حائرا امام مصلحة العاهل القرطبي في هذا الاتصال ، اذ لا توجد حدود مشتركة معه ، ولا مع اعداء للامويين يمكن ان يسفر الاتصال معه من تحقيق تحالف ضد هؤلاءالاعداء• ثم ان الرواية تحتوي في ثناياها على ما يضعفها • اذ تقول انها حوت تحقيراً للمسيح ، وهذا غير معقول ، لا لاحترام المسلمين للمسيح فقط ، ولكن لان ذلك يتناقض مع الغاية المبتغاه من السفارة • ويدل على جهل وقلة خبرة بالوسائل الدبلوماسية ، وهو أمر يصعب تصديقه بسبب خبرة البلاط الاموي منذ عهد عبد الرحمن الثاني بالاتصالات الدبلوماسية مع ملوك مسيحيين • لكل ذلك ، يمكن الافتراض بأن سفارة قرطبة هذه ، كانت رداً لسفارة من أوتون ، لأنه صاحب المصلحة في هذا الاتصال ، لاعتقاده ، كما تنص على ذلك الرواية ، بأن المسيطرين في فروكسينيت رعايا لصاحب الأندلس وتكون غاية اتصاله،الطلب منعبدالرحمن الناصر سحبهم أو علىالأقلأمرهم بالكف عن الغارات ، وربما كان احتجازها نتيجة لحملها جواباً غير مرض •

ومهما يكن من أمر ، فان منالثابت توجه سفارةلأوتون نحو قرطبة ترأسها الراهب جون من دير غورز ، وضمت بين أعضائها شخصاً من

فردان لمعرفته بالأندلس • ولا يخفى أن فردان كانت مركزاً من مراكـز تجارة العبيد ، ومنها كانوا يحملون الى الأندلس ، ووصلت هذه السفارة عام ٣٤٢ هـ / حسب قول ابن عذاري [١] ، فأنزلت في مكان قريب من كنيسة وسمح لأعضائهـا بالخروج لأداء طقوسهم الدينية أيام الأحـد والمناسبات الأخرى لكن مثولهم أمام الخليفة تعثـر ، بسبب مـا وصل الى مسامعه من احتواء الرسالة على انتقـاد لسياسته واهانة للرسول الكريم • وقد نقل اليه ذلك شخص كان مع السفارة ثم انفصل عنها • وقد أرسل البلاط للسفراء حسداي بن شبروط أولا ، ثم ربيع بن زيد فيما بعد ، للتأكد من محتويات الرسالة قبل تقديمها ، وعندما رفض السفير عرضها الا على الخليفة ، اقتُرح عليه حل ثان ، وهو الاكتفاء ، عند مثوله أمـام الخليفة ، بتقديم الهدايا دون الرسالة فرفض أيضاً •

وأخيراً تم الاتفاق على أن يرسل الخليفة سفارة الى اوتون يعرض عليه تغيير سفارته أو تغيير الرسالة التي تحملها • واختير لأداء هذه المهمة الأسقف المستعرب ربيع بن زيد ، الذي كان يدعى بين بني قومـه باسم ريسموندو ، فاستقبله الامبراطور في بلاطه في فرانكفورت ، وأوفد دودو من فردان ومعه رسالة معتدلة للخليفة وتعليمات جديدة لسفارته الأولى • وبذلك زالت العثرة التي منعت من استقبال الخليفة لراهب غورز ، وتمت المقابلة بعد مضي ثلاث سنوات عـلى اقامته في قرطبة ، وبعد التغلب عـلى عائق جديد ناتج عن كون حالة الراهب مزرية الى حد لا يليق بمثوله أمام الخليفة ، فطلب منه أن يقص شعره ويغتسل ووهبـه البلاط كمية مـن الفضة كي ينفقها على تجهيز نفسه • لكنه تصدّق بها على الفقراء وأعلن عن اصراره على عدم المثول أمام الخليفة الا بثياب الدير وبحالته الراهنة • وعندما عرض الأمر على الخليفة وافق •

انصبت تعليمات الامبراطور الى سفارته على تحقيق غايتين معالخليفة همـا : عقد الصداقة وايقاف غارات الغزاة البحريين (الذين يدعوهـم

(١) ابن عـذاري ، ج ٢ ، ص ٢١٨ •

المصدر باسم القراصنة المسلمين)•ومع أن المصدر لا يذكر جواب الخليفة انما يمكن تخمينه بسهولة ، وهو : ان الغزاة مستقلين فعلياً عـن سلطان الخليفة وهو غير قادر على فرض طاعته عليهم وبهذا لم تتحقق الغاية المبتغاة من السفارة ولم يخرج البحريون من البروفانس الا بالقوة ، وتبقى نتائج هذه السفارة هامة في المجال الفكري • فمن ناحية أسهمت في تقديم معرفة أفضل لبلاط الخليفة عن أوضاع الامبراطورية،وهو أمر كان الأندلسيون يهدفون اليه ، بدليل مـا يرد في النص عن رحلـة الراهب غورز من أن الخليفة في جلساته مع السفير كان يسأله عن « سلطان ومؤهلات الامبراطور عن عدد جيشه وقوته ، عن ثروته وطرق حربه وانتصاراته التي أحرزها وعن أمور أخرى من هذا النوع » • لكن الأثر الفكري في الجانب الآخر كان أعظم • فربيع بن زيد لقي المؤرخ المشهور للعصر الوسيط لوتبرانـد وحثه على وضع كتابـه في تاريخ الفتـرة • كما أن البعض معتمداً عـلى الاستنتاج على الدلائل الصريحة ، يرى أن منطقة اللورين ، انقلبت بفضل تجارة العبيد في النصف الثاني من القرن العاشر ، أي بعد عودة السفارة، الى منطقة نمت فيها وترعرعت بذور الثقافة العربية ومنهـا اشعت المعرفـة الى أنحاء أخـرى من المانيا وفرنسا وانكلترا • نظـراً لأن هـذه المنطقة ذات اتصال قديم بالأندلس بسبب تجارة العبيد ، كما أن رئيس السفارة كان رجل فكـر وقد اتصل في الأندلس أثناء اقامته التي استمرت حوالي ثلاث سنوات برجال أندلسيين كبار • كما لا يمكن تصور بقائه هذه المدة الطويلة دون اطلاعه واقتباسه من الوسط الفكري المحيط به ، ولا يستبعد أيضـاً حمله الكتب ذلك لأنه أحضر في سفارة سابقة له الى ايطاليا كتبـاً لأرسطو الى ديره (١) •

---

(١) عن العلاقات مع اوتون انظر :

A. A. El-Hajji, Andalusian Diplomatic Relations with western Europe, p. 210-227.

D. M. Dunlop, Arabic science in the west, p. 25-28.

وكذلك ترجمة شكيب ارسلان لكتاب رينو، بعنوان : غزوات العرب•••، ص ١٧٧ـ١٨٢ـ

الفصل الخامس

النشاط العمراني والثقافي

لازم الهدوء الداخلي واستقرار السلطة في الفترات الماضية من تاريخ الأندلس نشاط عمراني بشكل دائم ، فمن الطبيعي والحالة هذه أن يبلغ هذا النشاط أوجه في عصر الخلافة بسبب استقرار السلطان ووفرة المال في خزائن الدولة وخزائن الخلفاء بعد أن أصبحت كل نواحي الأندلس خاضعة لهم ، وجبايتها ، التي تعاظمت بفضل الازدهار الاقتصادي ، تصب في بيوت أموالهم . ونجد مظاهر هذا النشاط في عمران الحصون والمعاقل ودور الصناعة في أنحاء الأندلس المختلفة . وكذلك في انشاء المساجد ، وبشكل خاص التوسيع المتكرّر لمسجد قرطبة . وكذلك اقامة المدن الملكية بجوار العاصمة وسنتوقف هنا عند كل أثر من الآثار الثلاثة الأكثر أهمية .

مسجد قرطبة .

ظلّ المسلمون الأندلسيون طيلة ما يقارب الأربعين سنة بعد الفتح وليس بين مساجدهم ما يكفي لايواء جميع النازلين منهم في قرطبة العاصمة لذلك كانوا يقيمون صلاة جمعهم في العراء ، اذ اتخذوا كمصلى لهم سهل المنطقة المعروفة باسم المصاره ، خارج الأسوار وخلف النهر في منطقة الجسر . وفي ظل حكم يوسف القهري ، آخر ولاة الأندلس ، أخذوا كنيسة سنت بجنت (San vicente) القوطية ، التي كانت حسب افتراض البعض جزءاً من دير مسيحي قائم بمواجهة قصر الامارة . ويقول الرازي أنها نصف هذا الدير ، الذي اشترط المسلمون تسليمه عند الفتح . لكن

التأخر مدة أربعين سنة لتسلم هذا النصف يدعو للظن بأن هناك عاملا آخراً ، وراء أخذه في هذا الوقت ، وهو دخول أناس من أهل البلد في الدين الجديد ، الأمر الذي جعل أخذ نصف مكان العبادة السابق أمراً منطقياً .

ومهما يكن من أمر الذريعة التي تذرع بها الفاتحون لأخذ هذه الكنيسة ، فانهم اتخذوها مسجداً بعد أن حوروا قليلا في داخلها لتتلائم مع مقتضيات العبادة الاسلامية . فأزالوا منها المذابح وأقاموا محراباً في منتصف جدار القبلة ، وحوّروا برجاً قائماً بالقرب من قصر الامارة ليصبح صومعة أو مأذنة . وبعدما أصبحت قرطبة مركزاً لدولة مستقلة واسعة ، وتكاثر سكانها ضاق المسجد بهم فبنيت فيه السقائف التي ضاعفت من اتساعه ، لكنها أبقت ما بينها وبين الأرض ، وما بينها وبين السقف منخفضاً لدرجة لا تكفي لوقوف حتى معتدلي القامة منهم على اقدامهم . هذه الضرورة ، مع ما توفر للامارة الأموية الجديدة في قرطبة من توطد للحكم وسيطرة فعلية تكاد تكون تامة على شبه الجزيرة الايبيرية مع مواردها ، والرغبة في اتخاذ دار عامة للعبادة تليق بمركز الامارة ، كل ذلك دفع عبد الرحمن الداخل ، بعد مضي ثلاثين سنة على بداية حكمه، لبناء مسجد جامع يحقق الغاية ويتناسب مع مركز عاصمة الدولة . فاستدعى أعاظم النصارى وعرض عليهم بيع ما بأيديهم من الدير مقابل مائة ألف دينار . وتردد هؤلاء في قبول العرض ، ثم قبلوا اعطاءه هذا النصف مقابل السماح لهم باعادة بناء كنائسهم التي هدمت لهم خارج أسوار المدينة . تم هذا الاتفاق عام ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م وعند ذلك أمر عبد الرحمن الداخل بهدم القسمين من الكنيسة العظمى ، ما اتخذ منها في السابق مسجداً ، والقسم الجديد وأمر بالبناء على أرضهما .

اكتمل البناء بعد سنتين ، ويمكن تفسير هذه السرعة في الانجاز،بكون العناصر الأساسية لهذه العمارة من أعمدة وتيجانها وأحجار منحوتة ، قد

أخذت جاهزة من أبنية قوطية ورومانية • وأضاف هشام الرضا خليفة عبد الرحمن الداخل ، لهذا البناء صومعة وميدعة وسقيفة • وقد دلت الحفريات التي جرت منذ أكثر من ربع قرن على أن المسجد الذي بناه عبد الرحمن الداخل ، عبارة عن بناء مربع الشكل تقريباً يصل طول ضلعه الى (٧٥ م) ويقسم من الشمال الى الجنوب الى قسمين متساويين في الطول والعمق ، القطاع الجنوبي منهما مصلّى والقطاع الشمالي صحناً • ويتألف المصلى من احدى عشرة بلاطة تتجه من الجنوب الى الشمال ، ويفصل بينها صفوف من الأعمدة مع أقواس مزدوجة • وفي أقصى جنوب البلاطة المحورية ، وهي أوسع البلاطات ، يوجد المحراب •

وفي زمن عبدالرحمن الثاني دفع ازدياد السكان بقرطبة بهذا الأمير لبناء زيادات في المسجد بغية زيادة الراحة والسعة فيه • وهكذا أنشأ في الصحن سقيفتين احداهما في الشرق والثانية في الغرب ، وتناظرت بذلك مع سقيفة هشام التي بنيت في الوسط من جهة القبلة • ثم بنى سقيفة أخرى في وسط النهاية الشمالية للصحن ، وبذلك أحيط الصحن من جميع جوانبه بالسقائف المخصصة لصلاة النساء •

ثم وسع عبدالرحمن الثاني المصلى من جهة القبلة بابعاد جدارها مسافة (٢٦،٦ م) ، مما أدى لهدم محراب عبد الرحمن الأول وبناء محراب جديد • أما ما تنسبه له الرواية من اضافة رواقين جديدين على الجانبين الشرقي والغربي ، من صحن المسجد ، فيستدعي أن يكون ما بناه عبد الرحمن الداخل كان تسعة أروقة وأصبحت الآن أحد عشر ، بينما تدل الشواهد الأثرية على أن بناء عبد الرحمن كان مؤلفاً من أحد عشر رواقاً لا من تسعة • ويفترض البعض للتوفيق بين الرواية والشواهد الأثرية ، ان الرواقين المتطرفين كانا من بناء عبد الرحمن الداخل ، الا أنهما كانا منفصلين عن بقية المصلى بجدران ، وما فعله عبدالرحمن الثاني

هو هدم الجدارين ووصل الرواقين ببقية أروقة المسجد ، واجراء تحويرات في بنائهما كي ينسجما مع بناء بقية المسجد •

وأنشأ بعده الأمير محمد المقصورة ، وتلاه المنذر الذي بنى فيه بيت المال للصدقات المخصصة للمسجد وللفقراء[1] • وقبيل نهاية القرن الثالث هـ / التاسع الميلادي أضاف الأمير عبدالله بناء ساباط يمتد من الزاوية الشمالية الشرقية للقصر الى الزاوية الجنوبية للمسجد ، بحيث وصل بين القصر والمقصورة التي أمر والده بتشييدها •

أما أعمال عبدالرحمن الناصر ، فلا تكاد تذكر داخل المصلى ، وانصرف همه الى العمل العمراني في الصحن ، فزوده بمنارة تعتبر من أجمل وأكثر المنارات أهمية في المغرب الاسلامي • اذ ظلت طيلة قرنين النموذج المحتذى لدى بناء المآذن في الأندلس والمغرب ، ومن بينها مآذن مساجد الموحّدين الشهيرة في مراكش والرباط واشبيلية • وقد بدأ بناء هذه المأذنة النموذج سنة ٣٤٠ هـ/٩٥١ م واستغرق ثلاثة عشر شهراً وهي ذات شكل مربع يبلغ طول ضلعه ثمانية عشر ذراعاً ، ولها درجان يلتقي الصاعدون فيهما في الأعلى فقط ، ويبلغ ارتفاعها حتى موقف المؤذن أربعاً وخمسين ذراعاً ، وفي أعلى ذروتها توجد سفود من النحاس تحمل ثلاث رمانات اثنتان منهما ذهب ابريز والثالثة أو الوسطى من الفضة وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف الزج بأعلى الجو • ويبلغ الارتفاع حتى أعلى الرمانة الأخيرة اثنان وسبعون ذراعاً •

كما وجد عبدالرحمن الصحن وقد غدا صغيراً بالنسبة للمصلى فهدم السور القديم وأبعده أكثر نحو الشمال ، وبذلك كسب الصحن قرابة ٢١,٥ م عمقاً • ودعّم أيضاً جدار المصلى وأنشأ ثلاثة أروقة ، حسب القاعدة المتبعة في أكثر المساجد الاسلامية • وهي أروقة الصحن في شماله وشرقه وغربه ، وترك ناحية جدار المصلى دون رواق •

---

(١) رواية ابن بشكوال من النفح ، ج ٢ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ •

واستجاب الحكم لضـرورات زيادة السكان والضغط على المسجـد الذي جعـل المصلين يقفون في الصحن مما اضطر والده لانشاء الظلّـة ، فوسع هو في المصلى ، بابعـاد جـدار القبلة ليصبح على مقربة مـن السور الجنوبي للمدينة • و بذلك اضطر لهـدم محـراب عبد الرحمن الثاني ومقصورة الأمير محمد وبيت مـال المنذر وساباط عبد الله ، ولكنه عوض عنها بمثيلات لها أكثر اتساعاً وفخامة • كما زود هذه الزيادة الناشئة عن ابعاد جدار القبلة بست قباب لانارة المسجد وتهويته ، تكوّن مجموعة من الأبهاء تظللها حنايا تعتمد على أقواس متشابكة • وتعتبر هذه ، من الناحية الفنية ، تجديدات هامة في فنّ عصر الخلافة • كما تتجلى في زيادة الحكم تجديدات في الأقواس المفصصة •

وتبلغ روعة الزخرفة ، في الزيادة المعمارية للحكم الثاني ، أوجهـا في المحراب ، وهو تجويف في جدار القبلة على هيئة حنية على شكل مثمن يصفه غوميث مورينو بقوله : « لـم يكن في زخارفه مظاهر للتجسيم بل تجريد للحقيقة باللجوء الى الأشكال الهندسية وانسجام الألوان على نحو يفوق مافي الطبيعة ، والتي تتراءى في أشكال لا تزال تثير المشاعر في نفس الناظر اليها من غير المسلمين حين يمثل أمام المحراب • فارتباط الادراك بين العقود حولها وشحوب الأضواء المنسكبة من شبكات النوافذ الموجودة في الأجزاء العليا ومظهر قبتها السحري والذهب والألوان والبريق والجلال الذي يشع من أعماق المحراب ، كل هذا يملك على النفس مشاعرهـا ولا تستطيع له دفعاً ، ومع تناسق هذا المجموع ، الا أن العناصر الفنية معقدة على نحو يقتضي تحليلها جهداً شاقاً ، ومع ذلك فان هذا التحليل لا يشفي الغليل بدون رؤيته ، لأن اصالته تجرّد كل مـا يمكن أن تؤدي الكلمات الى تصوره من كل قيمة (١) » •

في عهد المنصور تكررت الحاجة ، عـلى مـا يظهر ، لتوسيع المسجد

---

(١) غوميث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ١٤٦ ـ ١٥٥ •

ولم يكن من المستساغ نظراً للصورة التي عليهـا الأرض والروعة التي تتجلى في قبلة المسجد أن يزيد المنصور في هذا الجزء منه ، فآثر أن يوسعه من ناحية الشرق بزيادة ثماني بلاطات على طوله سواء في المصلى أو الصحن بعرض يبلغ ٤٥،٨ م • أمـا من الناحية الفنية فان نظـام الزيادة الجديدة يكاد يكون صورة منسوخة تقريباً عن نظام الزيادة التي أحدثها الحكم •

القصر والأبنية الأخرى • ـ

لعل الاهتمام ببناء دور الصناعة في الأندلس خـلال عصر الخلافة ، واحد من الاهتمامات الرئيسية نظراً لأن العصر عصر بناء اسطول، ولذلك تعددت دور الصناعة التي شادها الخلفاء وأهمها دار الصناعة في طرطوشة التي أمر الناصر بانشائها عام ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ، كما يستفاد من حجـر الأساس الذي كشف النقاب عنه [(١)] •

كذلك استمر العمل بالقصر خلال عصر الخلافة ، وهو قصر الامارة القديم، الذي يبلغ محيطه حسب قول المقري ١١٠٠ ذراع (مابين ٥٢٥ـ٥٥٠م) ويقع الى غرب المسجد الجامع ، ويفصل بينهما الطريق الواسع المسمى بالمحجة العظمى • وكان في الأصل بلاطاً للذريق ، ثم سكنه بعض الولاة الا أن التجديد في بنائه يعزى لعبد الرحمن الداخل ، ثم تابع الأمـــراء بعده ، وخاصة منذ فترة ازدهـار الامـارة حتى أيـام الحكم المستنصر ، انشاء مبان خاصة لكل منهم ومجالس لعل أكثرها شهرة الزاهر ومجلس الروضة اللذين بناهما عبد الرحمن الناصر لدين الله • كما أن الأمـراء الأمويين والخلفاء كانوا يدفنون به •

وقـد أعطت القصر محاولة كل أمير بنـاء جناح أو مبنى خاص بـه سمة الخليط من الأبنية • وهـي سمة مميزة لأكثر القصور التي بناهـا العرب المسلمون في العصور الوسطى • ومع أن هذه السمة تفقد القصر

(١) H. Levi Provençal; Inscripciones Arabes d'Espagne, N° 86 .

الوحدة الا أنها تجعله يعكس لنا تطور الفنون المعمارية وفنون الزخرفة خلال الحقب المتوالية ، التي استمر بناء القصر خلالها • يقع القصر في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة المسوّرة ، وبين سوره الجنوبي ومجرى الوادي الكبير يوجد الرصيف ، الذي بني أو جدّد في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني • ويشرف من الأعلى على كل من النهر والرصيف السطح المرد المشهور المتصل بالمجلس الشرقي • وفي أسفل هذا السطح ينفتح على الرصيف باب السدّة أشهر أبواب القصر • وقد جرت العادة سواء في عصر الامارة أم في عصر الخلافة ، ان تعرض أمام هذا الباب على الرصيف جثث المعدومين أو رؤوس الثوار المقتولين ، كما تعرض على نصب الرايات أو التحف من الغنائم •

ولعل أقرب معنى للسدة هو الرتبة أو ما يجلس عليه الأمير ، ولذا ربما دعي الباب بهذا الاسم لأنه يؤدي الى مكان جلوس الأمير أو الخليفة ثم توسع معناه فأصبح يدل على مجموعة الأبنية التي يؤدي اليها مثل مراكز الوزراء وادارة الدولة وبلاط الأمير أو الخليفة ، وبهذا المعنى انتقل الى مدينة الزهراء [١] • ثم انتقلت هذه الكلمة الى القشتالية لتدل على المقرّات الحصينة التي يقيم بها الأمراء ، كما يشاهد ذلك بوضوح في الوثائق المتأخرة [٢] •

وعدا عن باب السدّة كان للقصر أبواب متعددة ، يقول عنها ابن بشكوال أنها خمسة • فبالاضافة لباب السدّة ، هناك باب الجنان وباب الوادي ، ومن اسمه يستنتج أنه كان ينفتح على نهر الوادي الكبير أي على نفس خط باب السدّة ، وهناك باب قورية في الجدار الشمالي •

---

(١) L. B. Torres; Bab al-sudda y las suddas de la España oriental (Al-Andalus, vol. ×VIII, 1952, p. 166-175).

(٢) . Julian Ribera; Origen de justicia de Aragon, p. 423

مدينــة الزهراء ٠ ـ

يمكن استنتاج أسباب قيام عبد الرحمن الناصر ببناء هذه المدينة من جملة الظروف المحيطة به ، فالعبيد الذين اشتد اعتماده عليهم ، وبالتالي استكثـاره منهـم ، ضـاق قصر الخـلافـة بهم في قرطبـة ٠ كـذلك فان أمويي الأندلس كانوا يضعون دائماً نصب أعينهم السير على منوال خلفاء المشرق ، ويسعون الى بلوغ مستواهـم ، وقـد بنى أواخر عظماء هؤلاء مدناً ملكية كسامراء والمتوكلية ، وحتى أتباعهم الأغالبة في الشمال الافريقي بنوا رقادة ٠ وأخـيراً فان عبد الرحمن الناصر ، كما رأينا ، قـد أحاط منصبه بمظاهر الفخامةوالعظمة بما اتخذه من ألقاب وبما تقلده من صلاحيات فمن الطبيعي أن يحاول التعبير عن هذه العظمة بلسان العمران ، وينسب له شعر بهذا المعنى ، يقول فيه :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها ... مـن بعـدهـم فبألسن البنيـان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملك محته حـوادث الأزمـان
ان البنـاء اذا تعاظــم شأنــه ... أضحى يدل على عظيم الشان (١)

ويورد لنـا المقرّي سبباً آخراً بعيداً عمـا ذكرناه ، ومؤداه « أن الناصر ماتت له سرية تركت مالا كثيراً ، فأمـر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين وطلب من بلاد الأفرنج أسيراً فلم يوجـد ٠ وقالت له جاريته الزهراء وكان يحبها حباً شديداً : اشتهيت لو بنيت لي بـه مدينة تسمى باسمي وتكون خاصة لي فبناها ٠٠ وجعلهـا مستنزهـاً ومسكناً للزهراء وحاشية أرباب دولته ونقش صورتها على الباب (٢) » ٠

ومع ما يبدو في القصة من طابـع اسطوري ، وبعدهـا عن امكانية الاقتناع بهذا السبب لبناء المدينة ، الا أن وجود علاقة بين البناء وامرأة أمر

---

(١) النفـح ، ج ٢ ، ص ٦٢ ٠
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥ ٠

قريب الاحتمال لعدم تسمية الناصر للمدينة بلقبه ، كما فعل المهدي الفاطمي وقبله المتوكل العباسى • أضف الى ذلك ان هناك رواية تفيد ، بأن خليفة من خلفاء الموحدين عندما مر ببقايا المدينة فيعصره أمر بازالة تمثال امرأة على بابها •

وقع اختيار الناصر لبناء مدينته الملكية على موقع يقع في السفح الجنوبي لجبل عروس (La Sierra de Cordoba حالياً) ، ويقع على مسافة خمسة كيلومترات على خط مستقيم مع الشمال الشرقي من قرطبة وقد استفاد البناة من طبيعة الأرض المتدرجة في هذه المنطقة مما يجعلهم يبنون سلسلة أبنية متدرجة لا تحجب عن بعضها رؤية سهل قرطبة الفسيح حول نهر الوادي الكبير • وشكل بنائها العام مستطيل طوله من الشرق الى الغرب ألفان وسبعمائة وعرضه من القبلة الى الجوف ألف وخمسمائة حسب رواية ابن بشكوال في نفح الطيب • وتدل البقايا التي كشفت عنها الحفريات الحديثة أن هذه الأبعاد صحيحة فهي بطول ١٥١٨ م وعرض ٧٤٥ م •

أما عن الأبنية ضمن هذا المستطيل ، ففي المدرج الأعلى بنيت القصور الملكية وبعض القاعات لاستقبال كبار الموظفين • ويبلغ عدد الأبنية المخصصة لايواء الخليفة وعائلته ورجال بلاطه أربعمائة • هذا بالاضافة لبعض دور الادارة مثل دار السكة • وتغطي الحدائق المدرج الأوسط ، أما المدرج الأدنى فيضم المسجد ومساكن الأتباع •

وروائع الزهراء متعددة حسب أقوال المؤرخين المسلمين ، ويذكر ابن خلدون ان الناصر اتخذ فيها « مجالات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك (١) » •

وفي المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وفي بيت المنام من هذا

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٤ •

المجلس وضع الناصر حوضاً منقوشاً جلبه اليه من الشام أحمد بن حزم [١] وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر .. ويخرج الماء من أفواهها [٢] .

ومن المجالس الأخرى التي اعتبرت عجيبة المجلس المسمى بمجلس الخلفاء وكان سمكه من الذهب الخالص والرخام الغليظ وجدرانه مثل ذلك وجعل في وسطه الحوض الغريب من القسطنطينية الذي حمله ربيع بن زيد « وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة ، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه يومىء الى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس شعاع كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك» [٣] .

استغرق انجاز هذا العمل العظيم مدة أربعين سنة ، خمس وعشرون منها في أيام الناصر وخمس عشرة في خلافة الحكم المستنصر ، الذي كان أميناً مشرفاً على البناء في حياة أبيه وبعهد منه .

---

(١) انظر : أعمال الاعلام، ص ٣٨ . ويرد اسمه في النفح، ج ٢، ص ٦٧ ، احمد الفيلسوف.

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٣) النفح ، ج ٢ ، ص ٦٨ . ويرد وصف هذا المجلس في كتاب الجغرافية للزهري ، ص ٨٧ـ وحاشية ٢٢٨ ، الا انه يدعوه « المجلس القلبق او الفليق ، وربما كانت الكلمة المجلس القلق ، نظرا لاضطرابه الظاهر وعدم الشعور باستقراره عند تحريك الزئبق .

ويمكن أخذ فكرة عامة عن كلفتها ومدى الجهود التي بذلت لاتمامها من الأرقام المتناثرة التي يذكرها المؤرخون القدماء « فقد كان يعمل فيها كل يوم من الخدّام والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة ويصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدّل » • ومما يزيد في الكلفة أن بعض موادها الأولية لم تكن من قرطبة ، ولا حتى من الأندلس ، « فقد جلب اليها الرخام الأبيض من المريّة والمجزّع من ريّة والوردي والأخضر من صفاقس وقرطاجنة [1] » • وكذلك كان وضع السواري ، فقد بلغ عدد السواري المستخدمة فيها أربعة آلاف سارية ، كان منها (١٣٠٠) من افريقيا وتسع عشرة من بلاد الأفرنج وأهدى اليه ملك القسطنطينية مائة وأربعين سارية ، كما وردت بعض السواري من روما [2] وكان يصل من يجلبونها بثلاثة دنانير عن كل رخامة وثمانية عن كل سارية • وينقل ابن حيان عن بعض أهل الخدمة ، ان ما كان ينفقه الناصر بلغ ثلاثمائة ألف دينار كل عام •

اندثار الزهراء • ــ

رغم الجهود التي بذلت والأموال التي أنفقت على بناء هذه المدينة الملكية الرائعة ، الا أن حياتها كانت قصيرة لم تتجاوز ثلاثة أرباع القرن• اذ ابتدأت الفتنة التي أودت بالخلافة والخلفاء في مطلع القرن الخامس الهجري بنهب الزهراء وتخريبها ، ثم أحرقت عدة مرات ، ومع ذلك ظلت من هذا المجموع الغني بقايا الى أيام الطوائف واعتبرت ثمينة الى حد تعيين موظف خاص لاستخراجها وبيعها • وقد تهافت عليها وكلاء بعض ملوك الطوائف ، وربما كان ذلك سبباً في وجود أعمدة وأحواض وقطع فنية تنتمي الى عصر الخلافة ، في اشبيلية وغرناطة ومراكش •

---

(١) النفح ، ج ٢ ، ص ٦٧ •

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ . ص ١٠٢ ــ ١٠٤ •

وإذ خربت الأبنية ونهبت محتوياتها وتحفها الا أن الموقع ، الممتاز طبيعياً ، بقي كمتنزه بعد ذلك . كما يستدل من تذكر ابن زيدون لمحبوبته ولادة بالزهراء . والى جانب هذا المتنزه بقيت الأطلال والخرائب الى جانبها معروفة لدى الناس بأنها خرائب الزهراء ، وبقيت مثار تأمل للزهاد وللصوفيين ، كشاهد واضح على عبث وتفاهة كل ماهو دنيوي مهما شمخ بناؤه وعظم شأنه ، حتى أيام الصوفي الشهير ابن عربي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . وبعد احتلال الأسبان لها مع قرطبة في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي نسي حتى اسمها فصارت تعرف بقرطبة القديمة . وصارت بقاياها معيناً لا ينضب لاستخراج المواد الأولية كالكلس من ملاطها ونقوشها لاقامة المنشآت المعمارية ، وبالتدريج أخذت الأتربة والأعشاب النامية تتراكم على هذه البقايا وتزيل معالمها . ومع اختفاء كثير من الملامح بدأ النسيان يلف أيضاً صلتها بالعرب حتى اعتقد البعض أنها قرطبة القديمة التي بناها أحد الأباطرة الرومان.

ولم تتدخل الروح العلمية لتكشف هوية الخرائب من جديد الا في القرن السابع عشر عندما اكتشف البعض انها تخص الأمويين واحتاج الامر الى قرنين آخرين لمعرفة ان الخرائب هذه هي الزهراء . ومنذ ذلك الوقت ، اي منذ اواسط القرن التاسع عشر ، بدأت الحفريات التي لا زالت مستمرة حتى اليوم ، مع محاولات لاعادة بعض ما يمكن اعادته من قاعات (١) .

والمهم في هذه الحفريات الحديثة ، أنها أظهرت للنور القسم الأوسط من المسطح الاعلى فقط ، وظل الجانبان دون اكتشاف حتى امد ليس ببعيد . كما ان هذه الحفريات كشفت عن شواهد تبرهن على ان ما اورده المؤرخون العرب القدماء صحيح الى حد بعيد ، فمساحتها ١١٣ هكتاراً مطابقة لما اوردوه عن ابعادها وكذلك بناؤها على ثلاثة مستويات ، وغناها بالتزيينات وان احتوت الرواية على مبالغات كجعل ما هو مذهب من الذهب الخالص .

---

(١) L. B. Torres; H. E. M. vol. IV, p. 423-432.

وما عدا ذلك أيدت الحفريات الرواية في فخامة التزيينات وتنوعها بين محفور ومنحوت للأشكال الحيّة من كل الأنواع بما فيها حيوانات حقيقية وأسطورية وصور بشرية. وفنانو عصر الخلافة الذين أبدعوا هذه الزخارف والتزيينات في الأبنية التي اقاموها ، قد وضعوا نصب اعينهم فن روما وبيزنطة أكثر مما اقتبسوا من المشرق[1] .

الزاهرة . ـ

اما المدينة الملكية الثانية التي اقيمت في عصر الخلفاء فهي الزاهرة ، التي ابتدأ بناؤها بأمر المنصور بن ابي عامر عام ٣٦٨هـ/٩٧٨ ـ ٩٧٩م . وانتقل اليها بعد سنتين من هذا التاريخ ، الا أن بناءها لم يتم الا بعد تسع سنوات من بدايته . ولا ريب أن الدافع له لبنيان هذه المدينة تمجيد شخصه واظهار عزة سلطانه ، ويبدو ذلك واضحاً من الاسم الذي اعطاه لها ، والذي يبدو قريباً من الزهراء مدينة الناصر .

ويشير المؤرخون العرب القدماء لسبب آخر وهو اتخاذها مقراً شخصياً له ، ومركزاً للادارة ومخازن ضرورية لخدمه ولجيشه » .

وقد اهتم ، بعد بناء ما يخصه فيها ، بتوسيعها واعمار نواحيها « اذ أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المشيدة وقامت بها الاسواق وكثرت فيها الأرفاق . وتنافس الناس بالنزول باكنافها والحلول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو في البناء حوله حتى اتصلت ارباضها بارباض قرطبة » .

واشتهر من ابنية المنصور فيها ، بواسطة الاخبار المتعلقة به ، المسجد الذي جعله مسجداً جامعاً اثر خلافه مع الفقهاء حول هذا الامر .

---

(١) النفح ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(٢) . B. Pavon Maldonado; (Al-Andalus, vol. XXXIII. Fasc. I, p. 205-220)

كانت الزاهرة ، اقصر من الزهراء عمراً ، اذ لم تعش اكثر من ثلاثين عاماً ، ففي جمادى الآخرة ، من عام ٣٩٩ هـ ، نشبت ثورة المهدي ضد العامريين فاستصفى ما في الزاهرة خلال ثلاثة ايام ، ثم « أمر بهدمها وحط اسوارها وقلع وتشعيث قصورها وطمس آثارها وتعجيل ذلك ، وسوّغ الناس انقاضها فبلغوا من تدمير تلك المدن الجليلة ما لم تبلغه الدهور المتعاقبة » • ويمكن تفسير الشدة في تخريبها لا بشره العامة للنهب فقط ، وانما لان الثورة كانت ضد العامريين واستبدادهم بالسلطان ، فمن الطبيعي أن تكون شديدة قاسية في تحطيم رمز سلطانهم[1] •

واندثرت بهذا التخريب تلك المدينة اندثاراً يختلف عن ذلك الذي حل بالزهراء ، اذ عثر على الكثير من قطع المدينة الأخيرة مبعثرة في بلدان اخرى ، وتم التعرف عليها بفضل ما عليها من كتابات ، بينما لم يبق شيء مماثل من الزاهرة • فهل كان ذلك نتيجة لطمس الثائرين والناهبين لأسماء العامريين المحفورة على آثارها ؟ أم أن المنصور العامري تعمد الاقلال من الكتابة على الآثار لتظاهره بالتقوى وابتعاده عن كل ما يشتم منه رائحة الزهو والكبرياء ؟

وعلى كل حال لم يبق من أثر مادي من الزاهرة سوى حوض من المرمر ، مكسور وغير كامل ، وصل الى اشبيلية ويحفظ الآن في المتحف الوطني بمدريد وقد كتب عليه « أمر بصنعه في قصر الزاهرة المنصور بن أبي عامر وانتهى عام ٣٧٧ »[2] • كما أنه لم يبق عن الزاهرة فيما بعد أي صدى في التقاليد المحلية ، لذا اختلف على تحديد مكانها • ويمكن الآن تحديد مكانها التقريبي اعتمادا على بعض النصوص ، التي تدل على انها

(١) اعمال الاعلام ، ص ١١١ •

(٢) Levi Provençal; Inscripciones Arabs d'Espagne, num. 216, p. 164 .

تقع على أحـــد منعطفات الوادي الكبير في شرق قرطبة في منطقة رملية تنقسم الى قسمين ، الأقرب منهما لقرطبة هو شبلار والأبعد هو الرملة[١] • ويفهم من نصوص أخرى ان هذه المنطقة لم تكن بعيدة جدا عن قرطبة ، لانها تشير اليها باسم الربض الزاهرة • كما ان الفقهاء اعتبروها جزءاً من مدينة قرطبة لانهم لم يوافقوا على التجميع في مسجدها مراعاة لقول مـالك « لا يجمّع في مصر واحد في جامعين » وقاسوا ما بين المسجدين على ابعـد الطرق بينهما فوجدوه نحو الفرسخ (٦ كم تقريبـاً)[٢] •

(١) L. Torres Balbas; Arte Hispano Mousulman, p. 599.

(٢) ترتيب المدارك ، ج ٢ ــ ٣ ، ص ٦٥٧ •

النشاط الفكري في عصر الخلافة

يعتبر النشاط الفكـري في عصر الخلافة استمراراً وتتويجاً لذلك النشاط ، الذي بـدأ منذ فترة الازدهـار من عصر الامارة • فقد غني فيـه البحث في الفروع ذاتها ، وان أخذ عمقاً أكبر ، وبحث المشتغلون في بعض الفروع عـن مصادر أخرى بالاضافـة للمصادر التي اعتُمـد عليهـا في السابق • كمـا تبلور الشعور بالذات الثقافية الأندلسية بشكل أوضح • وازداد الانفتاح الفكري ، سواء من ناحية المذهب ، أو بالنسبة للعلوم التي كانت مكروهة قبلا •

ومع كـل هـذه الاختلافات ، يبقى الخلفاء ، كما كان الأمراء في السابق يلعبون دوراً حاسماً في تنشيط الحياة الفكرية وتشجيع العلماء •

دور الخلفـاء في النشاط الثقـافي

ليست كثيرة تلك الاشارات التي نجـدها في المصـادر عن أثر عبـد الرحمن الناصـر ، أو تأثـره بالحـركة العلمية والنشاط الثقافي ، وأكثر ما يرد منها عنه ، لا يتعدى كونه سمع من عالم معين أو تلقى العلم من عالم آخر [1] • وربمـا طغت أخبار نشاطه السياسي الجـم وانتصاراته الرائعة وأصداء الحوادث الهامة التي جرت في عهده ، على كل ما يتعلق بنواحي حياته الأخرى • أو أن شهرة ابنه وولي عهـده في المضمار الثقافي قـد غطت عليه لأن هيمنة الابن في هـذا المجال ، بدأت منذ أيام ولايته للعهد التي امتدت على مدى القسم الأعظـم من خلافة أبيه • وفي الحقيقة يحتل الحكم بين سائر من تعاقبوا عـلى حكم الأندلس ، ان لم يكن بـين سائر

---

(١) انظر : ابن الفرضي ، تاريخ العلماء ... ، ج ١ ، ت ١٠٧٠ •

الأمـراء والخلفاء في ديار الاسلام ، مكانة فريدة في المضمار الثقافي مـن ناحيتي التشجيع والمشاركة .

استمر في تلقي العلم والسماع من العلماء أمداً طويلا ، ومن العبث تعداد هؤلاء وذكـر تنوع المعارف التي يعطونها ، ذلك لأن نشاط الحكم سيكشف ذلك ويدل عليه . ويكفي القول هنا ، انه كان يستقدم الكثيرين ممن يبرزون في نواحـي العلم المختلفة ليسمع منهـم أو يكلفهم بالتأليف أو التصنيف ، سواء أكانوا أندلسيين يعيشون خارج قرطبة أو كانوا من خـارج الأندلس ، وهكـذا استقدم عراقيين وشاميين ومصريين وأفارقة ومغاربة [1] وصقليين .

ربما أحاط من هذا العلم الذي تلقاه بمعارف شتى كالفقه واللغة والأدب والأخبار وبالعلوم حسب مفاهيمنا العصرية ، لكـن الذي برز فيه وأنتج وكتب كان الأنساب ، وبلغ انتاجه فيه من الدقة والاتقان حداً جعله حجة عند الأندلسيين ، بدليل أننا نجد أكثر من واحد من الكتاب الأندلسيين يقول عندما يريد أن يقدم حجة دامغة على صحة النسب الذي يذكره للشخصية التي يترجم لها « قرأت ذلك بخط الحكم المستنصر وهـو عندنا حجة في الأندلس » . ويبدو الحكـم في ذلك ملبياً لحاجة ألح عليهـا الأندلسيون وهي العناية بالنسب ، اذ نجد كتبهم ، وخاصة كتب التراجم ، تركز على النسب العربي تركيزاً غير مألوف فتذكر جد العائلة المشرقي وتتبعه بالجد الذي دخل الأندلس والموطن الذي نزلته العائلة ، وربما يعود سبب هذا التركيز للامتيازات التي نالها أولئك العرب ولقلتهم ومحاولة الكثـيرين لتلفيق نسب عربـي لهم ، حتى عندما زالت امتيازات العرب لأن المكانـة الاجتماعية بقيت في الغالب . وقـد أدى هـذا الاهتمـام الفائق بالأنساب والطريقة التي أخذهـا البحث في أنساب العرب ، الى تقصي النسب في

---

(١) انظر ابن الفرضي ، ج ٢ ، ت ١٢٥١ ؛ ج ١ ، ت ٩٣٤ ، ٨٨٦ ، ٧٧١ . ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ت ١٧٠٧ .

الكائنات الأخرى وحتى في النبـاتات[1] ، فالرمان العربي في كل الأندلس مرده الى تلك البذرة التي أحضرها سفر بن عبيد الكلابي حسب قول ابن حيان • كما أن أحد رجال العلم البارزين في الأندلس في آخـر عصـر الخلافة ، كان يرى أن النخلة التي توالدت منهـا كل نخلة بالأندلس ، تلك النخلة التي يقال أن تفردها أهاج شجن عبد الرحمن الداخل وذكره ببلاد المشرق :

يا نخـل أنت غريبة مثلـــي ... في الغـرب نائية عـن الأصل
فابكـي وهـل تبكـي مكبسة ... عجمـاء لـم تطبع عـلى خبل
لـو أنهـا تبكـي اذن لبكت ... مـاء الفرات ومنبت النخـل [2]

ويبقى الاهتمام بالأنساب عند الأندلسيين باقياً خلال فترات تاريخهم كلها اذ نجد التأليف فيه مزدهراً فيالقرن الخامس الهجري،الذي ألف فيه ابن حزم جمهرة أنساب العرب • وفي القرن الثامن الهجـري نرى ابن الخطيب يركز على أنساب العرب وذكر الداخـل منهـم للأندلس حتى لرجال عصره وذلك في كتابه الاحاطة فيأخبار غرناطة ، وحتىابنخلدون في كتابـه الكبـير يرتب أحـداث التاريخ عـلى أساس الأنساب لا عـلى الأساس الحولي •

ولم يعبر الحكم عن اهتمامه بالأنساب بانتاجه فيها فقط ، بل بتقديره للنسب وباعتباره له كقيمة تحـدد مكانـــة الانسان الاجتمـاعية • فقـد اختلف اثنان كلفهما بمؤلف ، حول تقديم اسم أحدهما على الآخر ، وكان أصغرهما سناً وأقلهما معرفـة قرشياً ومع ذلك أمر الحكم قاضيـه بحسم الخلاف على أساس تقـديم القرشي لنسبة[3] ، وهـنا ما يفسر أوامره لأهل الكور التي يذكرها ابن الأبار « وكان قد قيد كثيراً من أنساب أهل

---

(١) المقري ، النفح ، ج ٢ ، ص ١٤ ـ ١٥ •
(٢) الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ •
(٣) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج ٣ـ٤ ، ص ٦٣٤ـ٦٣٥ •

بلده ، وكلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أخمل ذكره قبل ولايته ، وأن يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك •• ويرد كل ذي نسب الى نسبه ، وفرج ذلك بالعلم فتم له من ذلك ما أراد ، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد[(١)] » •

واذا كان الحكم قد لبّى في عمله بالنسب اهتماما عاما في بلده ، فان ظروف عصره ولدت حاجات أخرى من الضروري تلبيتها ، اذ اتسع ميدان النشاط السياسي الأندلسي ليضم شمال افريقيا وشمال اسبانيا • ففي الشمال الافريقي ، كان يتحرك الدعاة والمبعوثون والجواسيس للخلفاء منفرّين القبائل عن الفاطميين وأعوانهم ، مستجلبين بعضها الى ولاء الأمويين • وفي أحيان أخرى وأماكن أخرى كانت الجيوش الأموية تسير لاحتلال مدينة أو اخضاع متمرد • وهذا يقتضي معرفة بالأرض وسكانها لرسم السياسة ومساعدة الجيوش • ويقرّب الحكم محمد بن يوسف الوراق الذي نشأ في القيروان لكنه كان من أصل أندلسي ، فيؤلف له كتاباً ضخماً في مسالك افريقيا وممالكها • ويكتب له أيضا في أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة[(٢)] • كما ألف آخر للحكم في أنساب العلويين والطالبيين القادمين الى المغرب ، ولا يخفى أن قسماً من نشاط الحكم في الشمال الافريقي قد بذل في التعامل السلمي أو الحربي مع الأدارسة الذين قدموا المغرب منذ أمد طويل[(٣)] •

أما الشمال الأسباني حيث كان للحكم رسل مقيمون فلاشك أن معلومات واسعة عن حياتهم وأخبارهم قد دونت للحكم ، وان لم يصلنا منها شيء ، مادام مهتماً حتى بالحصول على أخبار الفرنجة الذين يلونهم في أراضي فرنسا الحالية ، ويقول المسعودي « وجدت في كتاب وقع اليّ

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ •
(٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ٩٠ ، ت ١٦٠ • ابن الأبار التكملة ، ج١ ، ت ١٧٠٧ ، ص ٦٧١ •
(٣) انظر التكملة ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ •

بفسطاط مصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، أهداه عرمار الأسقف بمدينة جرنده من مدن الافرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة الى الحكم بن عبد الرحمن ولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت في عهده : ياأمير المؤمنين ، ان أول ملوك افرنجة . . . . . »[1] .

ومن الطبيعي أن تحظى الأندلس بلاد الحكم بنصيب من عناية المستنصر ، ويرد في كتب التراجم ذكر لكثير من المؤلفات التي وضعت في أخبارها وحتى في أخبار كورها وما فيها من حصون ومن تعاقب عليها من الولاة وبرز بها من الفقهاء والشعراء . ألف بعضها وقدّم له ، كما كتب البعض الآخر بتكليف منه [2] . وكذلك حال الريف وأهل الذمة في الأندلس والأعمال الزراعية فيها حظيت باهتمامه وألف له عريب بن سعد المكمل لكتاب الطبري ، كتاب الأنواء [3] .

ولم يكن اهتمام الحكم بالعلوم الأخرى ، التي قطعت قبله شأوا بعيداً في مجال الرقي ، بأقل من اهتمامه بالعلوم التي ذكرناها . فعلوم العربية من نحو ومعاجم وعلم الحديث والقراءات والفقه ، نالت حظها من الاهتمام في بلاطه . واذا كان من شيء جديد تجاهها في عهده فربما يكون الانفتاح تجاه دراسات المذاهب الأخرى فنراه يأخذ من أحد القادمين من المشرق نسخته عن كتاب الشافعي . وكذلك يسعى في ادخال أحد البارزين في القراءات السبعة بعد أن كانت قراءة أهل المدينة هي السائدة[4] . على أن التجديد الواضح في عهد الحكم هو الانفتاح على العلوم القديمة أو علوم الفلسفة وما يتبعها حسب مفهوم العصر الذي بداه هو ولحقه الناس

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٧ ــ ٨ .

(٢) انظر الحميدي ، جذوة المقتبس ، ت ٣٠٩ . وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥٤ وكذلك معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٧٤ .

(٣) نشر هذا الكتاب بنصه العربي واللاتيني دوزي باسم ال Calendario de Cordoba .

(٤) انظر : الجزء الأول من كتابنا ، ص ١٧٣ ، محمد بن الجزري ، غاية النهاية من طبقات القراء ، ج ١ ، ص ٥٦٤ـ٥٦٦ . ابن الفرضي ، تاريخ العلماء ، ت ٩٣٤ ، ت ٧٧١ ، ت ١٦٣٦ .

وهي أمور كانت مكروهة قبله لدى الأندلسيين ، ويعبر صاعد الطليطلي عن ذلك بقوله « ثم لما مضى صدر من المائة الرابعة انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله وذلك في أيام أبيه الى العناية بالعلوم والى ايثار أهلها واستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق عيون التآليف الجليلة ، والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه من بعده ما كاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمنة الطويلة وتهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم وبعد همته في اكتساب الفضائل وسمو نفسه الى التشبه بأهل الحكمة من الملوك ، فكثر تحرك الناس في زمانه الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم[1] » • لكن الحكم كان بحاجة للتحالف مع الفقهاء لدوافع سياسية ولذلك كان يتظاهر رغم كل ذلك بالابتعاد عن المشتغلين بهذه العلوم وشاع ذلك بين الناس فبقيت أصداؤه في الروايات المسجلة كتلك التي تقول عن رجل من هؤلاء العلماء «كان ينسب اليه العلم بصناعة الكيميا وكان الحكم المستنصر بالله يعظمه ويؤثره ويروم الاستكثار منه فيقبضه عنه ورعه ويكفه عن مداخلته زهده[2] » •

وأخيراً لم تقتصر عناية الحكم بالعلم على تعميقه وتنشيط دراسات العلماء فيه ، بل حاول نشر الأولي منه وتيسيره للطبقات المعسرة العاجزة عن تعليم أبنائها ويشير ابن عذاري لذلك بقوله « ومن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ، وعهد اليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً ، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة ، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة ، وفي ذلك يقول ابن شخيص :

---

(١) صاعد الطليطلي ، طبقات الامم ، ص ٨٦ •
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٨ •

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتباً لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليها وواعيها[١]

ولعل أوضح شاهد على شغف الحكم بالعلم هو المكتبة ٠

مكتبة الحكم ٠ ــ

تكونت هذه المكتبة من اجتماع ثلاث مكتبات لدى الحكم ، فقدكانت للقصر مكتبة منذ أيام الأمير محمد ، كما أن أخاه عبد الله كان منافساً له في السلطة عندما كان ولياً للعهد ، وكذلك في طلب العلم « اذ كانا يتباريان في طلب العلم ويتناغيان في جمعه ويتبادران الىاصطناع أهله واختصاص رجاله وإدناء منازلهم والاحسان اليهم[٢] » ٠ وعندما قتل الناصر ابنه عبد الله لتآمره عليه عادت كتبه لأخيه الحكم،وكان اجتماع هذه المكتبات عند الحكم عاملا في ضخامتها ، لكن ميله لجمع الكتب ربما يكون العامل الأهم ٠ فقد كان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم الى الآفاق باحثين عنها ٠ وقد عرف من وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ٠ كما عرف عن أحد مبعوثيه الى بغداد للبحث عن الكتب أنه « سكن البصرة عشرين سنة ، وتولى للحكم ابتياع الكتب والذخائر هناك فيقال أنه جرت على يده من النفقات هناك ، من هذه الوجوه مقدار ماية ألف وعشرين ألف دينار[٣] » ٠ وربما كان اتصاله بمشاهير المؤلفين عن طريق هؤلاء المبعوثين ، مثل ذلك الاتصال الذي جرى مع أبي الفرج الأصبهاني ، اذ بعث اليه ألف دينار عيناً ذهباً ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني، وما لأحد مثله «٠٠٠ فأرسل اليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم ، وألف له أيضاً أنساب قومه بني امية موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم ،

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ ٠
(٢) رواية ابن عفيف في الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ٠
(٣) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج ٣ ــ ٤ ، ص ٥٧٢ ــ ٥٧٣ ٠

فأحسن فيه جداً ، وخلّد لهم مجداً ، وأرسل بـه الى قرطبة وأنفذ معـه قصيدة حسنة من شعره يمدحه بها ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قريش ، فجدّد عليه الصلة الجزيلة [١] » .

واذا أردنا أن نكون أكثر دقة في تحديد هذه الضخامة رقمياً ، نجد أن البعض يذكر عدد الكتب فيها بـ ٤٠٠،٠٠٠ مجلد [٢]. وينقل ابن حزم عن تليد ، وكان عـلى خزانة العلوم بقصر بني مروان « ان عـدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين فقط [٣] » .

وتجدر الاشارة هنا الى أن أحجام هذه الكتب متفاوتة فبعضها لا يزيد عن أوراق متعددة ، لكن بعضها الآخر ، ووجوده فيها مؤكـد ، كانت أوراقه تزيد عن الألف . لذا يبدو مبالغاً فيه ما يورده بعض المؤرخين أنه « قلمـا تجد له كتاباً في خزانته الا وله فيه قراءة ونظر من أي فـن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه اما في أوله أو آخره او في تضاعيفه ـ نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده »[٤] .

وآخر مثل عن ضخامة المكتبة نجده عند نقلها ، اذ ادى تزويد الحكم لها بالكتب باستمرار الى استحالة احتواء المكان القـديم لها ، وعندما أعـدّ المبنى الجديد استغرق نقلها ستة شهور . واذا كانت قراءته لها كلها وتعليقه على كتبها موضع شك ، فان عنايته بها من حيث الشكل والمضمون شيء ثابت . فقد كان يستخدم أناساً مشهورين بحسن خطهم فيهـا منهم الرجال ومنهم

---

(١) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢) J. Ribera, Disertaciones y Opusculos, vol. I, P. 193

(٣) ابن حزم جمهرة انساب العرب ، ص ١٠٠ .

(٤) ابن الآبار ، الحلّة السيراء ، ج ١ ص ٢٠٢ .

بالنساء [١]. كما كان بينهم من برع في التجليد الأنيق ، وبعضهم ممن وفدوا على الاندلس من اقطار اخرى . كما كان من جملة الوظائف في هذه المكتبة خطة المقابلة ، ومن يعمل بها كان من كبار الشخصيات العلمية ، لأن مهمتهم كانت المقارنة بين النسخ المتعددة لأمهات الكتب للوصول الى نسخة خالية من التصحيف ، وقد اشتهرت في كتب التراجم قصة مقابلة نسخ متعددة من كتاب العين،وكان الحكم ، شأنه في ذلك شأنه في مراجعة التآليف التي يأمر بها ، يراجع ما يتوصل اليه المقابلون [٢] .

ويظهر أن الحكم وأخاه عبد الله لم يكونا مثلين فرديين في جمع الكتب بل كانا يمثلان ميلاً عاماً كان موجوداً في الأندلس آنذاك ، ومن الشواهد على ذلك عبد الرحمن بن فطيس الذي عاش في عصر الخلافة ويذكر عنه ابن بشكوال ، انه عدا عن علمه الواسع « كان حسن الخط جيد الضبط ، جمع من الكتب في أنواع العلم مالم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس». وكان يزود مكتبته بالشراء والنسخ ، فمتى « علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه . فان قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه ورده عليه » . واستخدم لهذه الغاية ستة وراقين ينسخون له دائماً ، ورتب لهم على ذلك راتباً معلوماً ، اذ ربما خشي العجلة في العمل وما يتبعها من التصحيف الكثير ، اذا كانت الاجرة على الكتاب . ومثل الحكم كان ضنيناً بمكتبته يمنع خروج الكتب منها ولا يعير كتاباً من أصوله البتة ، وكان اذا سأله أحد ذلك وألح عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه الى المستعير فان صرفه والا تركه عنده »[٣] . ويمكن تقدير ضخامة مكتبة ابن فطيس من المدة التي استغرقها بيعها بعد موته وأثناء الفتنة وحاجة أهله لما يسدون به الرمق . فقد اجتمع أهل قرطبة ، لبيع كتبها مدة عام كامل في مسجده أيام الفتنة ، وانه اجتمع فيها من الثمن اربعون الف دينار قاسمية.

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ١٥٢٩ .
(٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ت ٣٩ .
(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ٦٨٢ .

كان ابن فطيس من الطبقة العليا تملك عائلته غالبية منازل حي ولها مسجد باسمها فيه ، كما كان ذا مرتبة عليا في الدولة ، لذا يستطيع أن ينفق المال على الكتب ، لكن الميل لاقتناء الكتب انتشر على ما يظهر لدى الطبقات الفقيرة ، مثبتاً صحة المثل : الناس على دين ملوكهم ، والملاحظة الثابتة في تقليد الفقراء للأغنياء ، ونجد مثلاً على ذلك في قرطبة ذاتها بشخص محمد ابن حزم المؤدب الفقير ، الذي يعلم الصبية مع أبيه واخته في دار واحدة . « كان يدون كل أمر وتاريخ كل خبر ، ولم يكن قبله أجمع للدواوين منه ولا اصبر على الكتاب ولا ادوم على النظر »[١] .

المنصور والحركة الثقافية . ـ

باعتلاء المنصور سدة الحجابة وسيطرته على شؤون الحكم في الأندلس لم يتغير تشجيع السلطة للعلماء ودفع حركة العلم الى الامام ، وانما لحق التغير أشخاص العلماء ونوع العلوم المشجعة . فقد حاول ابن أبي عامر مباراة الخلفاء في المجال الثقافي كما باراهم في المجال الفني . واذا بدت ملامح ذلك فنياً باختياره اسماً لمدينته الملكية مشابهاً لاسم مدينة الناصر ، فهنا ايضا نراه يقرب صاعداً اللغوي المشرقي كما قرب الحكم أبا علي القالي ، ويؤلف له هذا كتاب الفصوص على نمط كتاب النوادر الذي ألفه القالي للحكم[٢] . كذلك كرس له كتاب آخرون كتباً لهم أو دواوين شعر ، كما كانوا يفعلون تجاه الحكم .

لكن المنصور قام تجاه بعض العلماء المقربين من الحكم ، بما قام به تجاه الصنائع الحكميين في الادارة والسلطة ، فأخمل ذكره ، ومثال ذلك ابن حارث الخشني الذي صنف للحكم المستنصر قرابة مائة ديوان كلها في

---

(١) انظر : ابن الفرضي ، تاريخ العلماء ، ج ٢ ، ت ١١٦٣ . وابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ت ٩٦٤ .

(٢) انظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ت ٥٠٩ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧ .

الفقه والرجال ، فآلت به الحال بعد موت الحكم ، وتقصير ابن ابي عامر بصنائع الحكم ، الى الجلوس في حانوت يبيع الأدهان [1] .

أما موقف ابن أبي عامر من العلوم فقد تأثر بوضعه السياسي كغاصب للسلطة مستبد بصاحب الحق الشرعي فيها هشام المويد ، ويرغب في التعويض عن ذلك بكسب ودّ العامة والتزلف للفقهاء ، لذا شنّ حملة على كتب الفلسفة والعلوم القديمة ، ويصف صاعد اللغوي عمله بقوله « عمد أول تغلبه على هشام المؤيد الى خزائن ابيه الحكم الجامعة لكتب العلوم وابرز مافيها من ضروب التآليف بمحضر خواص من أهل العلم بالدين وامرهم باخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل ، حاشا كتب الطب والحساب . فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو الاشعار والاخبار والطب والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم المباحة عند اهل الاندلس ، الا ما افلت منها في اثناء الكتب وذلك اقلها ، أمر باحراقها وافسادها فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة وغيّرت بضروب من التغايير . وفعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس وتقبيحا لمذاهب الحكم عندهم ، اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم مذمومة بألسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج من الملة ومظنوناً به الالحاد في الشريعة . فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وخملت نفوسهم وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم ، ولم يزل اولو النباهة في ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها . ويظهر ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك [2] » . ومبالغة منه في اظهار ورعه وكرهه لهذه العلوم تولى حرقها بيده . كما استغل العملية في أغراضه السياسية ، اذ عندما يكون بين المسيئين لسلطانه أحد ممن يتعاطفون مع هذه العلوم أو يتعاطونها يعاقبه بشدة تجعله عبرة للآخرين

---

(١) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج ٣ ـ ٤ ، ص ٥٣١ ـ ٥٣٢ .
(٢) صاعد الطليطلي ، طبقات الأمم ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

دون أن يشير الاستياء لدى العامة ومن الامثلة على ذلك معاقبته الشديدة للبلوطي المتآمر عليه والمعروف باشتغاله بعلم الكلام ، كما قطع لسان أحد المشتغلين بالتنجيم عندما بلغه عنه قول من الارجاف في القطع على انقراض دولته .

قابل التشديد في هذه العلوم زيادة التشجيع في العلوم الاخرى . فقد كان له مجلس معروف في الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته [٢]. وقد ساعد مشاريع التأليف التي بدأت قبله في أيام الحكم ، مثل كتاب الاستيعاب لأقوال مالك على التمام . لكنه أغدق الأموال على تلك الفروع التي يمكن استخدامها لتمجيد شخصه ، كالشعر الذي يتغنى بأمجاده والتاريخ الذي يشيد بمآثره . « وكان للشعراء في أيامه ديوان يرزقون منه على مراتبهم ، ولا يخلون بالخدمة بالشعر في مظانها[٣] » . وكان زمامهم بيد موظف خاص يتولى الصرف لهم[٤] . كما جعل التأريخ خطة خاصة . ويذكر لنا ابن بشكوال في ترجمة احد كبار الفقهاء ممن منحهم المنصور وظائف متعددة ، واضافة لها « قلّده نظم التاريخ في أيامه فجمع فيه كتابه الباهر الذي أهلكه النهب في نكبة آل عامر فانحل نظامه وطمس رسمه[٥] » . وبعد المنصور سار ابنه عبدالملك على قاعدته في اغداق الأموال على من اصطنعهم ابوه من طبقات أهل المعرفة بين خطيب وشاعر ونديم وشطرنجي ومعدّل وتاريخي[٦] .

المشرق والثقافة بالأندلس . —

ظلت الأندلس تعتمد على المشرق كما كانت قبلاً ، وازداد عدد بلدان المشرق التي تعتمد عليها . وهذا الازدياد سار في خط متصاعد منذ الفتح واستمر

---

(١) انظر : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .
(٢) انظر : الضبي ، بغية الملتمس ، ت ٢٤٢ .
(٣) الحميدي ، جذوة الاقتباس ، ت ٢٣١ .
(٤) الضبي ، بغية الملتمس ، ت ٣٤٢ . الجذوة ، ت ١٨٦ .
(٥) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ٦٧٨ . ترتيب المدارك ، ج ٣ — ٤ ، ص ٦٧٩ .
(٦) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع — المجلد الأول ، ص ٦٠ .

سيره في هذا العصر بنفس الاتجاه • فبعد اعتمادهم على الشام في بواكير ايامهم انتقلوا اوائل عصر الامارة للاعتماد بشكل يكاد يكون كليا ، على المدينة التي يردونها عند حجهم ، وعلى مصر التي يمرون بها في الذهاب والاياب • وفي فترة الازدهار من عصر الامارة،أصبح اعتمادهم الأكبر على العراق•وعندما جاء عصر الخلافة دخلت بلاد المشرق الاخرى ضمن دائرة البلاد المعتمد عليها •

وظلت وفود طالبي العلم الأندلسيين ترتاد ديار المشرق،كما تقاطر على الاندلس ، علماء مشارقة يرجون فيها سوقاً اكثر رواجاً لبضاعتهم ، ورزقاً أوفر في بلاط خلفائها وذوي الامر والنهي فيها • وقد برز من هؤلاء اسماعيل ابن القاسم أبو علي القالي الوافد منذ ولاية الحكم للعهد وبدعوة منه، والذي بقي الى جانبه شطراً من أيام خلافته • وكذلك صاعد اللغوي الذي وفد الى بلاط المنصور ابن أبي عامر •وقوبل هؤلاء بالتجلة والاحترام ، فقد استقبل ابو علي القالي ، على سبيل المثال ، منذ نزوله على ارض الاندلس ، استقبال الزوار العظام من الأمراء اذ أمر الحكم ولي العهد عامل المرية ابن رماحس « أن يجيء مع أبي علي الى قرطبة، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمة له ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل » وعندما حل بها صار الحكم « ينشطه ويعينه على التأليف بواسع العطاء ويشرح صدره بالافراط في الاكرام » • ونظراً للمكانة العالية التي نالها مدحه الشعراء كالرمادي ، وقام آخر بتأليف كتاب في نسبه ورواياته ودخوله الاندلس(١) •

كذلك استمر في هذا العصر حمل الدارسين والوافدين للعلم رواية في الصدور أو مخطوطاً في السطور ، ويبين لنا كتاب التراجم كيف يعتبر شخص من الدارسين أو الوافدين ثقة في كتاب أو رواية يتزاحم الناس على اخذها عنه ، وكذلك درجته في نقل هذه الأمور من المشرق ، فهو أول من ادخل كذا ، أو كان فلان قد سبقه الى ذلك •

---

(١) انظر : النفح ، ج ٤ ، ص ٧٠ _ ٧٣ •

على أن شيئاً جديداً برز فيما يتعلق بنقل الأندلسيين للثقافة من المشرق وهو أخذ ما يأخذون بشكل انتقادي ، وربما كان مرد ذلك الى أن الحركة العلمية كانت تنمو وتزدهر في البلاط وما حوله بتشجيع من العاهل واغداق من كرمه ، فمن الطبيعي ان يحسد الأندلسيون الواردين على البلاط من المشرق لما ينالونه من رفعة وما ينصب عليهم من رزق وفير ، وان يحاولوا اظهار تفوقهم عليهم ، أو يحاولوا اظهار تقدم علمهم على المؤلفات المشرقية . لكن الأهم من هذا العامل ، عامل اقتراب الحركة العلمية من مرحلة النضج وشعور العلماء الاندلسيين بالثقة بمعارفهم بينما كان المشارقة يرونهم أدنى منهم معرفة بكثير . مما يجعلهم لا يتثبتون مما يقولون ، أو أن بعضهم رغبة في اظهار انفسهم عالمين بكل شيء ، يجيبون عن كل شيء يسألون عنه ولا يقتصرون على ما برعوا فيه فقط ظناً منهم بأنهم يتكلمون بين جهلاء لا يميزون. ومثل ذلك حصل مع صاعد البغدادي الوافد على المنصور أثناء مناظرة العلماء الاندلسيين له ، فبعد احراجه وتبيان جهله بأمور النحو والغريب ، اعلن ان بضاعته حفظ الاشعار ورواية الاخبار ، وبزّ في هذا المجال احدهم . الا انه سرعان ما بالغ وصار لا يجري في المجلس كلمة الا أنشد عليها شعراً شاهداً أو أتى بحكاية تجانسها . وعندما عرض عليه المنصور كتاب ابي علي القالي النوادر ، ادعى انه بامكانه ان يملي كتاباً أفضل منه ، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه الفصوص . فلما أكمله وتتبعه أدباء الوقت ، لم تمر فيه كلمة زعموا صحتها عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم . فأنهوا ذلك الى المنصور فامتحنه معهم بأن لفقوا اسم كتاب واختلقوا مؤلفاً له وعرضوه عليه ، فأقسم انه قراه بالبلد الفلاني على الشيخ ابي فلان[(١)] .

ولم ينج أبو علي القالي على شهرته من سقطات امام الاندلسيين ، اذ كان يظن ان معارف الاندلسيين ادني من معرفة المشارقة بقدر المسافة بينهما ،

---

(١) أنظر عن موقف الاندلسيين من صاعد ومناظراتهم معه في : الذخيرة ، قسم رابع ــ مجلد اول ، ص ٢ ــ ٣٩ .

وقد نقل عنه ابن بسام في هذا المجال قوله: « لما وصلت القيروان وأنا اعتبر من أمر به من أهل الأمصار فأجدهم درجات في الغباوات وقلة الفهم ، بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة . فقلت ان نقص أهل الاندلس عن مقادير من رأيت في افهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم سأحتاج الى ترجمان في هذه الاوطان[١] » . وكانت اول مفاجأة له ، وهو في طريقه الى قرطبة ، عندما كان ينشد بيتين من الشعر خلال حديث له مع مستقبليه المرافقين . فعاب عليه أحدهم وهو ابن رفاعه غلطة ارتكبها ولوى عنانه منصرفاً « وقال : مع هذا يوفد على امير المؤمنين ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ والله لا تبعته خطوة وانصرف عن الجماعة »[٢] . ويذكر ابن بسام أن أبا علي ، بعد أن تعرف جيداً على الأندلسيين وأحرجوه ، تعجب من ذكائهم « وصار يتغطى عنهم عند المباحثة والمناقشة ، ويقول لهم : ان علمي علم رواية ، وليس علم دراية ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آل لكم ان صححت » .

كذلك انتقد الاندلسيون كتبا مشهورة للمشارقة ، مثل معجم العين إذ الف الزبيدي الذي اختصره كتابين أحدهما « زيادة كتاب العين » والثاني « غلط صاحب العين »[٣] . وحتى الكتب المترجمة صاروا يرون ترجماتها غير وافية ، ويحاولون الاطلاع على الأصول .

ومع هذه الانتقادات التي وجهها بعض علماء الأندلس للمشارقة ، الا أن تفكيراً عاماً ظل يسود الأندلس باعتبار علم المشرق المثال الذي يجب السير نحو بلوغه . وهكذا نجد رجالاً مشاهير من رجال الاندلس يتتلمذون على ابي علي القالي ، كابن القوطية والزبيدي . وظلوا يطلقون على من

(١) المقري ، النفح ، ج ٤ ، ص ١٥٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٣) انظر : القاضي عياض ، ج ٣ ـ ٤ ، ص ٥٨٢ .

يرع عندهم في فن من الفنون اسم شبيهه في المشرق كالقول بأن هذا متنبي الأندلس وذاك أبو تمامها .. كما أن المؤلفات المشرقية ظلت النموذج الذي يحاكيه الاندلسيون ، فقد اعفى الحكم المستنصر أحدهم من الغزاة مقابل « أن يؤلف في أشعار خلفاء الأمويين بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في اشعار خلفاء بني العباس . وخيّره بين أن يكون ذلك في منزله أو ان شاء في دار الملك المطلّة على النهر »[١] .

كما أن الحكم ابتهج لقدرة بعض الأندلسيين على التصدّي للمشارقة بشكل يشتم منه اعتباره للعراق قمة العلم ، وهكذا يرد على ابن رماحس ، الذي شكا له فعل ابن رفاعة وانفصاله عن ركب مرافقي القالي ، بقوله : « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطىء وافد أهل العراق الينا ، وابن رفاعة اولى بالرضا عنه من السخط فدعه لشأنه » . وتدل مواقف الحكم الأخرى على انه كان يرى المشرق متفوقاً حتى في أمور حضارية أخرى ، كما يستنتج من حادثة يرويها أحد اطبائه ، ويقول فيها « وصفت لأمير المؤمنين المستنصر بالله حوانيت رأيتها بالبصرة للطباخين واتقانها وحسن ترتيب الأطعمة ، وأنها موضوعة في غضاير وعليها مسكاب الزجاج، ولهم خدام وقوف بالمناديل والاباريق ، والحوانيت مسطحة بالرخام الملوّن الفائق في الحسن . فركب المستنصر يوماً من الزهراء الى قرطبة وانا في موكبه ، فلما اتى المدّي موضع الطباخين ، نظر الى الحلل التي يطبخ فيها الشحوم فتأملها . فلما نزل القصر ، افتقدني ، فأوصلني الى نفسه ، وقال لي يا أحمد !.. أين هذه الحلل من تلك الغضاير التي بالبصرة ؟ وضحك على ذلك[٢] » . ولم يختف هذا الاعتبار للمشرق كمثال في الثقافة ، خلال العصر التالي بل ظلت النظرة لمن اكتسب علومه في الاندلس دون رحلة

---

(١) انظر : الحميدي ، جذورة المقتبس ، ت ٥٣٣ .
(٢) ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ١١٣ .

الى المشرق وكأن معارفه تشوبها شائبة ، ولو كان في واقع الأمر من المتفوقين على المشارقة ويعبر ابن حزم عن هذا الرأي في معرض التشكي منه بقوله :

أنا الشمس في جـو العلـوم منيرة ... ولكـن عيبي أن مطلعي الغـــرب
ولو أنني من جانب الشرق طالـع ... لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولـي نحـو أكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلـي بينهـم ... فحينئـذ يبدو التأسف والكـرب
فكـم قائـل أغفلته وهـو حاضـر ... واطلب عنه مـا تجيء بـه الكتب
هنـالك يـدري أن للبعد قصـة ... وان كساء العلـم آفته القرب [1]

---

(١) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ٢٩٢ .

تطور العلوم في عصر الخلافة

سيقتصر بحثنا هنا على تلك العلوم التي أصابها تطور كبير في هذا العصر • وسنكتفي بذكر الخطوط العريضة لتطور هذه العلوم دون البحث في تطورها تفصيلاً ، مع التوقف قليلاً عند القمم البارزة في كل منها •

من تلك العلوم التي لم تدخل في هذا العصر ذروة تطورها العلوم الدينية كالحديث الذي استمر في السير في نفس الاتجاه الذي أخذه منذ فترة الازدهار من عصر الأمارة • أما في العلوم القرآنية من قراءات ومعاني وناسخ ومنسوخ فقد شهد العصر دخول أشخاص بارزين في هذه المجالات، الأمر الذي جعله مقدمة للازدهار الكبير الذي سيصيب هذه العلوم في العصر التالي وهو عصر الطوائف •

وفي النحو وعلوم اللغة ، لم يكن مؤدبو العربية ، ولا غيرهم ممن عني بالنحو، على كبير علم بالعربية حتى هذه الفترة، التي يلاحظ فيها تقدم كبير أسهم فيه اسهاماً رئيسياً كل من محمد بن يحيى المهلبي الرباحي سنة ٣٥٣ هـ ، الأندلسي الذي أخذ علمه من المشرق، وأبو علي القالي البغدادي الذي قاد في الأندلس نهضة لغوية ونحوية حصيفة وخلفه مع الرباحي جيل بلغ ذروة الشهرة من أمثال أبي بكر بن القوطية ومحمد بن الحسن الزبيدي صاحب كتاب طبقات النحويين وهما من تلاميذ القالي •

ومن الأمور الجديدة في هذا المضمار أيضاً اهتمام الأندلسيين بالنحو البصري بعد أن صبوا جل عنايتهم في السابق على النحو الكوفي • وافتتح محمد بن يحيى المهلبي الرياحي الاهتمام بكتاب سيبويه ، كذلك كان هذا الكتاب مما حمله أبو علي القالي الذي كان يجنح في الأندلس الى المذهب البصري وينافح عنه مناظراً ومجادلا [١] •

---

(١) انظر : الدكتور شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ٢٨٨ ـ ٢٩٢ •

وإذا انتقلنا من استعراض حالة هذه العلوم الى مجالات أخرى نجد علوماً أخرى ، يمكن القول أنها وصلت الى مرحلة النضج في هذا العصر وظهرت فيها مؤلفات أصبحت نماذج لما تلاها من مثيلاتها أو مصادر أساسية لها وأهمها :

التاريخ • ـ

استمر التأريخ في هذه الفترة في سيره الذي بدأه منذ فترة الازدهار ، يتلقى التأثيرات المشرقية وينسج على منوالها ، وكان النقل الآن يتم على طريقتين وهي النقل الشفهي وروايته في الأندلس • ثم نقل الكتب الهامة مثل كتاب الطبري تاريخ الملوك وتاريخ العلماء ، وكذلك تاريخ الخلفاء للمدائني [1] •

لكن هذا العصر شهد أيضاً تأثيراً جديداً لم يكن معروفاً في العصر السابق ، وهو التأثير المحلي اللاتيني • وهو بذلك يخضع لما خضع له التأريخ في المشرق من التأثر بتاريخ الأمم الأخرى بعد ترجمة كتبها، كتلك التواريخ التي تتعلق بتاريخ الفرس ، وربما جاء هذا التأثير المحلي في التأريخ نتيجة لمعرفة الكثيرين في الأندلس للاتينية وامكانهم الاطلاع على بعض الكتب التاريخية المكتوبة بها • لكن ذلك لا يزال عرضة للتخمين ، والشيء الثابت أن التأثر حصل نتيجة الاطلاع على ترجمة لكتاب هام مشهور من كتب التاريخ الأوربي الوسيط ، وهو كتاب Horosius الذي عرفه العرب باسم هروشيش • وهو رجل دين اسباني شاهد دخول السويف لأسبانيا عام ٤١٥ م ، وانتقل هرباً منهم الى شمال افريقيا حيث لقي القديس اغسطين ، ثم ذهب الى بيت المقدس ، ومنها عاد لموطنه اسبانيا بعد أن اشترك في المنازعات الدينية بين المذاهب المسيحية • وفي طريقه لقي القديس اغسطين مرة ثانية ، وكان هذا قد فرغ من تأليف كتابه المشهور

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ت : ١٦٣٦ و ت : ١٥٧٤ •

مدينة الله ، الذي كان عبارة عن رد على الوثنيين ، الذين ادعوا بأن سقوط روما مرده لتخليها عن آلهتها القديمة واعتناقها للمسيحية ، التي تؤدي لضعف الانسان وابعاده عن العالم وعن خدمة وطنه ، وقد بيّن في رده هذا ، بأن اعتناق روما للمسيحية لا علاقة له بذلك ودحض التهم الموجهة لها . كما عرض نظرية جديدة للتاريخ ، مؤداها أنه عبارة عن صراع بين مدينة الله ومدينة الشيطان ، وان روما كانت عند سقوطها تمثل المدينة الأخيرة ، لذا كان مصيرها الزوال .

بعد اطلاع هروشيش على هذا الكتاب ، ألف « كتب التواريخ السبعة في الرد على الوثنيين » وفيه تمسك بآراء القديس أغسطين في الدفاع عن المسيحية وجعل ارادة الرب محركة للتاريخ ، وقد فصّل في هذه الآراء وفي استخدام الماضي كشاهد على هذه الآراء ، واحتوى هذا الماضي على تاريخ يمتد من آدم حتى سنة ٤١٦ م ، اقتبس الكثير من أخباره عن العديد من الكتاب اللاتين . واحتوى كتابه كذلك على معلومات ، قد تكون اسطورية ، عن ماضي اسبانيا قبل الفتح . كما احتوى على آراء للقدماء تتعلق بصفة شبه الجزيرة الايبيرية مع اضافات من لدنه [١] .

ومن الثابت أن الكتاب ترجم في هذا العصر ، وبقيت الترجمة العربية له حتى عصرنا الحاضر ، لكن بعض الخلاف يدور حول مصدر هذا الكتاب والتاريخ الدقيق لترجمته . فيقول ابن جلجل المعاصر في رواية ينقلها عنه ابن أبي اصيبعة ، ان الكتاب ورد مع سفارة للامبراطور البيزنطي قدمت الى قرطبة في صيف عام ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م ، وحملته معها بالاضافة لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب والأدوية المفردة . وقد كتب الامبرطور البيزنطي للخليفة الناصر « أن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية ،

---

(١) _ F. J. Perez de Urbel, Las Letras en la Epoca visigoda. (H. E. vol. III) P. 436-440.

فان كان في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني ، وان كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني الى اللسان العربي [(١)] » •

أما الباحث ج • دلافيدا ، فيرى من بحثه عن النسخة الوحيدة من الترجمة العربية لكتاب هروشيش ، انه لا يوجد ما يدعو للشك في ورود الأصل اليوناني لكتاب ديسقوريدس ، لكنه يستبعد اهداء الامبراطور البيزنطي لعبد الرحمن الناصر نسخة من كتاب هروشيش ، لأنه من المستحيل،أو على الأقل من المستبعد ، وجود مخطوطات لاتينية بالقسطنطينية آنذاك • كما أن ابن خلدون يذكر أن من نقله الى العربية هو قاسم بن اصبغ وقاضي النصارى ، ومن المحتمل أن تكون الترجمة قد تمت بالتعاون بين الاثنين ، على أساس قيام قاضي النصارى بافهام ابن اصبغ بالموضوع باللغة الدارجة في الأندلس ، وقيام ابن اصبغ بصياغته في قالب عربي فصيح • لكن قاسم بن اصبغ توفي سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م ، واختلط ذهنه قبل ذلك بحوالي أربع سنوات ، أي قبل وصول السفارة بسنة واحدة أو في سنتها ، لذا من المستبعد قيامه بترجمة سفر كبير وهو على هذه الحال• لذا يرى الباحث المذكور أن يكون وصول كتاب هروشيش مع هذه السفارة مختلقاً ، ويرجح أن تكون الترجمة قد تمت قبل ذلك بعدة سنوات [(٢)] •

ومما يضعف رأي هذا الباحث ، أن صاحب الرواية في انتقال هذا الكتاب من القسطنطينية وهو ابن جلجل ، تتوفر له جميع الظروف التي تجعله صادقاً : فهو معاصر ومقرب من الحكم الذي كان مشرفاً على الحركة العلمية في القصر آنذاك ، كما أن لابن جلجل دراسة عن كتاب ديسقوريدس المرافق •

---

(١) ابن أبي اصيبعة ، عيون الانباء ••• ، ج ٢ ، ص ٤٨ •

(٢) انظر عن هذه المقالة : حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٣٢ ـ ٣٧ وفؤاد سيد ، من المقدمة لتحقيق كتاب ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء •

ومهما يكن من أمر تاريخ الترجمة والمصدر الذي جاء منه الكتاب فانه أثر على المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين وعبر تأثيره عن طريقهم الى من أخذوا عنهم من المشارقة ، وخاصة فيما يتعلق بماضي اسبانيا من جهة ووصفها من جهة أخرى اذ نقلهما الرازي عنه ، ونقلها المشارقة عن الرازي كما أن هذا التأثير لم يكن وقتياً اقتصر على القرن الرابع الهجري ، بل نجد ابن خلدون الذي عاش بعد زمن الترجمة بما يقرب من ثلاثة قرون ونصف ، يقتبس منه أيضاً فيما يتعلق بتاريخ الأنبياء(١) • لكن هذا الكتاب ، شأنه في ذلك شأن كتب التاريخ التي عرفها العرب في المشرق ، لم يزود الأندلسيين بضرب من ضروب التاريخ أو فن من فنونه فيقلدوه ، وانما زودهم بمعلومات عن فترة محدودة أخذوها منه ، ليملأوا بها فجوة من اطار تاريخي ، اضطرهم فن من فنون الكتابة التاريخية التي ساروا عليها الى ايجاده •

أما هذه الفنون التاريخية فقد بقيت في أغلبها أنماطاً مشرقية قلدوها مثل تواريخ أو كتب رجال الحديث (٢) • أو كتب طبقات شملت كل المشتغلين في نواحي المعرفة تقريباً ، من النحويين الى الأطباء الى الكتاب والشعراء • اذ ألف عدد من الأندلسيين كتاباً لكل نوع من هؤلاء طبقوهم فيه (٣)• كذلك هناك كتب أخبار لكل فئة من هؤلاء العلماء (٤) • وهناك تواريخ مدن ، بعضها ديني مشتق على ما يبدو من كتب الرجال والمحدثين لأنها تصنف هؤلاء حسب بلادهم ، وعندما يفصل رجال كل بلد ويقدم

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ، ص ٨٨ •

(٢) انظر ترجمة احمد بن سعيد بن حزم في : الحميدي ، جذوة المقتبس ، ت ٢١٣ • ابن الفرضي ، تاريخ العلماء ••• ، ت ٣٥٢ و ١٦٠٧ •

(٣) من الكتب المشهورة من هذا المجال،طبقات النحويين للزبيدي،طبقات الأطباء لابن جلجل ، طبقات الشعراء لعثمان بن ربيعة ، طبقات شعراء الأندلس لعثمان بن سعيد الكتاني • طبقات الكتاب للأقشتين ، وطبقات الكتاب لسكن بن سعيد •

(٤) لعل أشهر الكتب من هذا المضمار : أخبار القضاة والفقهاء لابن عفيف ، وأخبار الشعراء لمحمد بن هشام • واخبار شعراء الأندلس ، لعباد بن عبد الله بن ماء السماء •

لهم بمقدمة عن صفة مدينتهم وفضلها وفتحها يصبح تاريخاً للمدينة [١] ، وبعضها الآخر عاماً يذكر فيه المؤلف كل ما يتعلق بالمدينة من وصف لها وذكر لحصونها وتعداد لولاتها وأخبار عن حروبها وفقهائها وشعرائها [٢].

ومن الفنون التاريخية التي ظهرت في الأندلس أيضاً ، تواريخ الحوادث كتلك التي ألفت عن أخبار مشاهير الثوار في العصر الذي يسبق عصر الخلافة مباشرة ، مثل ابن حفصون وابن مروان الجليقي [٣] . كذلك كتب الأنساب ويتصل بها تاريخ عائلة أو قوم كالكتب التي ألفت عن أنساب الطالبين ، ودولة بني مروان ، وأخبار بني العباس [٤] . هذا عدا عن الكتب التي كرّست لذكر دولة العامريين وأشرنا اليها قبلا .

تتسم كل الأنماط السابقة ، بأنها تواريخ مخصصة أو جزئية وقد ظهرت الى جانبها كتب تواريخ عامة بعضها يشمل ديار الاسلام كلها وبعضها الآخر يقتصر على الأندلس وذكر دول الملوك فيها . فمن النوع الأول كتب عريب بن سعيد (ت ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م) المولد ومن موالي الأمويين صلة لتاريخ الطبري تحتوي على أخبار للمشرق والمغرب والأندلس على السواء [٥] . وأما النوع الثاني فلعل أشهر من برز فيه الرازي ، الذي سنتوقف عند عائلته قليلا لما لها من شهرة في مجالي التاريخ والجغرافية . وكذلك عند ابن الفرضي لأنه سار على طريقة ستصبح نموذجاً يسير عليه كتاب أندلسيون حتى نهاية تاريخهم .

عائلة الرازي والتاريخ . –

بدأ ظهور هذه العائلة منذ اتصال محمد بن موسى الرازي بالأمراء

---

(١) يمكن ان يعتبر نموذجاً لهذا النمط ، كتاب فقهاء قرطبة لأحمد بن عبد البر .

(٢) انظر كمثل عليها ما ألفه اسحق بن سلمة القيني ، أخبار رية ومحتواه عند الحميدي . جذوة المقتبس ، ت ٣٠٩ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ت ٦٨٧ ، و ت ٦١٩ .

(٤) انظر ، ابن الأبار ، تكملة ج ٢ ، ت ١٩١٣ . و ت ١٧٤١ . و ٧٢٨ .

(٥) انظر مقدمة نشرة دوزي للبيان المغرب ، ص ٣١ وما بعدها .

الأمويين في فترة ازدهـار الأمارة بعد قدومه من الري ، من بلاد فارس • وفي عصر الخلافة يبرز ابنه أحمد ككاتب في أكثر من فن من فنون الكتابة التاريخية • فقد كتب في الأنساب مؤلفاً باسم « أنساب مشاهير أهل الأندلس » في خمس مجلدات ضخمة • ورغـم أن الكتاب لم يبق الا أن ضخامته تدعو للظن بأنه ربما لا يقتصر على مجرد أنساب فقط بل ذكر تاريخ عام رتبت أحداثه عـلى أساس الأنساب كما فعل البلاذري المشرقي في كتابـه أنساب الأشراف • كما ألف في صفة المدن وتاريخها كما أن ابن حزم يذكر كتاباً له في صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها • وهناك كتاب آخـر عام للملوك الأندلس باسم أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وركبانهم وغزواتهم ويوجد الآن كتاب معروف في الاسبانية باسم Cronica del Moro Rasis (أخبار العربي راسيس) ، يحتوي على مقدمة فيها صفة اسبانيـا ، وقسم ثان يبحث في تاريخ اسبانيا منذ أبناء نوح حتى لذريق ، وثالث عن تاريخها حتى الحكم المستنصر [١] • ورأى البعض أن كلمة راسيس تحريف لكلمة الرازي ، واعتبروا أن هذا الكتاب عبارة عن ترجمة لكتاب أو كتب الرازي الا أنه من المرجح أن هذا الكتاب ليس من انشاء مؤلف واحد في الأصل ، فوصف اسبانيا قد يكون للرازي وهو منقول عن ترجمة برتغالية للأصل العربي المفقود • أما القسم الثاني فربما يكون من تأليف المترجم • ورغم أن القسم الثالث يحتوي على التاريخ الاسلامي الا أنه عرض عام سطحي لتاريخ الأندلس ولا يتفق مع الوصف الذي تركه ابن حزم وغيره لكتاب الرازي هـذا •

بعد وفاة أحمـد الرازي ، حمل رايـة التاريـخ بعده ابنه عيسى ، وينسب له كتّاب التراجم كتابين : « تاريخ الأندلس » و « تاريخ حجـاب الخلفاء في الأندلس » • وقد عرف الرازي الأخـير أكثر بكثير من أبيه ومن جده لأن كتبه ، وان ضاعت الا أن المؤرخين التالين له قد اقتبسوا منها

---

(١) . Pons Poigues, Historiadores y Geografos ..., P. 64-65

فقرات طويلة نجد العديد منها فيما نشر من المقتبس لابن حيان وفي نفح الطيب ، يمكن أن تزودنا بفكرة عن محتوى كتابه وطريقته في الكتابة التاريخية • ومنها يستنتج أن كتاب عيسى في تاريخ الأندلس ، لم يكن صلة أو تكملة لكتاب أبيه ، لأن بعض هذه المقتبسات تتناول الفترة الأولى من تاريخ العرب المسلمين في الأندلس [١] •

ابن الفرضي • ــ

هو عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي (٣٥١ـ٤٠٣ هـ) عرف عنه ولعه بسماع العلم وجمع الكتب ، وتقلد وظائف تتعلق بقراءة الكتب في الدولة العامرية [٢]• أكثر مؤلفاته شهرة وأهمية هو « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » • وقد أشار في مقدمته الى مضمونه العام بقوله « هذا كتاب جمعناه في فقهاء الأندلس وعلمائهم ورواتهم وأهل العناية منهم » ونلاحظ ضمنه أنه عبارة عن كتاب تراجم يشمل الفئات التي ذكرها كما يحتوي على شعراء ولغويين ، وربما قصد شمولهم بقوله أهل العناية • كما ذكر في مقدمته ما تتضمنه كل ترجمة بقوله « وعرضنا فيه ذكر أسماء الرجال وكناهم وأنسابهم ، ومن كان يغلب عليه حفظ الرأي منهم ، ومن كان الحديث والرواية أملك به وأغلب عليه ، ومن كانت له الى المشرق رحلة ، وعمن روى ومن أجلّ من لقي ، ومن بلغ منهم مبلغ الأخذ عنه ، ومن كان يشاور في الأحكام ويستفتى ، ومن ولي منهم خطة القضاء • ومن المولد والوفاة ما أمكنني» [٣] •

ترجع أهمية الكتاب لا الى ما احتواه من أخبار عن الأشخاص فقط ، وانما للطريقة التي اتبعها في الكتابة ، اذ لم يقصر تراجمه على فئة كما كان حال الكثيرين قبله ، كما أنه لم يطبقهم ، وانما استخدم اسلوب ترتيب

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٢ •
(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ٥٧١ •
(٣) انظر : مقدمة كتابه ، ص ٨ ــ ٩ •

تراجمه على أساس المعجم أي رتبهم حسب الحروف الهجائية • وطبقهم ضمن الحرف الواحد بحيث يورد من توفي قبلا • وظل هذا الكتاب نموذجاً حاك على منواله آخرون طيلة فترات التاريخ الأندلسي • ففي القرن السادس الهجري يكتب ابن بشكوال « كتاب الصلة » ويقصد الصلة لتاريخ ابن الفرضي ويقول انه « ابتدأ به من حيث انتهى كتاب ابن الفرضي ورتبه على رسمه وطريقته » • وفي القرن السابع يقوم ابن الأبار في شرق الأندلس فيكتب كتاب « التكملة لكتاب الصلة » على نفس الطريقة • ويقوم ابن الزبير في غرناطة بكتابة كتابه « صلة الصلة » •

وفي القرن الثامن الهجري يسلك ابن عبد الملك المراكشي نفس السبيل ، في كتابه « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » •

الجغرافية عند الاندلسيين • ـ

اسهمت عدة عوامل في ظهور الكتابة والتأليف في الجغرافية عند الأندلسيين منها التأثير المشرقي الذي قدّم انماطاً من التأليف ، حذا بعضهم حذوها • ومنها أيضاً تأثير الترجمة والاطلاع على المؤلفات اللاتينية ، مما قدّم معلومات غزيرة عن بيئة الأندلس لنشوء جغرافية البلدان فيها • كما أن الازدهار التجاري وما استدعاه من ترحل بعض الناس ، وكذلك النشاط الملاحي ساعدا على ظهور كتب الرحلات الجغرافية • برزت في كل ميدان من الميادين المذكورة شخصية بارزة ، تجاوز تأثيرها بيئتها وعصرها ، وخاصة من ناحية ما قدمته من معلومات ، لتصبح مصادر ثمينة من الناحية التاريخية والجغرافية ، في العصور الوسطى والعصور الحديثة على حد سواء • كذلك كان التاريخ يمتزج بالجغرافية ، فبعض المؤلفين كتبوا في الجهتين مثل الرازي والوراق ، كما انهم كانوا كثيرا ما يتعرضون لتاريخ المكان الذي يصفونه ، عندما يكتبون كتباً في جغرافية البلدان •

أحمد الرازي وجغرافية البلدان • ـ

يعتبر احمد الرازي اول كاتب لجغرافية البلدان في الاندلس • فقد

اعتمد على ما كتبه هروشيش ، الذي اشرنا لترجمة كتابه قبلا ، وعلى كتّاب لاتين آخرين ، وربما على مشاهداته وخبراته ايضاً ليضع وصفاً كاملا لشبه الجزيرة الايبيرية ، من تحديد مكانها حسب الأقاليم (الأحزمة العرضانية التي قسم اليها الجغرافيون العرب اعتماداً على الأوائـل القسم المعمـور من الارض شمال خط الاستواء) ، ثم شكلها ومناخها ما بين متوسطي واطلسي ، وكذلك انهارها وجبالها وجغرافيتها السياسية والبشرية • ويظهر انه جعل هذا الوصف مقدمة لكتابه التاريخي ، وقد ضاع الأصل وبقيت عنه تلك المقتطفات المقتبسة في مؤلفات العرب الجغرافية والتاريخية • كما بقيت له ترجمة شبه كاملة ، لا يمكن الثقـة بدقتهـا وهي الترجمة البرتغاليـة التي نقلت الى الاسبانية ، كما نشر باحث حديث ترجمة لها بالفرنسية بعد تصحيح العديد من الاخطـاء ، مستعينا بما اقتبس من الاصـل العربي أو الترجمـة الأصلية[1] •

وقد اصبح وصف الرازي لاسبانيا مصدرا اساسيا للجغرافين العرب الذين تلوه ، على تعدد الفروع التي كتبوا بها • وانتقلت لهم حتى باخطائها الموروثة عن هروشيش ، كالقول بأن شبه الجزيرة الايبيريـة ذات شكـل مثلث ، وهو خطأ لم يصححـه الرازي ، كما صحح اخطاء أخرى له بنـاء على خبراته ومشاهداته •

محمد بن يوسف الوراق والمسالك • —

معاصر للرازي ، من أصل أندلسي لكن أسرته عاشت في القيروان ، ثم عاد للوطن الام ليعيش في كنف الحكم المستنصر ويؤلف له جملة مـن المؤلفات التاريخية مرّ معنا ذكرها قبلا ، ومؤلفاً جغرافيـاً يعتبر اول كتاب في المغرب الاسـلامي يبحث في المسالـك والممالـك ، وهو فن معروف في

---

(١) انظر هذه الترجمة في : E. Lévi-Provençal. La « Description de l'Espagne » de Razi (Al-Andalus, vol. XVIII, Fasc. 1, p. 51-108)

الجغرافية عند العرب • ولو أن ما اشتهر فيما بعد كان عاماً ، في حين كان كتاب الوراق « كتاباً ضخماً في مسالك افريقيا وممالكها » فقط •

لكنه اصبح مصدراً أساسياً لهم فيما يتعلق بهذه المنطقة ، وقد اعتمد عليه البكري ، الى حد أصبح من الصعب التمييز في القسم المتعلق بشمال افريقيا من كتابه ما هو له وما هو للوراق • وقد ضاع كتاب الوراق وحفظت لنا مقتبسات البكري ما حفظت فدلتنا على طريقته في الكتابة • ومنها نستنتج ان الوراق اعتنى بذكر الاماكن ومنتجاتها والطرق المؤدية اليها والتي تصلها بغيرها ، وكذلك ركز على ذكر علاقاتها ، وخاصة التجارية مع الأندلس ، واعتنى بالاشارة للطرق البحرية بينهما •

ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي وكتب الرحلات • ـ

اندلسي من طرطوشة ، ويرجح ان يكون مسلماً من أصل يهودي • كان يشتغل بتجارة الرقيق ، كما عرف بعلمه في الخطوط وأخبار العالم المحيطة به من سياسية واقتصادية ، وبحبه للكتب وجمعه لها على عادة كثيرين من التجار الاندلسيين المعاصرين له •

رحل الطرطوشي الى عدة بلدان أوربية،قابل خلالها البابا يوحنا الثاني عشر في روما عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م وبعدها بثلاث سنوات قابل الامبراطور اوتون في ماغدبورغ ، حيث التقى أيضاً بسفارة من قبل ملك البلغار • ثم عاد الى الأندلس ليكتب عن رحلته عام ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م • وربما ليقدمها للحكم المستنصر(١) •

لقي كتابه مصيراً كمصير كتب الجغرافيين الاندلسيين المعاصرين ، اذ ضاع وبقيت مقتبسات منه عند البكري من رجال القرن الخامس الهجري والقزويني من رجال القرن السابع • وقد وجد انه من الصعب استخلاص خط سيره في رحلته من خلال هذه المقتبسات ، وان اعتبرت ثمينة نظرا

(١) A. Al-Hajji, Andalusian Relations ...., p. 271.

للمعلومات التي تكاد تكون فريدة من نوعها ، عن وصف بعض المدن الاوروبية الساحلية او القريبة من الساحل في فرنسا وهولندا والمانيا (حسب التسميات الحالية) وكذلك عن امارات الصقالبة في اوربا العصور الوسطى ، والواقعة في بلغاريا وبولندا وبلاد التشيك • كما يعثر فيها على وصف لما شاهده في جنوب بحر الخزر ، وللتجار العرب الذين لقيهم في المانيا مقبلين من بلاد المجر ، وهم يحملون من هناك الدقيق والقصدير والفراء • وأخيرا فان هذه المقتبسات احتوت ايضا على وصف لشبه الجزيرة الايبرية لا يقل في القيمة عن وصف المناطق الاخرى •

ومما يتصل بالرحلات ، الرحلات البحرية في المحيط الاطلسي • وربما ساعد عليها تكوّن الخبرات لدى الاندلسيين عن هذا البحر منذ فترة الازدهار من عصر الامارة ، والتحسين في صناعة السفن المتمثل في بناء أنواع منها ، هي القراقير الصالحة للابحار فيه • ولا نقصد بالرحلات تلك التي تقوم بين الشواطيء البحرية الاندلسية والمغربية بقصد الحرب أو التجارة ، وانما المغامرات عبره بغاية الكشف عن مجاهله • وفي هذا المجال لا نملك الا قصصاً تحتوي على معلومات غير دقيقة ولا محددة مثل رواية المسعودي الشائعة في الاندلس عن احداث قرطبيين ويقول فيها « ويذهب قوم الى ان هذا البحر اصل ماء سائر البحار وله أخبار عجيبة قد اتينا على ذكرها في كتابنا في اخبار الزمان ، وفي اخبار من غرّر وخاطر بنفسه ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا ، وإذ منهم رجل من أهل الاندلس يقال له خشخاش وكان من فتيان قرطبة واحداثهم فجمع جماعة من احداثها وركب بهم في مراكب استعدها فيهذا البحر المحيط فغاب فيه مدّة ثم انثنى بغنائم واسعة وخبره مشهور عند اهل الاندلس[١] » •

وتحتوي قصة المغرورين التي يرويها الادريسي وقائع اكثر داخل البحر وجوهرها ان ثمانية اخوة عزموا على ركوب بحر الظلمات ليعرفوا

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٥ •

ما فيه والى اين انتهاؤه فأبحروا مع الريح الشرقية مدة أحد عشر يوما الى موضع صخري مخيف شديد الظلمة ، ثم اتجهوا جنوبا مدة اثنى عشر يوما الى ان بلغوا جزيرة الغنم فأبصروا قطعانا هائلة منها ، ثم توغلوا اثنى عشر يوما أخرى في نفس الاتجاه حتى بلغوا جزيرة أخرى فأسرهم أهلها وكانوا ذوي بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وطوال القامة • وعندما بدأ هبوب الريح الغربية امر سيد الجزيرة بترحيلهم معصوبي الاعين الى القارة التي بلغوها بعد ابحار ثلاثة أيام بلياليها • وهناك علموا من البربر أنهم بجنوبي مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم ، وكان موضع نزولهم البقعة التي قامت بها فيما بعد مدينة آسفي •

وقد لقيت هذه القصة اهتماماً لدى باحثين متعددين ، لذا كثرت التحليلات لها والتعقيبات عليها • فمن قائل ان لها قصة مثيلة اوربية تنتمي للأدب الشعبي ، ويستنتج البعض ان زمانها القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي لان محتواها يدل على قيامها قبل بناء مدينة آسفي • كما ظهرت فرضيات متعددة حول الجزر التي وصل اليها المغرورون ، قد تصل عند غير المتخصصين للقول بان العرب وصلوا الى العالم الجديد ، بينما قامت فرضيات اكثر اعتدالا تقول بأن الجزيرة الاولى هي جزيرة ماديره ، أما الثانية فهي احدى جزر الكناري • ومهما يكن من أمر حقيقتها ، فان شيوعها في تلك المنطقة قد اسهم في الحث على الرحلات التي قام بها الملاحون الأوربيون وتوجت باكتشاف أميركا في مطلع العصور الحديثة ، ولا يخفى ان السفن المكتشفة قد اقلعت من نفس المنطقة • وحتى اسم الجماعة التي قامت بهذه المغامرة كان عرضة للاجتهادات بين « مغرورين » و « مغررين » أو « مغرّبين » أي ضاربين في الغرب [1] •

---

(١) كراتشكوفسكي ، الأدب الجغرافي عند العرب ، ج ١ ، ص ١٣٦ــ١٣٧ •

مدرسة ابن مسرة وظهور الفلسفة . ـ

شهد عصر الخلافة دخول النتاج الفلسفي للأندلس ، على نطاق واسع جداً . وربما كان ذلك نتيجة للاقبال على العلوم بجميع أنواعها ، وبالتالي التسامح تجاه مالم يكن الفقهاء يوافقون عليه من علوم الأوائل ، التي كانت مندمجة بالحكمة أو الفلسفة . ولذا دخلت الاندلس كتب فلسفية صرفة ، اضافة لما دخل من المبادىء الفلسفية في ثنايا الكتب العامة أو في آراء المتصوفين التي خالطتها آنذاك ابحاث لاهوتية فلسفية .

وظهر في الاندلس اثر ذلك ، رغم كل العداء للفلسفة ولعلم الكلام فيها مذهب خاص فيه عناصر اعتزال وتصوف مع مايحتويه من افكار فلسفية ، وارتبط اسم هذه المذهب بامامه ابن مسرة محمد بن عبد الله .

كان والده واحدا من قلائل مالوا للاعتزال في نهايـة عصر الامارة ، وكانوا يوصفون بأنهم يقولون بالقدر ، اي بخلق الانسان لافعاله ، وهو مبدأ من مبادىء الاعتزال معروف ومشهور ، وربما كان الاب قد آمن بهذه الفكرة خلال رحلته للمشرق برفقة اخيه ، ولكنه لم يتميز عن الآخرين المشتركين في هذا الرأي ، سوى بكونه اشقر شديد الحمرة مما جعل احد شيوخه في البصرة يحذره مازحا « اياك ان يبيعك اهل البصرة يا صقلبي »(١) ، وربما زودت ميول الأب ابنه بأفكار الاعتزال ، والاهم منها دفعته باتجاه فكري معين ، فتعمق به وبلوره في مذهب متكامل .

يحتوي هذا المذهب على المبادىء التي أجمع عليها أهل الاعتزال من القول بقدرة الانسان عـلى خلق أفعاله ، أو مـــا يسمى القول بالقـدر أو بالاستطاعـة وانفاذ الوعيد ، بمعنى معاقبة الله لمـن يعصي حسب وعيـده ،

---

(١) انظر عن مذهب ابن مسرة : ابن الفرضي ، تاريخ العلماء ، ت ٦٥٢ـ١٢٠٤ ، الزوزني ، مختصر من كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء ، للقفطي ، ص ١٦ ، ابن حزم ، الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٨ـ٢٠٠ ، صاعد الطليطلي ، طبقات الامم ، ص ٢٨ـ٢٩ و

Asin Palactos, Aben Massarra y su Escuela : M.C. Hernandez, La Filosofía Arabe, p. 141-160.

وبتنزيه وحدانية الله عن الشريك ، وفي هذا المجال كان ابن مسرة يقول بأن صفات الله هي عين ذاته ، فاذا قلنا قادر فهو قادر بذاته ، عالم بذاته لا بقدرة أو علم خارجين عن الذات • وهذه الأفكار في الأصل تنسب لأبيذقليس (امبيدوكليس) اليوناني، وقال بها في المشرق أبو الهذيل العلاف أحد كبار المعتزلة ، حسب قول القفطي • الذي يقول في معرض الحديث عن ابن مسرة وأخذه من هذا الفيلسوف اليوناني « والمشتهر من أمر ابيذقليس أنه أول من ذهب الى الجمع بين معاني صفات الله تعالى وانها كلها تؤدي الى شيء واحد • وأنه ان وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة، بل هو الواحد بالحقيقة الذي لا يتكثّر بوجه ما أصلا بخلاف سائر الموجودات ، فان الوحدانيات العالمية معرّضة للتكثر اما بأجزائها أو بمعانيها واما بنظائرها • وذات الباري سبحانه وتعالى متعالية عن هذا كله » •

ولكي لا تتعارض صفات الكمال التي هي جزء من الذات مع القول بالاستطاعة يميز ابن مسرة بن علمين بالنسبة للذات الالهية ، العلم بالعموميات وما يسميه بعلم الكتاب وهو علم الغيب ، كعلمه بأنه سيكون كفار ومؤمنون والقيامة والجزاء ونحو ذلك • والعلم الثاني هو « علم الجزئيات وهو علم الشهادة وهو كفر زيد وايمان عمرو ونحو ذلك ، فانه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئاً حتى يكون » وهنا يلاحظ أن علم الله بمصير الناس من حيث الكفر والايمان معناه التسيير ، و هذا يتناقض مع القول بقدرة الانسان على خلق أفعاله • واذا ما وردت آية يدل ظاهرها على عكس هذه المبادىء كان ابن مسرة يفسرها تفسيراً تأويلياً ، ككل المعتزلة •

كذلك كان لابن مسرة نظر في خلق الله للعالم ، أو نشوء الكثرة عن الوحدة ، وأفكاره هنا مقتبسة عن الأفلاطونية الحديثة من حيث القول بحدوث ذلك بواسطة سلسلة من الفيوضات عن الأول ، تختلف مكانة الكائنات الحادثة بنتيجتها بحسب قربها من الأول أو بعدها عنه • وتنتهي

بالأجسام المادية التي هي أقل الكائنات نصيباً من الأول ، وبالتالي أحطها •

يرى ابن مسرّة أن الانسان مخيّر في أفعاله،ولذا فان مصيره وبلوغه السعادة الأبدية مرهون بأعماله • ولذا قدّم طريقة للحياة مبنية على أسس من الأفلاطونية الحديثة التي اقتبسها الصوفيون المسلمون من أمثال ذيالنون المصري والنهرجوري • وبموجب هذه الأسس فان النفس التي تنتمي الى مرتبة من الخلق أكثر كمالا تلوثت بالتصاقها بالجسد ، وتتوق للتحرر من ذلك • ولتحقيق ذلك على الانسان أن يتبع طريقة حياة معينة قائمة على تعذيب النفس والصيام والفقر والصمت والتواضع والصلاة الدائمة وخدمة الله والصبر ومحبة الغير والتوكل على الله وقبل كل شيء محاسبة النفس • وعندما تطهر النفس بهذه الوسيلة الروحانية تكتسب هذه الروح الانسانية فضيلة مشابهة لروح النبوة • لأن النفس المتخلصة من كل نقص ينعكس فيها العلم الالهي ، كما تعكس المرآة الصافية صور الأشياء ، وبذلك تستطيع معرفة المستقبل ، وتحقيق المعجزات والشفاعة للخلق أمام الله •

أما عن ثواب الآخرة ، فان هذه النفس لا تتلقى في الآخرة ثواباً ولا عقابا محسوسا ، لأن السعادة الأبدية تكمن في انفصال الروح عن الجسد وقطع كل ما يربطها بالمادة وبالشر •

انتشار مذهب ابن مسرّة • ـ

تكاملت هذه المبادىء خلال مرحلتين من حياة محمد بن عبد اللهمسرّة أولهما أواخر أيام عصر الامارة ، على الأرجح ، فاتهم بالزندقة وخرج فاراً ، وتردد بالمشرق مدة ، واشتغل أثناءها بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم رجع الى الأندلس في أول عصر الخلافة على ما يعتقد ، مستفيداً من التسامح الذي حلّ أثناءها • وعاش العيش الذي دعا اليه في متعبد بجبل قرطبة ، كان يفيده بنفس الوقت كمخبأ بعيد عن السلطة وكمقر لدعوته السرية • ويظهر أن عدد أتباعه أضحى كبيراً ، خاصة وان البعض

اتبعوه لمجرد علمه وزهده ، وظل على هذه الحال حتى توفي عام ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م ، ولم يتجاوز عمره الخمسين عاما . ومما يجلب الانتباه هو عدم ملاحقة السلطة له أو محاكمته ، الأمر الذي يثير التساؤل عن السبب ، فربما كان تسامح الخلفاء ، وربما ولاؤه نسباً للأمويين ، وربما لكثرة المعجبين بتقاه وورعه ، وليس بمستبعد أيضاً أن يكون الكف عن الملاحقة نتيجة لهذه الأسباب مجتمعة . لذلك انتشرت أفكار ابن مسرة أثناء حياته وبعد وفاته . وبدأ الاضطهاد منذ أواخر سني الناصر[١] ، واشتد أيام استبداد ابن أبي عامر ، وتولى المحاربة القاضي ابن زرب الذي تولى القضاء ما بين عامي ٣٦٧ – ٣٨١ هـ وأخذ « يطلب أصحاب ابن مسرّة والكشف عنهم ، واستتابة من علم أنه يعتقد بمذهبهم وأظهر للناس كتاباً حسناً وضعه في الرد على ابن مسرّة ، (وحدث) أن استتاب جملة جيء بهم اليه من أتباع ابن مسرّة ، ثم خرج الى جانب المسجد الجامع الشرقي ، وقعد هناك ، فأحرق بين يده ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه وهم ينظرون اليه في سائر الحاضرين[٢] » وهذا يعني أنه حدثت ضدهم حملة تفتيش شملت الأشخاص والكتب . ومع ذلك لم يقض على مدرسة ابن مسرّة، بل اننا نجد عند كتاب التراجم اشارات لمن يعتقدون بمذهب ابن مسرّة حتى بعد مضي قرن على وفاته . وسمع الناس بخبره في المشرق حتى ألفت الكتب هناك في الرد عليه .

وقد تجمع هؤلاء في مركزين أولهما قرطبة حيث تجمع هؤلاء حول عائلة منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة لعبد الرحمن الناصر ، وكان الزعماء أولاده، الذين بقي منهم من قتل أيام الفتنة وزوال حكم العامريين[٣] .

أما المركز الثاني والأهم فهو مركز بجانة الذي برز فيه اسماعيل بن عبد الله الرعيني ، الذي أعطى بعض مبادىء المذهب تفسيرات جديدة في

---

(١) أنظر عن اضطهادهم أيام الناصر والمنشور الصادر عنه في مهاجمتهم سنة ٣٤٥ هـ في : المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية ، ورقة ٢٠ .

(٢) النباهي ، المرقبة العليا ، ص ٧٨ .

(٣) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٦٨ .

تنظيم الجماعة ومركز امامها فيها ، كذلك دخلت المذهب في بجانة أفكار اجتماعية ، وربما تأثر في ذلك بالجو الذي سيطر آنذاك على الأندلس وهو جو الفتنة والنزاع الطبقي • فقد أصبح للمسريين في كل مركز امام يرأس الجماعة واليه يحملون زكواتهم وكذلك العشر •

ادعى الرعيني بوصفه إماماً حقه في تفسير أقوال الامام الأول ابن مسرة • ومن جملة ما فسره في صفة الامام، أن العارفين يستطيعون الوصول الى مرحلة الكمال الروحي ، التي تنتقل به الى الخلاص النهائي وبذلك يبلغ مرتبة النبوة • وتطرق أتباعه فجعلوه يفهم لغة الطير ، كما أنكر البعث بالأجساد وانما قال بأن البعث هو تخلص الروح من البدن ، أما العالم المادي المخلوق فهو خالد لا يزول • ومن الناحية الاجتماعية نادى الرعيني بأن المسريين وحدهم على حق ومن لا يشاركهم معتقداتهم كافر ، ولذلك من حقهم أو بالأحرى من واجبهم محاربتهم وانتزاع أموالهم منهم • لكنهم لم يستطيعوا تنفيذ ما ينادون به ، اما لعدم رغبتهم أو لعجزهم عن ذلك ، وهو الأرجح • لذا حاولوا تطبيقها على أنفسهم وكان اعتقادهم أن امتلاك الأملاك هو العائق على درب الخلاص ، وعلى المؤمن الزاهد ألا يحتفظ الا بالحد الأدنى الذي يقوم بأوده • وعلى هذا فان من يملك ثروة أكثر من هذا يعتبر حراماً مهما كان مصدره • بينما يحق لمن لا يملك ما يقيم الأود أن يحصل عليه بأي وسيلة حتى بالقوة أو بالسرقة • وقد نقل رأيهم هذا ابن حزم عمن عرف باطن أمورهم بقوله « كان يذهب الى أن الحرام قد عم الأرض وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث أو بين ما يكتسبه من الرفاق • وان الذي يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيف ما أخذه » •

العلوم الطبيعية والرياضية

اعتمد الطب عند العرب عموماً ، على الطب عند اليونان بشكل رئيسي، وقد كانت كتب ابقراط وجالينوس المترجمة للعربية المنهج الأساسي لتعليم

الطب عندهم ، لكن العرب لم يتوقفوا مع ذلك عند حدود ما أخذوه عن اليونان ، بل انهم نظموا هذا التراث بمجموعه منهجياً ، وأضافوا اليه ملاحظاتهم ، كما وصفوا العديد من الأمراض التي لم يعرفها اليونانيون • وفي مجال الأدوية أسهموا اسهاماً أكبر وتجاوزوا اليونان واللاتين بمسافات بعيدة •

كان للأندلسيين دور نشيط في هذه العملية • أما من ناحية اكتساب العلوم الطبية فقد أخذوا الطب عن حران أول الأمر بقدوم حراني الى الأندلس ، منذ فترة الازدهار من عصر الامارة ، وكانت آنذاك مركزاً من مراكز التعليم للثقافة اليونانية •

وفي عصر الخلافة،موضوع بحثنا ، أخذ الأندلسيون يذهبون للمشرق والى بغداد بالذات التي انتقل اليها مركز هذا التعليم للثقافة اليونانية الأصل، كما يقول المسعودي [1] وقد أمضى اثنان من الأطباء الأندلسيين مدة عشر سنوات في هذه الدراسة ، وقضى آخر ثلاث عشرة سنة في المشرق [2] ، وعمل أثناءها في تدبير شؤون بيمارستان في الفسطاط • اضافة لذلك أخذ بعض الأندلسيين الطب عن القيروان ، التي ازدهرت فيها دراسة طبية ذات أصل يوناني أيضا ، دشنها وباشر بها طبيب استقدمه الأغالبة من بغداد ، وبلغ هذا المركز ذروة شهرته عندما نبغ فيه ابن الجزار ، صاحب المؤلفات الطبية المتعددة ، وأشهرها زاد المسافر • وقد حمل هذا المؤلف للأندلس وكان موضع دراسة ، كما استدرك عليه بعض الأندلسيين في نواقص معينة وجدها فيه [3] •

وهناك وسيلة أخرى للاتصال بالثقافة الطبية اليونانيـة ، وهي الكتب المؤلفة والمترجمة في الشرق • وربما كان من أهمها ، حسب الدور الـذي

---

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٠٥ •

(٢) أنظر : ابن جلجل ، طبقات الاطباء ، ص ١٠٧ ، ١١٥ ، ١١٢ـ١١٣ •

(٣) عن حياة ابن الجزار ومؤلفاته ، انظر : تقديم محمد الحبيب الهيلة لتحقيق كتاب ابن الجزار ، سياسة الصبيان وتدبيرهم •

لعبه والضجة التي اثارتها ترجمته على الأقـل هو كتاب « الادوية المفردة » لديسقوريدس • والمؤلف كما يقـول ابن جلجل يعني اسمه شجّار الله ، وكان طبيباً يونانياً من عين زربة الواقعة في كيليكيا • عاش في القرن الأول الميلادي وقضى قسماً من حياته على صلة بالجيش الروماني ، الأمر الذي اتاح له فرصة زيارة أماكن اكثر من حوض البحر الأبيض المتوسط ، وان يغني بذلـك معارفه التي نقلها عن كتب أسلافه العشابين بملاحظاته الشخصية • يتكون مؤلفه من خمسة كتب تحوي الأدوية المفردة مع اوصاف لها سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم معدنية وكذلك الزيوت والمستخرجات الاخرى كالنبيذ وغيره • كما احتوى كتابه على ذكر للسموم والحيوانات السامة • وقد ذكرنا سابقاً ، قصة ترجمته في الاندلس ، ويجدر بالذكر هنا ان الحاجـة لاعادة ترجمته في الأندلس كانت ماسة ، من ناحية أن ترجمته المشرقية الاولى كانت ناقصة ، اذ ترك مترجمه المفردات اليونانية ، التي لم يجد لها مقابلا في العربية على حالها • اضف الى ذلك ان الاندلسيين كانوا بحاجة ايضا لمعرفة اعيان النباتات التي ذكرهـا المشارقة حتى في العربية ، لشيوع أسماء محلية لهـا بين الاندلسيين • والمهم في الامر ان هذا الكتاب بعد ترجمته اصبح اصـلاً من اصول الدراسة الطبيـة في الاندلس ، وموضوعـاً لدراسة اجزاء منـه والتأليف فيها ، وكذلك للاستدراك عليه كظهور مؤلف عن الأدوية المفردة التي لم ترد فيه • وكذلك كان هذا الكتاب دافعاً قويا لحركة البحث والتأليف في علم الادوية ، وهي حركة كانت موجودة قبل وصول الكتاب وترجمته ، نظراً لغنى شبه الجزيرة الايبيريـة بالنباتات سواءً البريـة أو المزروعة ، وبالمركبات المعدنية ، التي تصلح كأدوية للعلاج [1] •

أما عن مشاهير الاطباء في هذه الفترة ، فان ابن جلجل احد اطباء الحكم المستنصر ، يذكر في مؤلفه عن طبقات الاطباء أسماء كثيرة منهم ويعين مكان

---

(١) انظر : M. Meyerhof, Esquisse d'histoire de la Pharmacologie et botanique chez les Musulmans d'Espagne, Al-Andalus; vol. III, p. 1-41.

دراسة كل منهم ، وما الف وما اشتهر به من ناحية طبية ، والملاحظ ان بينهم من مهر بأمر دون آخر واصبح كاختصاص له مثل الكحالة . ومن الغريب حقاً الا يذكر اشهر اطباء هذه الفترة ، سواء لدى الاندلسيين المعاصرين ، أو الاوربيين في العصر الحاضر . وهو ابو القاسم خلف بن احمد الزهراوي ، الذي كان أول اسم لمع من عائلة نابغة في الطب ، بقي رجال منها مبرزين فيه خلال عدة اجيال في الاندلس .

ومؤلفه الرئيسي بعنوان « التصريف لمن عجز عن التأليف » ويضم ثلاثين جزءاً ، يحتوي السابع والعشرين منها على معجم ابجدي للادوية المفردة مع اعطاء المرادفات الكثيرة لكثير منها ، وخاصة في اللهجة البربرية ، والاندلسية الدارجة . وقد استشهد بهذا القسم واقتبس منه العديدون من الاندلسيين في القرون التالية[١] . لكن اهم الاجزاء على الاطلاق ، هو الجزء الاخير ، الذي يتحدث فيه عن الجراحة ، وهو الميدان الذي لم يحظ بكبير عناية من الاطباء العرب ، ولذلك يعتبر بعض الدارسين الاوربيين ابا القاسم هذا ، اكبر جرّاح عربي في العصور الوسطى ، ويتحدث في هذا الجزء عن بعض العمليات التي قام بها ، والتي لم تكن معروفة من قبل ، ويقدم ايضاً ايضاحات هامة عن الادوات التي استعملها . وقد ظلت اجزاء من كتابه تستخدم ككتب للتدريس في المعاهد الطبية الاوربية لامد طويل ، ولا ادل عن استمرار الاهتمام والاعتماد على مؤلف الزهراوي في اوربا ، من تواريخ طبع الترجمة اللاتينية لمؤلفه ، والتي تحمل اسم المؤلف بشكل Albucasis او Aboulcasis ، إذ طبعت في البندقية عام ١٤٩٧ ، وفي بازل عام ١٥٤١ وفي اكسفورد عام ١٧٧٨ .

أما في مجال العلوم الفلكية والرياضية ، فقد كانت هناك دوافع قديمة لقيام أشكال بسيطة وعملية منها تلبية للحاجات الدينية كتحديد القبلة للصلاة ومواعيد الأهلة الذي ادى لمعرفة بالفلك ، وللحاجات الادارية والقانونية

(١) انظر : مقدمة ماكس مايرهوف بالفرنسية ، ص ٢٦ لكتاب « شرح أسماء العقار » .

بتقسيم الارث الذي ادى لظهور فئة مختصة بالفرائض يدعى كل من افرادها بالفرضي ، وكذلك فان تطور التجارة مع ما يتبعه من استخدام الحساب وتقسيم الاراضي وما يحتاج اليه من معارف هندسية ادى الى تقدم معين في كل من علمي العدد والهندسة •

وفي عصر الخلافة تقفز هذه العلوم قفزة هائلة الى الامام اذ تنتقل الاندلس بها ، من بلد متخلف عن المشرق عموماً الى مركز نشط في هذه الدراسات يعادل ان لم يتفوق على اكثر المراكز المشرقية نشاطاً • ويلمع في هذه العملية اسم مسلمة المجريطي الذي ولد ونشأ في مجريط وتلقى فيها بعض علومه ثم اقام بقرطبة فيما بعد • وكانت له رحلة الى المشرق درس فيها وأحضر معه كتباً ومؤلفات عربية واغريقية • وأنشأ بقرطبة بعد عودته ما يمكن تسميته بمدرسة ، مكوّنة من تلامذته الذين أخذوا عنه وطوروا في العصر التالي ما اخذوه ولمعوا وسيطروا في مجال العلوم بما فيها الطب •

يضاف الى هذا العمل الهام من عمل مسلمة المجريطي الذي كان عملاً غير مباشر ، عمل آخر مباشر لا يقل عنه أهمية ويتمثل بأخذه عن المشرق علوم العدد والفلك التي استقتها من المدرسة الهندية الايرانية وبعدها من المدرسة اليونانية التي يمثلها الخوارزمي ، ونشرها في بلده بعد ملاءمتها لبيئة الاندلس • وبهذا الشكل الذي اخذته عند المجريطي انتقلت الى اوربا •

ومن مؤلفات المجريطي الهامة تعديله لزيج الخوارزمي ، ومن المعروف أن العرب استخدمت هذه الكلمة الفارسية (زيج) لتدل على أي مصنف فلكي مع الجداول المرفقة به لتحركات الاجرام السماوية وطلوع البروج ومغيبها لمدة طويلة عن السنين • لكنه قلب الاساس الذي تعتمد عليه هذه الازياج من تقويم يزدجرد الثالث الى التقويم الهجري • كما نقل مركز الأرين ، الذي كان في موقع متوسط بين الهند والحبشة والذي يعتبر خط الزوال (خط الطول) المار به المبدأ لقياس خطوط نصف النهار ، نقله الى

قرطبة • ومن المرجح ان جداول الخوارزمي الفلكية في صورتها الجديدة عند المجريطي أصبحت أساساً للمؤلفات الفلكية المتأخرة في أوربا الغربية •

وهناك مؤلفات أخرى في الفلك ، احدها عن الاصطرلاب ضاع وبقيت ترجمته اللاتينية • كما ترجم عن بطليموس تسطيح الكرة ، وترجم هـذا الكتاب للاتينية أيضا منذ القرن الثاني عشر •

ونسبت لمسلمة أيضاً مؤلفات في معارف أخرى ككتاب تمام علم العدد والمعاملات ، وربما يقصد بهذه الاخيرة المعاملات التجارية ، ونسبت اليـه معرفة واسعة في الكيمياء والتنجيم وحتى في الفلسفة •

الفصل السادس

الفتنـــة وسقوط الخلافة

الثورة ضد العامريين

تدشن الثورة ، التي قامت ضد عبد الرحمن شنجول ، عهداً جديداً من عهود التاريخ الاندلسي ، يمكن ان يعتبر مرحلة انتقال بين عصر الخلافة وعصر الطوائف الذي يليه . ففيها كانت الخلافة ما زالت قائمة اسماً ، لكنها متعددة ، لوجود عدة خلفاء يدير كل واحد منهم قوّة من القوى التي برزت على مسرح الأحداث ، تقاتل القوى الأخرى باسمه . وانتهى هـذا العهد باقامة كل من هذه القوى لدولة أو دويلات متعددة في ناحية من نواحي الاندلس قنعت بها بعد أن ثبت لكل منها عجزها عن السيطرة على الاندلس كلها باسم الخليفة الذي رشحته . وبذلك زالت الحاجة له .

كانت الثورة تتويجا لجهود دعوة اموية بين العوام ، ظهرت تحركاتها منذ أيام عبد الملك المظفر ، الذي قتل صاحبها هشام بن عبد الجبار الأموي فحاول ابنه محمد لم شتات شيعته من العامة الذين يسميهم المؤرخون الدهماء. واشتد ساعد الحركة عندما مولتها الذلفاء والدة عبد الملك المظفر ، وناصرها الامويون بالطبع ، كما انضم اليها أهل الاسواق لنقمتهم عـلى عبد الرحمن شنجول الـذي « اكثر انواع النكر والزيادات والاسعاف بالمحـالات حتى تفاقم أمر النفقات[1] » . وحتى كبار الموظفين كانوا ، ربما متعاطفين معهـا للسبب الذي ذكرناه قبلاً[2] .

---

(١) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢) أنظر ما مر سابقاً ، ص ٥٠-٥١ .

ومع اتساع نطاق الدعوة وازدياد عدد المنضوين اليها ازدادت تنظيما فاتخذت قاعدة لها في كهوف جبل قرطبة، واستتر صاحبها وعيّن شخصاً لأخذ البيعة له من الناس ، وأثير الهياج وقويت الروح المعنوية للانصار ببث نبوءة عن اقتراب ظهور مهدي من بني مروان يدك سلطان العامريين •

استغل محمد بن هشام فرصة خروج عبد الرحمن شنجول بقوى العامريين الى الشمال وخلو قرطبة من قواه العسكرية ليقوم بثورته • ووقت يوم الخروج عند وصول الانباء لقرطبة بدخول العامري ارض العدو ، حيث اصبح ابعد ما يكون عن العاصمة • وكانت قوة السلطة العامرية في قرطبة متمركزة في نقطتين • قصر الخلافة حيث هشام المؤيد ، ومدينة الزاهرة معقل العامريين • واختار محمد بن هشام القصر الخلافي كهدف اول ، اذ كان أضعف النقطتين قوة لكنه أعظمهما قيمة معنوية ، ووجه اليه ضربة بقوى قليلة لكنها موثوقة، اذ كانت عبارة عن عدد من الموالي وقفوا أمام باب القصر على هيئة نظارة ، وهم يخفون سيوفهم تحت برانسهم ، بينما وقف هو على الضفة الاخرى يترقب • وعند الساعة المحدّدة المتفق عليها انضم اليه اصحابه فهجموا على صاحب الشرطة بباب القصر وقتلوه بسهولة ، إذ كان في قلة قليلة من الجند ، لانه ارسل اكثر جنده لاحتفار كرومه(1) •

جرت الحادثة في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ / ١٦ شباط ١٠٠٩ وتبعها مباشرة قطع رأس صاحب الشرطة ، وطيف به في الاسواق • وكان ذلك كعلامة على نجاح الحركة ودعوة العامة من اتباعها للانضمام الى مهاجمي القصر • فقام بعضهم بالهجوم على السجون واخراج من فيها فانضموا اليهم ، كما هاجم هؤلاء الاتباع محلات التراسين وتسلحوا بما وجدوه فيها من اسلحة ، وقصدوا حوانيت الخشابين فحملوا منها السلالم للصعود لاعالي القصر واحتلاله •

لكن القصر لم يبد مقاومة تذكر ، فقد خرج هشام المؤيد الى السطح

(1) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٠٩ •

وعلى جانبيه مصحفان يحملهما خادمان ، وكأنه يذكر المهاجمين بالبيعة التي له في اعناقهم ، الا انه اضطر للعودة على اصوات العامة التي كانت تصيح به قائلة « لا حاجة لنا بك وهذا ، مشيرة للمهدي ، أولى بالملك منك » ، وأمر مواليه بعدم القتال • وعندها اعتلى المهاجمون اسوار القصر ودكوا ابوابه ودخلوه وعلى رأسهم صاحب الحركة محمد بن هشام الذي جلس في القاعة المعروفة باسم المجلس الكامل ، التي كانت بمثابة قاعة المراسم ، وشهدت فيها الايام الخوالي عز الخلافة وعظمتها ، اوقات جلوس الخلفاء ، كالناصر والمستنصر ، لأخذ البيعة أو تلقي التهاني ، أو استقبال عشرات السفارات من أصقاع شتى في المعمورة • وهناك حصل على تنازل هشام المؤيد عن الخلافة ، وشهد بذلك عليه القوم على مراتبهم • وتلقى البيعة بلقب المهدي ، ويلاحظ فيه ملاءمته لخليفة يقوم بعد دعوة كمخلص •

توجهت جموع العامة بعد ذلك نحو الزاهرة ، مقر العامريين ، لكنهم هزموا أمام حماتها من الفتيان الصقالبة ، الذين كانوا متهيئين للقتال •

وفي صباح اليوم التالي ، عيّن المهدي لحربها ابن عمه الحاجب ومن اثبتهم في جنده من اتباعه ، بعد توزيع الاسلحة السلطانية عليهم • واستطاعوا هم والعامة الذين كانوا يحفون بهم ، هزيمة حماة الزاهرة في معركة خارجها • وعندما احتلوا الحاجبية ، قصر المظفر حيث تقيم الذلفاء خارج سور المدينة • استسلم الحماة عند الظهيرة على أمان من المهدي ، الذي وصلها وأبعد العامة عنها، كي يستصفي ما يرغب به • وبعد استصفاء الاموال والاشياء الثمينة والجواري ، واطلاق الحرائر ، سمح للعامة بنهبها ، وسرعان ما اصبحت خرابا بلقعا •

بلغت هذه الاخبار معسكر شنجول بعد أيام قليلة على ما يظهر ، وشاع في المعسكر مظاهرة اهل قرطبة لابن عبد الجبار وسقوط الزهراء • فتولى الجزع عبد الرحمن ، كما يستنتج من سلوكه : فعوضا عن السرعة في العودة واظهار الثقة بنفسه ، وتوجيه اوامره الى اصحابه من هذا المنطلق ،

تلوم على الطريق في قلعة رباح ، حيث اعلن تنازله عن ولاية العهد وعودته للحجابة ، ثم كتب الى أصحاب الثغور يستنصرهم، كما أخذ باستحلاف الجند على نصرته ، وعلى رأسهم زعماء البربر من زناتة وصنهاجة ، الذين أدركوا عدم فائدة ذلك الا في تبيان جزعه ، اذ قال احدهم « نحن تحت بيعة تقدمت له في اعناقنا ، فما بال تكريرها ؟ فان كانت لا تنفعه الا بتجديد ايمان آخر فليست بالايمان الآخر تنفعه الا بتجديد مثلها • هذا ما لا نهاية له » •

وقد حاول من ناحية اخرى ، اثارة طمعهم بالاموال والاقطاعات على حساب أهل قرطبة ، حتى بلغت عدة الصكوك التي كتبها في قلعة رباح خمسة آلاف صك ، حتى ضرب المثل بالصكوك الرباحية كرمز للصكوك التي لا قيمة لها •

كان شنجول يفكر ، على ما يظهر ، بأن قسماً من أهل قرطبة سيعود الى حظيرة طاعته حال عودته • بينما كان الواقع مختلفاً ، الى حد أن مرافقيه كانوا قد عقدوا العزم على خذلانه بجميع عناصرهم ، من صقالبه وبربر وموظفين كبار من صنائع العامريين • مثل أحمد بن عباس بن ذكوان قاضي القضاة ، الأثير لدى العامريين الذين أولوه هذه الرتبة العالية مع رتبة الوزير [1] • وكان لكل فريق من هؤلاء الفرقاء دافعه للتخلي عن شنجول فالبربر كانوا يرون أن أهلهم وأموالهم في المدينة بمثابة رهينة ، ولا يضمنون وقوع المكروه بهم اذا حاربوا القرطبيين ، عدا عن كونهم مرتزقة لا يهمهم من حكم •

أما الموظفون الكبار ، من أمثال ابن ذكوان ، فأغلبهم قرطبيون أو أصحاب أملاك وأموال بها ، ويخشون ما يحل بها اذا سلط عليها جيش •

---

(١) أنظر : النباهي ، المرقبة العليا ، ص ٨٤ـ٨٧ •

وسرعان ما أظهرت هذه العناصر موقفها ، وتذكرت الآن فقط ، أن شنجول فاسق زنديق • وعندما اقترب من قرطبة ووصل منزل هانيء ، نزع عنه البربر من زناتة وصنهاجة • ثم أقام في الموقع ثلاثة أيام ، انفصل أثناءها عنه الجميع ، ودخلوا قرطبة متفرقين ، وعندها قنع بالتنازل عن كـل شيء مقابل الأمان له ولأهله ، لكن رسله الذين قابلوا المهدي لهذه الغاية،وجدوا أنصار سيدهم السابقين ، وعلى رأسهم القاضي ابن ذكوان أشد الناس عليه لدى الخليفة الجديد •

وعندها لم يجد بداً من الاستسلام والسير نحو قرطبة ، ولما وصل الى منزل ارملاط حيث أودع نساءه ، لم يكن قد بقي معه الا أحد أعوانه مـن القمامسة و هوشانجه بـن غومس Sancho Gomez الذي تعاقـد معه في الأصل على معاونته في استرجاع سلطانه في قرطبة ، وعندما أدرك وهن أمره نصحه بالهرب ، لكن شنجول رفض ، ومع ذلك أصر القومس على مرافقته وفـاء بعهده •

وبعد ايداع نسائه حاول الهرب ، لكن خيلا أرسلها المهدي أدركته في أحد الأديرة المجاورة واقتادته الى قرطبة • وعندما حاول الانتحار قتله المرافقون له ، وتقول الرواية وهي مغربية معادية ، بأنه أظهر جزعاً شديداً عند موته بينما لقي القومس المرافق له الموت وهو على أتم ما يكون تجلداً ورباطة جأش •

---

(١) أنظر : تفاصيل اعتقاله وقتله ، في رواية عمر بن احمد ، التي يسجلها ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧١ـ٧٤ ، نقلا عن الرقيـق •

خلافـة المهدي
وحـكم العـامة

محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، فهـو اذن حفيد لأحد أبناء الناصر • وكان لقبه الرسمي المهدي ، الا أن العامة كانت تلقبه بالمنفش لهشاشته وطيشه وخفته •

يعتبر قيامه انتصاراً لعامة قرطبة وسيطرة لها على الحكم ، لأنهم كانوا دعاته وأدواته في تحطيم الدولة العامرية ، وأصبحوا هـم عمـاد دولته اذ استلحق منهم في ديوان العطاء ، حسب قول أحد المؤرخين [1] خمسين ألفاً وهو رقم تبدو عليه المبالغة واضحة ، الا أن شغل العوام لمناصب الدولة أمر يوجد عليه أكثر من شاهد ، اذ مضت على قرطبة أيام بعد ثورة المهـدي ، لم يوجد فيها حجام ولا كنّاف ولا ذو مهنة ذلية • وقد عبّر العوام عن قيام دولتهم بالابتهاج الصاخب « فقد أحدثوا برحاب قرطبة وأرباضهـا ولائـم وأعراساً وداموا على ذلك أياماً تباعاً يتنقلون من موضع الى موضع بالمزامر والملاهـي » •

كذلك كان انتصار هذه الثورة انتصاراً للأسرة الأموية التي أوشكت على اضاعة الخلافة ، ويظهر أن أكثرهم نشاطاً كانوا أحفاد الناصر الكثيرين وأبناءهم ، وقد أطلق على مجموعهم اسم الناصريين ، وقد اعتبرهـم المهدي شركاء فعين هشاماً بن سليمان بن الناصر ولياً لعهده • وبالاضافة الى هاتين الركيزتين في الحكم وهما العامة والأمويون ، أضيف للمهدي دعم جديد باعلان واضح، قائد الثغر ، طاعته للخليفة الجديد • ولا يخفى أن الثغر يمثل

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١١٠ •

الثقل العسكري بالنسبة للأندلس • وبدا في أول الأمر وكأن دولة الأمويين عادت من جديد ، بعد النكسة التي أصابتها أيام العامريين •

لكنها ، كما أثبتت الأحداث التي تلت ، كانت في ظرف حرج ، ولم تستطع أن توطد تماسك أركانها ، كما لم تستطع اتخاذ الاجراءات الملائمة للتخلص من حرج ظرفها بسلام •

تتمثل ظروف هذه الدولة الحرجة في طبيعة انتصارها على العامريين، اذ أنه لم يكن انتصار مجابهة وهزيمة أو قضاء على دولة العامريين وأركانها المكوّنة من الصنائع والجنود المرتزقة ، لأن هؤلاء صقالبة وبربر وصنائع مدنيين تخلوا عن شنجول وأعلنوا طاعتهم للخليفة الجديد ، فلم يسلك هذا سبيل المنصور العامري بالتخلص من أعدائه الواحد بعد الآخر مستعيناً بضرب قواهم ببعضها • بل بقوا بعيدين عن الدولة نظراً لأن ديوان العطاء غصّ بالعامة • وهذا ، على ما يبدو ، وحّد صفوفهم في وقت بدأت فيه الصفوف في دولة المهدي تتفرق وتتصارع•

بدأ ذلك بعد شهرين فقط من ثورته ، عندما أخرج هشاماً المؤيد من القصر وأنزله في مسكن عادي ، وأحضر بدلا عنه للقصر ميتاً شبيهاً به ، وادعى أنه هشام المؤيد وحصل على شهادة من الفقهاء والعدول بذلك فدفنوه وصلّوا عليه ، ثم استصفى ماله ، كما أنه حصل على المخبأ من مال الخلفاء [1] • وأثار ذلك خلافا بينه وبين أقاربه وخاصة الناصريين ، الذين لم ينالوا شيئاً من ميراث أسلافهم ، لأن المهدي احتجنه لنفسه • وحاول أن يحسم الخلاف بسجن ابن ولي عهده ، رأس المخالفين ، وسجن معه جماعة من قريش •

قد يكون تصرف المهدي نابعاً من طمع وجشع يدفعانه له ويسهله عليه طيشه ، لكنه قد يكون مدفوعاً أيضاً بالحاجة للمال للنفقة بسبب كثرة

---

(١) انظر : ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٦-٧٧ •

العوام الذين ينالون العطاء، في وقت مضطرب تقل فيه عادة واردات الدولة. وقد دفعه قصور المال والعجز عن القيام بالنفقات الى محاولة ثانية ، زادت من عدد الناقمين عليه ، في صفوف أنصاره ، وهي اسقاط سبعة آلاف ممن أدخلهم في ديوان العطاء ، فانضموا الى الناقمين .

أما أوضاع جند العامريين من الصقالبة والبربر فلم تكن واحدة ، لم يجد الصقالبة مكانة لدى المهدي ، فسارع زعماؤهم للسيطرة على شرق الأندلس ، وربما اتخذوا الشرق وجهتهم لوجود حكام منهم ولكونه مركز تجمع لهم ، لأن أسواق بيعهم في الأصل هناك [1] . أما البربر فكان مركزهم كمحاربين الى جانب السلطان في قرطبة ، ويظهر أن الرزق قد حبس عنهم مما جعلهم في حالة استعداد لمحاربة دولة المهدي . لكن كتابهم ومؤرخيهم ، يظهرون انفجار غضبهم على المهدي والقرطبيين لا نتيجة لنقص عطائهم اذ يصورون زعماءهم في منتهى الغنى [2] ، وانما بسبب الاهانات والاذلال التي ألحقها بهم أتباع المهدي . فقد كان الموكلون ببابه يطالبون زعماءهم بالقاء السلاح ويبادرونهم بما يكرهون ويسمعونهم الخنى من غير تمييز بين أدناهم وأعلاهم ، حتى أن كبير صنهاجة زاوي بن زيري ، الذي كان قومه أسياد الجزء الأعظم من الشمال الافريقي « احتبس بالباب للازدحام مدة ، لا يفرج له ولا يعرف مكانه . وكلما هم بالاستقدام ردوه وقرعوا رأس فرسه ، فلما أكثروا عليه جعل يقول هذا الرأس فاضربوا فالدابة لا ذنب لها [3] » . كما أن بعض بيوتهم تعرضت للنهب ، ورغم أن المهدي أمرهم بمعاقبة الناهبين وخلف ما نهب ، لكنه كان يدبر للاجهاز عليهم ، بدليل اصداره أمراً في أحد الأيام « لا يركبن أحد من الغزاة (اشارة لهم) ولا يحمل سلاحاً ولا يأت القصر » وعندما تحدوا الأمر حصل ما حصل من ردهم واهانة زعيمهم .

---

(١) أنظر : رسالة ابي يحيى بن مسعدة في ، نوادر المخطوطات ، ص ٢٦١-٢٦٢ .
(٢) أنظر : مذكرات الامير عبدالله الصنهاجي ، التبيان ، ص ٢١ .
(٣) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٥-٧٦ .

الصدام بين المهدي والبربر • ـ

توفرت في هذه الظروف فرص اللقاء بين ولي عهد المهدي والبربر فقد كان هو بحاجة لقوة يحطم بها من سجن ابنه ، وكانوا هم بحاجة الى واجهة شرعية ، وقرروا الخروج على المهدي قبل أن تمضي ثلاثة أشهر على خلافته ، واستغلوا البروز الذي أقامه المهدي يوم **٢٥** شوال عام **٣٩٩/ ٢٢**حزيران سنة**١٠٠٩**م لبعض رسل الروم في فحص السرادق خارج قرطبة فدعوا صاحبهم بالرشيد ، وكان يدعمه معهم بعض العامة الذين أسقطهم من العطاء وبعض الصقالبة من موالي العامريين • واستطاعوا مفاجأة المهدي وقتلوا له وزيرين ، ثم حاصروه يوماً وليلة • ولجأ عندها للمكر بهم ومن ثم مفاجأتهم ، وهكذا دخل في مفاوضات معهم عرض فيها تنازله لصاحبهم مقابل الأمان له ولذويه،وباتوا على أساس هذا القرار•لكنه هب في الصباح مع عوام الربض الغربي من قرطبة ، ففروا تجاه المفاجأة وتبعهم الباقون • وبينما وصل الهاربون الى أرملاط في شمال قرطبة ، أمر المهدي بأن ينادى عن مكافأة لكل من يقتل بربرياً ، وسارع القرطبيون للقيام بهذه المهمة المحببة، لكن الزمام أفلت وانقلب الأمر من قتل البربر من المتآمرين ، الى قتل كل بربري حتى من أتى حديثاً للجهاد ، ثم تخطت الفوضى ذلك وحل القتل في كل الأغراب حتى بعض من أتوا من خراسان والشام •

ويعتبر ابن حزم ثورة هشام بن سليمان فاتحة الفتنة ، لأن المهدي كان يملك كل ما ملكه العامريون قبلا والثورة ضده أدت الى القتال بين القرطبيين والبربر •

ثم حاول المهدي بعد انتصاره أن يعيد الهدوء على أساس الخلاص نهائياً من خطر البربر ، فقد عفى عن الثائرين الهاربين والمقيمين وهدد مهاجميهم بالعقوبة ، فاستأمن له قوم من مغراوة الزناتية ، فقبلت توبتهم شريطة أن يغيروا زيهم البربري ويتزيوا بالزي الأندلسي بخلع العمائم ولبس القلانس كما أوفد رسلا للهاربين عرض عليهم العودة والأمان على أساس أن يصبحوا

فلاحين لا جنداً ، وهذا يعني أنه سيضعفهم بتفريقهم في الأراضي فيبعدوا عن مقر السلطة ويستقروا ويزول خطرهم • لكنهم رفضوا العرض واستمروا على خطهم في محاربته تحت لواء أموي ، وبما أن صاحبهم قتل مع أبيه بايعوا سليمان بن حكم بن سليمان بن الناصر ، الذي كان الى جانب خليفتهم وهرب اثر المعركة مع الهاربين فبايعوه باسم المستعين وتابعوا سيرهم نحو الشمال حتى وصلوا الى مقربة من مدينة سالم ، حيث كان أربعمائة من أبناء جلدتهم يعملون في خدمة صاحبها الفتى واضح ، فانضموا اليهم غصباً ، ودخلوا معهم وادي الحجارة فانتهبوها واستباحوا أهلها • وبعد ذلك فاوضهم واضح على أساس ايجاد حل يستقر عليه وضع المسلمين ، وبموجبه يبقى المهدي خليفة ، ويكون سليمان ولياً لعهده • ويظهر أن واضحاً كان البادىء اذ تقوى بمدد وصله من قرطبة • وأمر جميع أهل الثغر بعدم التعامل مع البربر ، وهذا يعرضهم للموت جوعاً •

لجأ البربر في حربهم اليائسة مع الأندلسيين للاستعانة بنصارى الشمال وكان أقربهم للمنطقة التي وصلوا اليها قمط قشتالة شانجه بن غرسية بن فرذلند Sancho Garcia (١)• وعندما وصل رسلهم اليه ، وجدوا مندوبي واضح وخليفة قرطبة لديه • لكنه تحالف مع البربر وقدم لهم المؤونة والعون العسكري مقابل اعطائه ما شاء من مدن الثغر عند انتصار خليفتهم • وقد رفض عرضاً مماثلا من قبل واضح والخليفة، وربما كانت غايته الوقوف الى الجانب الغريب عن الأندلس ضد خليفة وقواد قائمين في الأندلس ، لأن هذا يوفر له فرصة أفضل للتوسع • ومثل هذه السياسة ظلت متبعة من قبل الدول الأسبانية تجاه القوى المتصارعة في الأندلس ، خلال العصر التالي وهو عصر الطوائف •

توجه المتحالفون لمحاربة الخليفة وأتباعه ، وبدأ الهجوم على الثغر

---

(١) يرد اسمه عند ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٦ ، (ابن مامة النصراني) • أنظر :
Diccionario de Historia de España, vol. III, p. 583.

حيث توجد أكبر قوة في طريقهم • ووقعت الموقعة بينهم وبين واضح عند وادي شرنبه (Jarama حالياً)وقرب قلعة عبدالسلام (Alcala de Henares حالياً) فهزم الأخير ووصل على رأس فلوله الى قرطبة أواخر ذي الحجة سنة ٣٩٩ هـ / ٢٥ آب ١٠٠٩ م ، وتابعه المنتصرون ، دون أن يتوقفوا لاحتلال طليطلة ، نحو قرطبة ، التي استولى الجزع على صاحبها ، وقام بعدة اجراءات دفاعية فيها ، فحفر الخندق حول أفواه الأرباض • ولكي يتجنب اثارة الأحقاد أكثر عند البربر ، أمر من بقي في المدينة منهم ، أن يغادروها الى حيث شاؤوا كي لا تقتلهم العامة الغاضبة ، فاختفى هؤلاء خشية قتلهم في الطرقات • ثم أمر العامة بالاحتشاد ، فلبت نداءه ولم يتأخر أحد ورتب قواده حول الحفائر •

وصل البربر الى جوار قرطبة وعسكروا • وبعد وصولهم بثلاثة أيام وقعت المعركة قرب وادي ارملاط (Gualmellato حالياً وهو رافد لنهر الوادي الكبير) في سفح جبل قنيش[١] بتاريخ ١٣ محرم سنة ٤٠٠هـ/ ٨ ايلول ١٠٠٩ م ، وكانت نتيجتها هزيمة للقرطبيين • وهي نتيجة طبيعية لكون أكثرية قادة المهدي وكذلك جنده من العامة ، ولم يكونوا ذوي دربة بالقتال•ويحدّد ابن حيان خطأهم ، باندفاعهم نحو عدوهم وعدم اصغائهم لواضح بالبقاء في أماكنهم والصمود لهجوم البربر ، لكنهم « سارعوا للبربر الذين استجروهم حتى اذا تمكنوا منهم عطفوا عليهم »[٢] • ودخل البربر الأرباض ، بينما حاول المهدي عبثاً أن يثنيهم عن دخول قرطبة بالاقناع • اذ أرسل اليهم ابن ذكوان ليقول لهم ان هشاماً حي يرزق ويستطيع رؤيته من يريد ، وان ابن عبدالجبار هو القائم دونه وأنه أمير المؤمنين لكن البربر لم يردوا ودخلوا المدينة بعد يومين ، وكان أول داخل للقصر زاوي بن زيري الصهناجي ، ودخل سليمان بعده ، في الوقت الذي اختفى فيه المهدي مدّة ، ثم هرب الى الشمال ، وحلّ بطليطلة •

---

(١) موضع الى شمال شرق القليعة ، غير بعيد عن ملتقى وادي أرملاط بالوادي الكبير •
(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم أول ــ المجلد الأول ، ص ٣٠ •

خلافة سليمان المستعين

يسمّى بخليفة البربر الذين نصّبوه في ١٧ ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ/ ٨ تشرين ثاني ١٠٠٩م • وكانت خلافته الاولى قصيرة الأمد لا تزيد عن سبعة أشهر ، رغم أنه حاول أن يضفي عليها كل مظاهر الحكم المستقر ، اذ لم يمض على تنصيبه أكثر من شهرين ، عندما عيّن ابنه لولاية العهد وأجرى اسمه بالتأمير والتكنية • ومع ذلك ظهرت سمة خلفاء الفتنة لأول مرة على العملية ، وبشكل واضح ، وهي قلة المال ، اذ تمت ولاية العهد دون نفقة ولا عطاء ، كما جرت العادة في عهد الخلفاء[١] •

كما أن خلافته لم تكن وطيدة الأركان لأن أعداءها كانوا أقوياء ويتمركزون في داخل قرطبة، حيث عامتها وتمسكها بطاعة المهدي ، وكذلك في الثغور حيث وصل المهدي الى طليطلة التي أعلنت مع صاحبها الفتى واضح عن استمرارها في الولاء له •

حاول المستعين ضمان خضوع أعدائه المجاورين في قرطبة ، وكان عنصرهم الخطر والمسيطر هم اولئك الذين عملوا في السابق لدى المهدي كجند ، فجرهم الى معركة أعدّ لها،وذلك بأن أمرهم بالترجل عن الخيل، وعندها كشفوا عن ولائهم الحقيقي عندما صاحوا بأنه لا طاعة الا للمهدي فقتل أكثرهم •

أما سواد عامة قرطبة فحاول بعد ذلك ، هو وقادته البربر ، التقرّب منهم والتودد اليهم • وذلك بمعاقبة من نهب من الجند البربر بيوتاً قرطبية، ثم بانزال البربر في الزهراء ، لمنع الاحتكاك مع العامة ، ولضمان سلامة الجند عند التفرق في وسط معادٍ • وقد تكون هذه الاعمال خففت من حدة

(١) ابن بسام،الذخيرة،قسم أول مجلد أول،ص ٢٤ـ٣٤ • ابن عذاري،ج ٢٣،ص ٩١ـ١١٥•

خطر القرطبيين ضد خلافة المستعين ، لكنها لم تقض على عدائهم له ولجنده البربر ، الذين لم تكفهم الزهراء لاقامتهم جميعا فصادروا المنازل القريبة والمجاورة ، وقام القرطبيون بدورهم باستفراد الأفراد والجماعات الصغيرة من البربر وقتلهم •

بعد مضي شهرين على خلافة المستعين ، توجه نحو منطقة الثغور لاخضاع المهدي والفتى واضح ، بعد أن لجم العناصر التي تكون خطراً داهماً على حكمه فيها • هاجم طليطلة أولاً لكنه لم يفلح في دخولها ، ولكي لا يضيع وقته عليها ويترك مدينة سالم مركز الثغر العسكري ومقر واضح والمهدي ، انتقل عنها الى مدينة سالم حيث منعه اشتداد البرد وتزايد الثلوج وقلة الميرة من عمل شيء • فعاد الى قرطبة بعد غياب دام أكثر من شهر ونصف •

أمام هذا الفشل للمستعين قوي مركز خصومه في الشمال ورفع أنصارهم في قرطبة من بقايا الصقالبة وصاحب الشرطة برؤوسهم من جديد كما زاد هؤلاء من قوتهم بالتحالف مع نصارى برشلونة ، فحصلوا على مساعدتهم ، وان دفعوا لذلك ثمناً باهظاً ، تمثل في التنازل لهم عن مدينة سالم ، والتعهد بأن يدفعوا لقائدهم مائة دينار ولكل من الجند دينارين يومياً، عدا عن الطعام والشراب وما يحصلون عليه من الغنيمة من الأعداء • تقدمت جموع المتحالفين نحو قرطبة ، وعند عقبة البقر Elvecar (١) اصطدم المستعين بهم والى جانبه البربر فقط ، لرفض القرطبيين الوقوف معه فلقي هزيمة شنيعة ، اعتبره أنصاره البربر مسؤولاً عنها • وقد توجه هؤلاء رأساً الى الزهراء مقر نزولهم فحملوا نساءهم وذراريهم واتجهوا بهم الى أقصى الجنوب قرب المضيق المجاور لبلادهم •

حقق المهدي انتصاره في ١٢ شوال من سنة ٤٠٠ هـ / ٢٩ مايو

---

(١) حصن على بعد ٢٠ كم شمال قرطبة • انظر : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٧ •

١٠١٠ م ولو أن الثمن كان باهظاً ، اذ كثر القتلى مـن جانبه ، وخاصة في صفوف النصارى الذين فقدوا اعداداً منهم تقدر بالمئات وبينهـم أرْمنْقد Armengol شقيق قمط برشلونة [(١)] . لكنه حاول استغلال هذا النصر والقضاء على خصومه البربر نهائياً . تم اللقاء على وادي السقائين في احواز مربلـة ، المعروف باسم وادي آرو أويارو في ٦ ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ / ٢١ حزيران ١٠١٠ م وتجمع الروايات على تفوق المهدي من ناحية العدد، اذ ضم جيشه قوى الثغر والصقالبة والنصارى وأضيف اليهم الكثيرون من القادرين على حمل السلاح من قرطبة والبوادي ، كما تقدر احدى هـذه الروايات النسبة بين محاربي البربر وخصومهم ، بواحد مقابل تسعة . وقد يكون في ذلك مبالغة كبيرة الا أنـه يبقى من الصحيح أن المهدي كان معه محاربون متفوقون عـدداً ، لكنهم هزموا في المعركة هزيمة ساحقـة ، لا يمكن تعليلها الا بدربة البربر في القتال وتجانسهم وقتالهم قتال اليائس ، اذ هم الذين يصدق عليهم الكلام المنسوب لطارق بن زياد في وصف جنده ، فالبحر من ورائهم والعدو أمامهم .

اكتفى البربر بجمع الغنائم الوفيرة والثمينة التي تركها خصومهم على أرض المعركة ، ولم يلاحقوهـم . ويظهر أنهـم أحـرزوا نصراً مدهشاً حتى بالنسبة لهم ، وخشوا كـرة الأندلسيين عليهم من جديـد ، لذلك احتلوا قاعدة منيعة لهم ، وهي حصن ببشتر مقر ثورة ابن حفصون القديم، وفيه تتوفر كل متطلباتهم من الحصانة والمنعة والكفاية من الطعام والمرعى . وانتقلوا بعد ذلك لأنهـاك قرطبة وما يتبعها بترديد الغارات في طـول البلاد وعرضها ، فهـم يقيمون بجـوار قرطبة أمداً ينهبون ويخربون ويقطعون الميرة ، ينتقلوا بعدها ليهاجموا مالقة والجزيرة الخضراء ، فيدخلونهما ولا يكتفون فيهما بنهب الممتلكات وسبي النساء ، وانمـا يستخلصون الأمـوال

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

المخبأة من ذوي اليسار بعد تعذيبهم • وقد توسع مدى هـذه الغارات حتى بلغ الشاطىء من فالنسية وحدود الثغور الشمالية •

عند التأمل في هذه الطريقة من حرب البربر ، يتبادر للذهن أنهـم استخدموها ولم يهاجموا قرطبة مباشرة لشعورهم باستحالة السيطرة عليها ما دام أهلها مجمعين على عداوتهم ، ولتحالف هؤلاء مع الصقالبة المقيمين بين ظهرانيهم والصقالبة اسياد الثغور ، ومن شأن هـذه الطريقة انهاك قرطبة ، وافساح المجال مع الزمن لانفصام عرى التضامن بين المتحالفين • ويظهر أنهم كانوا يعقدون آمالا كبيرة على انفراط عقد المتحالفين اذ يعلل زعيمهـم الكبير انتصار بني قومه على الأندلسيين بتماسكهم في وجه أناس متفرقين •

أما في الجانب الآخر ، فقد اتخذ المهدي والصقالبة الترتيبات للدفاع عن المدينة ضد هجوم بربري محتمل ، فحفروا حول المدينة خندقاً يطيف بها من الجهات البرية ، وبنوا سوراً مما يلي قرطبة ، كما نصب واضح على الخندق مجلساً عاليا للمراقبة دعاه الديدبان •

لكن وضع قرطبـة الداخلي كان يسوء بالتدريج ، ويزداد التفكك بين صفوف اعداء البربر • وكان من أول مظاهر ذلك أن الصقالبة وأغلبهم ممن نعم بخير العامريين على اختلاف في انتمائهم بين موالٍ للعامريين وموال للأمويـين ، استغلوا الفرصة السانحة للانتقام من المهـدي محطّم الحكـم العامري ، ودعمهم التجار الذين أثقل عليهم المهدي بطلب الأموال ، فقاموا يتزعمهـم واضح بقتل المهدي في الثامن مـن ذي الحجة من نفس العام ، وأعادوا هشاماً المؤيد الى عرش الخلافة من جديد •

عرضوا على البربر الدخول في طاعة الخليفة صاحب البيعة في أعناقهم لكنهم رفضوا ، فمالوا لدعم موقفهم نحو كسب ودّ النصارى في الشمال ، وتنازلوا لهم عن عدد من الحصون ، اكتمل بها ضياع كل ما كسبته الخلافة

القرطبية أيام العز في عهد الحكم المستنصر والمنصور العامري وابنه المظفر •

ثم ازداد الانقسام الداخلي ، فأثر كوارث حلت بالمدينة من الفيضان الى الحريق في بعض الأسواق ، انقسم الرأي بين المتنفذين من صقالبة وقرطبيين ، حول مصالحة البربر بشروطهم • وكان على رأس هؤلاء الفتى واضح ، فخذل رأيه وعندما حاول الهرب من هذا الموقف اليائس اكتشف أمره وقتل • وعقد المتشددون الخناصر على الاستمرار في حرب البربر واقسموا الأيمان على اتفاق الأيدي والتمسك بموقف موحد•لكن الانقسام عاد من جديد رغم ذلك بين الصقالبة أو العبيد ، كما يسميهم مؤرخوا الفترة بين عبيد أمويين وعبيد عامريين • وتمكن زعيم العامريين من الاجهاز على زعماء خصومه ، الا أنه لم يستطع تدبير الأمور وايجاد حل للمجاعة المتفشية، فحمل ما استطاع حمله وهرب، تاركاً البلد دون زعيم يدبر أمرها•

أدرك البربر أن المدينة قد آلت للسقوط وحان وقت اقتطافها ، فتقدموا منها في آخر ذى الحجة عام ٤٠٢ هـ / ٢٢ تموز ١٠١٢ م أي بعد شهر من هرب آخر الزعماء الصقالبة منها ، وبعد سنتين من الغارات على نواحيها ، فأقاموا على حصارها وأحكموه ، واستمروا بنفس الوقت يقبلون بالمفاوضات ويرسلون الرسل من طرفهم ويستقبلون رسل الطرف الآخر مدة أحد عشر شهراً • لكن المفاوضات لم تثمر عن نتيجة ، وضاقت الحال بالقرطبيين فخرجوا ليقاتلوا أعداءهم فاما أن يفكوا الحصار أو يموتوا ، وكان الأمر الثاني من نصيبهم ، اذ قتل الكثيرون وانهزم الباقون ، وفتحت المدينة أبوابها ليخرج منها القاضي ابن ذكوان ليدعو البربر لدخولها وينال أماناً للناس • فدخلها سليمان المستعين في ٢٧ شوال سنة ٤٠٣ هـ / ١٢ مايس ١٠١٣ م •

كانت أولى النتائج غيبة هشام المؤيد ، اذ عرضت عليه جماعة من بقايا العامريين والجند الشاميين ، الهرب معهم قبيل سقوط المدينة كي يجتمع عليه الجند ويعاودوا الكرة • أو أن يسير معهم الى شاطبة في

الشرق ، حيث يمنعونه ريثما يُحل أمر عدوه • فرفض هشام ذلك بحجة أن قرطبة رأس الأمر ولا يجب أن يمسك بالذنب ، ويعود الى مثل حال سليمان فيلقح الفتنة•وعندمادخل سليمان المستعين استدعاه هشاماً وعاتبه ، ثم صرفه مع ابنه محمد بن سليمان بعد أن أوصاه به خيراً ، فأقام معه أياماً ، ثم غيب شخصه • وشاع يومئذ أن محمداً عجل عليه دون اذن والده فاغتاله خنقاً بعد ثمانية أيام فقط من دخول والده قرطبة •

أما النتيجة الثانية ، فكانت تمركز القوتين المحاربتين الرئيسيتين الصقالبة والبربر ، كل في منطقة خاصة به ، وجعل الاهتمام بقرطبة في المكان الثاني • تمركز الصقالبة في الشرق ، والبربر في أقصى الجنوب والجنوب الغربي •

وثالث النتائج انحلال وحدة الأندلس ، اذ استقلت عن قرطبة كل المناطق الأخرى عملياً رغم تعاقب الخلفاء عليها ، الا أن سلطانهم وحتى سلطان من يدعمهم لم يكن يتجاوز قرطبة • ويظهر أن ذلك حدث لعدم تصرف المدينة بقوات محاربة من جهة ، ولأن امكانياتها بعد خرابها ، غدت أضأل من قدرتها على الدفاع عن نفسها •

خلافة الحموديين[1]

تفرقّ أنصار المستعين من البربر فيالكور التي أقطعهماياها ، ونزلت كل قبيلة في اقطاعها ، الامر الذي حرم المستعين من الحماة ، أو على الأقل أصبح مصيره لا يرتبط بمصير تلك القبائل الى الحد الذي كان قبلاً . ومن جهة أخرى ، أقام الصقالبة دويلاتهم في شرق الاندلس ، على غير اتفاق بين زعمائهم، اذ قام مجاهد صاحب دانية ونصّب أموياً بعيداً عن الفرع الحاكم عام ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م ليكون الواجهة الشرعية لحكمه . بينما كان خيران صاحب المرية أكثر طموحاً ، اذ اتصل بأحد العلويين الطامعين بالخلافة في قرطبة ، وهو علي بن حمّود .

ينتمي علي بن حمود في نسبه الى الأدارسة العلويين من نسل الحسن وهم ذوي سلطان عريق في المغرب الأقصى ، وكان له أتباعه من البربر الذين حاربوا تحت لوائه المستقل عن الآخرين ، ويظهر أن الرابطة بينهم لم تكن قبلية ، بل كانت الولاء له ، ولذا عرفوا باسم المغاربة . وقد سلك منذ أول الفتنة سلوكاً متميزاً محاولا الابقاء على شخصيته المستقلة وعدم الخضوع لزاوي بن زيري الذي تزعم البربر ، فنزل عند الهجوم الأول على قرطبة في شقنده ، بينما نزل كل البربر في الزهراء . وعند هزيمة البربر الأولى ونزولهم على وادي يارو عاد هو الى سبته ، ولم يعد للأندلس الا بعد انتصار المستعين ودخوله قرطبة ، لينال منه التقليد على ما كان بيده . وعندما تم له ذلك طمح الى الخلافة ، فقد قتل قاضي سبته واحد كبار الفقهاء فيها ، لأنهما كانا على اتصال بالمستعين،كما أوعز لأخيه القاسم المقيم بقرطبة الهرب منها الى الجزيرة الخضراء والسيطرة عليها.وبذلك أمن على ما بيده وعلى قاعدة لنزوله ، كما وفر له الاتفاق مع خيران العامري صاحب المرية ، حليفاً مجاوراً ومحارباً ، وأعلن ليبرر قيامه على الخليفة القائم بقرطبة ، ان

---

(١) انظر : الضبي ، بغية الملتمس ص ٢٥ ـ ٣٥ .

الخليفة الشرعي هو هشام المؤيد الذي قتله ابن المستعين ، وان الخليفة المقتول قد عهد له بالخلافة من بعده •

تقدم علي بن حمود وخيران نحو قرطبة ، وهزم سليمان المستعين ، ثم دخلها وقبض على المستعين وأخيه وابنه وقتلهم بهشام المؤيد • والملاحظ هنا أن قبائل البربر لم تنتصر للمستعين ولم تدافع عنه ، وربما كان مردّ ذلك لاستقلالها في الكور واستقرارها بها كما أشرنا ، وكذلك لأن الحمودي كان أقرب اليهم ، اذ أنه ، رغم نسبه ، قد تبربر الى حد التأثير على لهجته ، فقد قال عند قتل المستعين « لا يقتل الزلطان غير الزلطان [1] » •

بويع علي بن حمود كخليفة يوم الاحد ٢٢ محرم سنة ٤٠٧ هـ / ٢ تموز ١٠١٦ م وتلقب بالناصر لدين الله ، وهو أول خليفة طالبي يعتلي عرش الخلافة في الاندلس • استمرت خلافته ما يزيد قليلاً عن سنة وتسعة شهور ، ومع أنها قصيرة الامد ، الا أنه سلك خلالها سياستين متناقضتين • فقد سلك أول الأمر مسلكاً قرّبه من القرطبيين والصقالبة ، اذ اضطهد من كان في صفوف جنده من البربر ، وطبق عليهم من العقوبات الشديدة ما بلغ حد القتل عند أقل اعتداء من أحدهم على أموال القرطبيين ، وجلس بنفسه للمظالم وباشر بشخصه اقامة الحدود • وهذا أدى الى انتعاش القرطبيين في جميع مجالات الحياة ، رغم أنه لم يسر على هذه السياسة أكثر من ثمانية أشهر • وربما كان انقلابه نتيجة لانفصال خيران العامري عنه اثر خلاف معه ، وشكه بوجود دعوة في قرطبة للمعيطي خليفة الصقالبة في الشرق • وقد تجلّى هذا الانقلاب بالعودة لسياسة المستعين والبربر مع القرطبيين ، فنزع السلاح من الناس وفرض عليهم المغارم ليضعفهم ويقوي نفسه ، ونشط للتجسس على حركات الناس وأخذهم عند أقل شبهة ، وجعل لذلك شطراً من الناس أشراطاً على سائرهم ، كما بالغ في اهانة أعيانهم مستغلا شتى المعاذير • وأخيراً قام ثلاثة من عبيد الأمويين الصقالبة ، ممن أبقاهم في القصر ، باغتياله في الحمام غرة ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ/٢١ آذار ١٠١٨م •

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٢١ •

القاسم بن حمود : ـ

بويع له بعد وفاة أخيه بستة أيام ، فحاول أن يسير بسيرة أخيه الأولى وقدم الدليل على ذلك بعدم محاولة استغلال مقتل أخيه للتنكيل بالخصوم ، وانما اكتفى بقتل قاتليه بعد اعترافهم ، وحسب حكم الشريعة . وكان ذلك فاتحة التقرّب للقرطبيين اذ أقرّ منهم من كان يعمل في خدمة أخيه ، من قاض وحكام وأهل خدمة ، على مراتبهم . وبالنسبة للقرطبيين عامة أسقط عنهم ضريبة التقوية ، وألغى وظيفة السعاة أو الجواسيس على الناس وطردهم .

وربما أوشكت هذه السياسة على التبدل وانحياز الخليفة الجديد نحو البربر ، بعد ارتقائه عرش الخلافة بقليل ، بسبب بروز خطر عظيم هدّده وهدّد البربر بآن واحد . اذ نصب بعض الأمراء الصقالبة وأمراء الثغور خليفة جديداً ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، أي أحد أبناء حفيد من أحفاد الناصر الكثر ، ولقبوه المرتضى . وكان تنصيبهم له في سنة ٤٠٧ ، أي في عهد علي الحمودي ، والجديد الخطر في أمره الآن ، أنهم لم يكتفوا بابقائه خليفة في الثغر ، بل حاولوا السير تحت لوائه للاجهاز على خصومهم البربر ، مما يمهد لهم السبيل لتنصيبه خليفة على الأندلس . ووجهوا هجومهم لا الى قرطبة العاصمة ، وانما لمعقل البربر في منطقة البيرة ، حيث يقيم زاوي بن زيري أكبر الزعماء البربر . وفي المعركة التي جرت عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م هزم المهاجمون بعد أن أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من النصر . وتعزو الرواية السبب لانسحاب بعض أمراء الثغر من المعركة ، بسبب انصياع الخليفة لأوامرهم ولحسدهم للعامريين مما كادوا يحرزونه من نصر ، وتبعهم الخليفة في الفرار ، مما جرّ النكبة على بقية الجيش من العامريين . وصب الفتى خيران كبير العامريين ، جام غضبه على الخليفة فأرسل له من ترصد حركاته في الهرب ، وقتله عندما عثر عليه في وادي آش [1] .

(١) انظر تفاصيل المعركة في : الذخيرة ، قسم أول ـ مجلد أول ، ص ٣٩٧ ـ ٤٠٢ . وابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢١ و ١٢٥ ـ ١٢٧ .

وأرسل زاوي الى القاسم بن حمود بقرطبة ، الخبر بمقتل المرتضي وهزيمة الأندلسيين مع سهمه من الغنيمة وسرادق المرتضى ، فسر بذلك وضرب السرادق على نهر قرطبة ، وغشيه الناس ينظرون اليه ، وقلوبهم تتقطع أسى وحسرة ، حسب قول أحد المؤرخين القدماء .

قوّى هذا الانتصار من مركز القاسم في قرطبة اذ ركن أهلها للخضوع بعد «أن ركدت ريح المروانية وتقطعوا في الأرض ودخلوا في غمار الناس» لكنه من ناحية أخرى رفع من أسهم البربر ، وخشي القاسم على ما يظهر من وقوعه تحت رحمتهم ، لذا اعتمد على عنصر جديد هو عنصر السودان، فرفعهم الى مراتب القيادة في خدمته ، وهذا ما جعل البربر يظهرون له العداوة . ثم ثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي صاحب سبته بينما كان أخ له يسطر على مالقة ، فنزل فيها ليكون قريباً من أذى عمه . ولجأ القاسم من جديد للبربر يطلب عونهم ، لكنهم رفضوا ، لأنهم ربما كانوا وراء قيام ابن أخيه للانتقام منه . عند ذلك وجد نفسه عاجزاً أمام ابن أخيه فغادر قرطبة الى اشبيلية حيث أقام ، بينما ضبط البربر القصر ريثما دخل ابن الأخ الى قرطبة بعد حوالي شهر من هرب عمه .

استمرت خلافة يحيى بن علي بن حمود الذي لقب المعتلي أو المستعلي من أول جمادى الاولى سنة ٤١٢ هـ الى ١٥ ذي القعدة سنة ١٣/٤١٣ آب ١٠٢١ ـ ٩ شباط ١٠٢٣ وكان ألعوبة بيد الزناتيين . الذين ضيقوا عليه في التكاليف حتى قصّر عليهم فخلعوه واستقدموا عمه القاسم من جديد . ولم تطل خلافة القاسم الثانية ، اذ أن القرطبيين رغم سكوتهم الطويل ، الا أن ضعف الحموديين المتناهي شجعهم على القيام من جديد ضدهم وضد جندهم البربر ، وهكذا قاتلوهم مدة خمسين يوماً أجلوهم بعدها مع جندهم ، بعد سبعة أشهر ، عاشتها خلافة القاسم بن حمود الثانية ، واتجه بعد ذلك الى اشبيلية التي أوصدت أبوابها في وجهه ، وقبل بالابتعاد عنها مقابل الافراج عن أهله فيها ، واتجه الى شريش حيث حاربه ابن أخيه يحى من جديد وحمله مكبلا الى مالقة .

سقوط الخلافة الأموية

أخرج الحموديون والبربر من قبل سكان قرطبة الذين جمعتهم الرغبة في الخلاص من هؤلاء ، ولم يكونوا متفقين على من سيحل محلهم . لذا بقيت قرطبة دون خليفة مدة شهرين ، عجز فيها أهلها عن الاتفاق على خليفة وأخيراً اتفقوا على الشورى ، التي طبقت على أساس اجتماع مندوبين عن الطبقات الثلاث الخاصة والجند والعامة ، يجتمعون لانتخاب واحد من ثلاثة مرشحين ، وهم سليمان بن الخليفة المرتضى المقتول ، ومحمد بن العراقي والثالث عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، ويلاحظ أن اثنين ، من هؤلاء المرشحين لهما ثارات على البربر ، مما يدل على شبه الاجماع في كره البربر . لكن الشورى لم تتم ، اذ أن الجند والعامة المحيطين بعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار فرضوه على الناس وبايعه الجميع في ٤ رمضان سنة ٤١٤ هـ/١٥ تشرين أول ١٠٢٣ م بلقب المستظهر بالله [1] ، لكن حكمه لم يستمر أكثر من سبعة وخمسين يوماً ، أي أقل من المدة التي عاشتها قرطبة دون خليفة . وربما كان مرد ذلك الى واقع استقلال المناطق خارج قرطبة ، وعدم قبولها بالعودة لطاعة من ينصب في قرطبة أو في غيرها ، وقد عاد من حملوا صيغة البيعة الى الأطراف والثغور بخفي حنين . وهذا يجعل الخلافة قرطبية محلية ، يقتصر سلطانها على بلد مخرب لا تقدم موارده الحد الأدنى الضروري لاقامة دولة والانفاق على جهاز اداري وعسكري . وهكذا لم ينل أهل الخدمة رزقاً . وقام الخليفة بمصادرة من بقي من الناس ميسوراً . لكن ما حصل لم يرض الجند على ما يظهر ، فشغبوا عليه وهاجموا قصره وأخرجوا المسجونين ، واتهموه باستقبال جند بربر وبمحاولة ادخال اولئك الذين حاربوا القرطبيين وحاربوه وضحى الناس في سبيل اخراجهم من بلدهم . اختبأ الخليفة ، ونصّب القائمون عليه

---

(١) انظر ابن بسام ، الذخيرة ، قسم أول ـ مجلد اول ، ص ٣٤ ـ ٤٣ .

مكانه ، محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر بلقب المستكفي يوم السبت ٣ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ/١٧ كانون ثاني ١٠٢٤م ، وكان أول عمل في عهده اكتشاف مخبأ الخليفة السابق وقتله . وقد اشتهر هذا الخليفة في تاريخ الأدب بكونه أباً لولادة الشاعرة محبوبة ابن زيدون ، وفيما عدا ذلك يعتبر رمزاً لما حلّ بمنصب الخلافة من انحطاط وتدهور ، فقد عرف بتخنثه وتشرده ، حتى اشتد الاملاق به أيام الحموديين الى حد أن مؤرخاً رآه يطلب من أهل الفلاحة ، اوان ضمهم لغلاتهم الصدقة تكليماً ومخاطبة . وكما رمز لانحطاط الخلافة بشخصه كذلك رمز اليه من ناحية السلطة ، اذ لم يمارس شيئاً منها على الاطلاق كان يقول للناس حسب قول ابن حيان « ارتعوا كيف شئتم وتسمّوا بما أحببتم من الخطط » ، ولم يتمسك حتى بالمحافظة على أملاك الأمويين ، اذ لم يحرك ساكناً تجاه استئصال البقايا من قصر الزهراء من قلع نحاس الأبواب وانتزاع رصاص الأقنية . ومع كل ذلك بقي قائماً كخليفة سبعة عشر شهراً . وبعدها دخلت عليه مجموعة من الناس باسم يحيى الحمودي وطلبوا اليه الخروج من القصر معهم ، فخاف وهرب في زي النساء « متنقباً بين امرأتين لم يميز منهما لمرانه على التخنث ، وذلك في يوم الثلاثاء في ٢٥ ربيع أول سنة ٤١٦ هـ / ٢٦ مايس ١٠٢٥ م ثم قتل بأقليش من الثغر اما لأن بعض مرافقيه اتهموه بمال أو أنه مات مسموماً »[١] .

لم يكن يحيى بن حمود متحمساً لحكم قرطبة ، لذلك لم تكن له علاقة وثيقة بالاطاحة بالمستكفي ، بل كانت العملية كما يقول ابن حزم بسعي جماعة من المفسدين . والدليل على ذلك أنه لم يدخلها الا بعد ستة شهور ، أي في ١٦ رمضان سنة ٤١٦ هـ / ١٣ تشرين ثاني ١٠٢٥ م . كذلك لم يقم فيها الا حتى نهاية العام ، ثم غادرها بعد أن ترك له نائباً فيها .

وشاع أن خيران العامري ومجاهد قادمان الى المدينة ، فقام بعض أهلها وقتلوا من بها من جنود البربر ، ما عدا اولئك الذين استطاعوا الهرب مع

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم اول ـ مجلد اول ، ص ٣٧٦ ـ ٣٨٤ .

نائب الخليفة الحمودي • لكن القائدين الصقلبيين لم يقيما بها أكثر من شهر ، ثم اختلفا وخشي كل منهما الغدر من صاحبه ، فخرج خيران ومن كان معه يوم الأحد أواخر ربيع الآخر سنة ٤١٧ هـ/منتصف مايس ١٠٢٦م وبقي الموفق أمداً يسيراً بعده ثم انصرف الى دانيه •

يمثل خروج خيران ومجاهد من قرطبة نهاية أخيرة لتدخل الصقالبة في قرطبة كما يعني فشل العامة في ادارة المدينة ، وتمزق صفوفهم لدرجة أنهم لم يستطيعوا الاتفاق على خليفة بعد خروج الحموديين عدة شهور • وازداد الهرج والمرج خوفاً من عودة البربر للمدينة • وبرزت الى الساحة قوة جديدة كانت منعزلة عن الاحداث ، وهي تلك الاسرة العريقة في خدمة الأمويين وهي أسرة آل جهور ، وكان يمثلها في هذه الفترة أبو الحزم جهور • ويظهر أنه ربط بين الخلافة وطاعة المناطق الأخرى لقرطبة ، وبما أن الشرق للصقالبة والجنوب للبربر ، فلم يبق سوى الاتفاق مع أهل الثغور فكاتبهم هو ومن معه للاتفاق على خليفة • ويبدو أنه اتعظ من الفترات السابقة التي انتخب فيها القرطبيون خلفاءهم ، فلم يخضع لهم أصحاب الثغور، فعرض عليهم أن ينتخبوا من يريدونه ويقبل به الناس في قرطبة • وبعد أمد طويل اتفق على تقديم أبي بكر هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر ، وهو أخ للخليفة المرتضى • وقد نجا من المعركة التي قتل فيه أخوه وأقام في حصن البونت عند أصحابها من بني القاسم • وبويع في ربيع الأول عام ٤١٨ هـ / من منتصف نيسان الى منتصف مايس من عام ١٠٢٧م بلقب المعتد بالله • وبقي متردداً في الثغور مدة تقرب من ثلاثة أعوام ، ريثما اتفق أصحابها على أن يصير لقرطبة قصبة الملك ، التي دخلها في ٨ ذي الحجة عام[1] ٤٢٠ هـ/١٨ كانون أول سنة ١٠٢٩ م •

كان في منظر الخليفة : خوله ، بعد طول انتظار ، كل ما يخيب

---

(١) الحميدي ، جذوة الاقتباس ، ص ٢٠ •

الآمال ، فلا رواء ولا بهجة ولا عدّة تذكر بالخلفاء الأمويين • وجاء معه من جملة الموالي حكم القزار أو حكم بن سعيد الحائك ، وهو من أصل قرطبي وضيع • وقد قلده الوزارة فأدار الأمور على سبيل الاستبداد ، وقنع الخليفة منه بأن يخصّص له ما يريد من الطعام والشراب والملذات • لكن الوزير لم يستطع أن يفعل شيئاً لأنه حاول الحصول على المال من أصحابه فعاداه كبار القوم واتهموه بعداوة الأحرار والميل على ذوي البيوتات ، وتأخرت الاعطيات فنقم عليه الجند وتحالف معهم قسم من العامة،تحت لواء أمية بن عبد الرحمن العراقي ، فقتل الوزير أولا ، ثم اقتحم القصر ونهب ودخله أمية فتبوأ مجلس هشام واستوى على فراشه •

عندها أنهى أبو الحزم جهور زعيم قرطبة بتدخله مارأى فيه مهزلة كاذ أمر بكف الأيدي،واتفق مع أعيان المدينة على ابطال خلافة الأمويين،وتعطيل الخلافة عموماً لعدم وجود الجديرين بها • وحمل هشام وأهله الى ساباط المسجد ، وهناك ، أُمر بالخروج فخرج الى أحد الحصون • وقد بلغ من استهانة الناس بالخلافة أنهم لم يأخذوا خطة بالخلع ولا شهد عليه بعجزه عن تدبير الخلافة ، وتحليله الأمة مما له في أعناقهم من البيعة على السبيل المعهودة • كما أخرج الثائر من القصر ونودي في الأسواق والارباض ، بألا يبقى أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد • وتسلّم أبو الحزم ادارة شؤون المدينة ، وولدت بها آنذاك دولة من دول الطوائف بعد أن عمّ الأندلس أمثالها • وكان خلع آخر خليفة وبداية طائفة قرطبة يوم الثلاثاء ١٢ ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ / ٢٩ تشرين ثاني ١٠٣١ م •

نظرة عامة على الفتنة

كانت أحداث عصر الفتنة التي سردناها حسب الخلفاء والتسلسل الزمني متلاحقة ومعقدة ومشوشة ، ولم نبغ من سردها فائدة ما ، سوى اعطاء القارىء الصورة كاملة لهذه الفترة • ويبقى من الضروري تقديم نظرة عامة للفترة، نركز فيها على الخط العام لمجرى الصراع، ونقاط الانعطاف فيه•

لا خلاف بين المؤرخين القدماء على اعطاء هذه الفترة الممتدة من سنة ٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٨-١٠٣١م، اسم الفتنة ، ولكن الخلاف واقع حول البادىء بها المضرم لنارها ، فبينما يلقي المؤرخون ذوي الميول البربرية تبعتها على المهدي محمد بن عبد الجبار ، الذي أطاح بحكم عبد الرحمن شنجول العامري ، ويطلقون عليها تبعاً لذلك اسم فتنة ابن عبد الجبار ، يرى المؤرخون الأندلسيون كابن حيان وابن حزم ، أن أول شرر للفتنة قد انطلق من ثورة البربر مع هشام بن سليمان الناصر عم المستعين على المهدي ، ويبين ابن حزم وكأنه يحاول أن يدحض رأي المؤرخين البربر ، بأن المهدي كان خليفة بايعه الجميع سواء في العاصمة أو في الثغور وحتى البربر ذاتهم •

أما القوى المتصارعة فكان منها ثلاث قوى رئيسية : عامة قرطبة ، والصقالبة الذين كانوا خدم القصر وحرسه وكذلك كان منهم حكام مناطق متعددة في الشرق والثغور وبيدهم قيادة أكثر القوى العسكرية في هذه المناطق • وأخيراً قوة البربر ، الذين كانوا من قبائل مغربية شتى ، لكن الزعامة في عصر الفتنة حطت بين يدي زعيم صنهاجة زاوي بن زيري • واضافة لهذه القوى الرئيسية كانت هناك قوى ثانوية ، كالأسرة الأموية ولعب أفراد منها أول الفتنة دوراً لا بأس بأهميته ، لكن أبناءها لم يلبثوا أن أصبحوا مجرد دمى تحركها القوى الرئيسية المتصارعة، ولتستخدمها واجهة شرعية • وباستثناءات قليلة ، كان كل الخلفاء الأمويين الذين نصبوا في هذه

الفترة من الناصريين ، أي من أحفاد الناصر أو أبناء أحفاده • وبينما كان دور هـذه القوة الثانوية ، يتضاءل تدريجياً أثنـاء الفتنة ، أخذ دور قوة ثانوية أخرى ، وهي قوة نصارى الشمال ، يتعاظم يوماً بعد يوم • وقـد لجأت اليها القوى المتصارعة بسبب التوازن في القوى بينهـا ، ويظهـر أن الأندلسيين كانوا متفوقين عـلى البربـر عددياً ، وعوّض هؤلاء عـن ذلك بتضامنهم الأوثق ودربتهم في الحـرب وشدة مراسهم فيهـا • لذلك كثيراً ما تحالف الصقالبة وعامة قرطبة كي يستطيعوا الوقوف بوجههم • ولكـي يزيد كل فريق من قوته كان يتحالف مع قوة من قوى الشمال المسيحي ، فيرد الطرف الآخر بالتحالف مع قوة أخرى مسيحية أيضاً • وكان الثمن حصوناً ومدناً أو مالا ، أو كليهما معاً •

اتسم هـذا الصراع بالشراسة والقسوة على الخصوم ، وكان يغرق شيئاً فشيئاً بهذه السمة ، الى حد اعتبار كـل طرف للطرف الآخـر كعدو الدين أو أشد منه • ويلاحظ ابن حيان وهو يمثل وجهة النظر الأندلسية أن المستعين المسمّى بخليفة البربر ، كتب الى الأطراف بعد سيطرته على قرطبة « بخبـر فتحه قرطبة وكانت موشحة بما توشح بـه كتب الفتوح الاسلامية على أهـل دار الحرب من وصف حـال القهـر وشدّة السطوة والاقتدار على الفتك والاستباحة [1] » ويصف مؤرخ ذو ميول بربرية رد الفعل لدى القرطبيين وموقفهم من المسيحيين الأسبان الذين يساعدونهم ضد البربر بقوله « وقف رجل نصراني في أعظم شوارع قرطبة ونال منه صلى الله عليه وسلم • فلم يكلمه أحد منهم بكلمة ، فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي ألا تنكرون ما تسمعون ، أما أنتم مسلمون ، فقال له جماعة من أهل قرطبة، امض لشغلك• وكان الأفرنج اذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولاً لا يذكر ، فلا يعترض عليهم أحد بشيء • وجمع أهل قرطبة مالا كثيراً للأفرنج وسألوا القاضي ابن ذكوان أن يدفع اليهم مال الأحباس المودع في

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم أول ـ مجلد أول ، ص ٢٥ •

مقصورة الجامع ، فامتنع عليهم فكسروا باب المقصورة وأخذوه فدفعوه الى الأفرنج[1] » • ولما أعلن هؤلاء عن رغبتهم بالرحيل عن قرطبة « حصل لأهل قرطبة لفراقهم أكبر هم ، حتى كان بعضهم يلقى بعضاً فيعزيه كما يعزي من فقد أهله وماله أسفاً على رحيلهم وجزعاً من وصول البربر اليهم »•

أما مجرى الصراع خلال هذه الفترة ، فقد مرّ بثلاث مراحل رئيسية ، هي :

المرحلة الاولى ـ ما بين ٣٩٩ ـ ٤٠٣ هـ / ١٠٠٨ ـ ١٠١٢ م :

خلال هذه السنوات الاربع احتدم القتال بين البربر من جهة وعوام قرطبة الذين تحالفوا مع الصقالبة من جهة أخرى ، للفوز بالسيطرة على قرطبة والخلافة • وانجلى الصراع عن انتصار البربر بصعوبة وسيطرتهم على قرطبة • لكن المدينة التي وقعت في قبضتهم لم تكن قرطبة القديمة ، لانها أضحت مخربة مهدّمة ، كما أنها لم تعد سيدة الأندلس ، اذ أصبح التمزق واقعاً فعلياً•فقد اتجه الصقالبة المنهزمون شرقا ، حيث نقاط تجمعهم والاسواق التي اشتروا منها ، واقاموا لهم فيها قواعد يحتمون بها • أما البربر فقد رأوا ان اقامتهم في قرطبة ، اضحت محفوفة بالأخطار في وسط كاره ومعاد ، لذا اخذوا المناطق القريبة من بلادهم الاصلية والواقعة في الجنوب والجنوب الغربي • واستغلت الاسر الاقطاعية القديمة في الشمال كبني تجيب وبني ذي النون ، ضعف المركز ، فسيطرت على المناطق المحيطة باقطاعاتها •

المرحلة الثانية ـ حتى عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م :

دعم كل من الصقالبة والبربر مواقعهم في المناطق التي سيطروا عليها واقاموا لنفسهم دولاً ، لكنهم كانوا يحاولون التدخل في قرطبة لتنصيب خليفة فيها ، يكون واجهة شرعية لحكمهم في مناطقهم من جهة ، وأداة

---

(١) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٧ـ٩٨ •

يسيطرون باسمه على ما امكنهم من الاندلس • وقد ابقى الصقالبة على تحالفهم مع عامة قرطبة وظلوا مع تولية احد الناصريين كخليفة ، بينما دعم البربر اسرة الحموديين ، التي كانت ادريسية علوية ، الا انها تبربرت نتيجة اقامتها الطويلة في المغرب • وانتهت هذه الفترة بخروج هذه الاسرة من قرطبة ، لعدم اهتمام البربر بقرطبة من جهة وبأن تكون الاسرة ذات قوة فعلية •

المرحلة الثالثة ـ ٤١٤ ـ ٤٢٢ هـ / ١٠٢٣ ـ ١٠٣١ م

وفيها كاد تدخل البربر والصقالبة يغدو معدوماً ، وتركت قرطبة لمصيرها ، وقد مزقتها الخلافات بين الطبقات والفئات الاجتماعية وتخربت وقل سكانها بالهجرة والقتل والمجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية الأخرى • وحاول أهلها عبثاً اقامة خليفة تجتمع له طاعة الصقالبة والثغور على اقل تقدير ، كمقدمة لاعادة نفوذها القديم • لكن مسعاهم فشل ولم يحصل خليفتان لهم على اي طاعة من أهل الثغور ، وبعدها قبلوا من حلفائهم خليفة اموياً يرتضونه هم وقد ارسل لهم هؤلاء ، بعد تردد ، خليفة لم يمارس هو وحاشيته اي سلطان الا على القرطبيين ، وحدثت المنازعات بينه وبين فئات العامة • وقامت أخيراً الفئة النبيلة ذات الماضي العريق بالادارة ، باعلان انهاء الخلافة وطرد الامويين من قرطبة ، التي اصبحت مقر طائفة ، شأنها في ذلك شأن سائر مدن الاندلس الهامة الاخرى •

المجتمع وأسباب سقوط الخلافة

التجانس الاجتماعي : ـ

كان العصر السابق عصر الامارة ، عصر الانقسام العنصري والديني وكان هذا الانقسام محركاً أساسيا لأحداث العصر ، اذ ملأته حوادث الصراع بين العرب والمولدين ، والمولدين والسلطة في الثغور والكور المجندة • وكذلك قام المستعربون بقسطهم في هذا المجال ، عندما قاموا بالدفاع عن دينهم وثقافتهم بما يسمى بحركة الاستخفاف ، وتوّجت حركات المولدين والمستعربين ، بآن واحد ، حركة عمر بن حفصون •

ومع بداية عصر الخلافة ، آلت حركة ابن حفصون الى الفشل ، وهذا يعني خضوع المولدين والمستعربين للخليفة الاموي في قرطبة ، لكن هذا الخضوع لم يكن وقتياً وانما اصبح دائما • وهذا يبرره زوال سبب هام من أسباب انتقاض المولدين وهو امتيازات الاجناد•وبذلك زالت كل العوائق التي كانت تقف حجر عثرة أمام اندماج العناصر وتكوينها كتلة متجانسة اجتماعياً • نلاحظ في هذا المجتمع سيادة العربية الفصحى نهائيا في المجال الثقافي ، على حساب اللاتينية التي انحسرت ضمن نطاق ضيق في صفوف كبار رجال الدين • أما في مجال الشارع والبيت والعمل فهنا كانت السيادة للاكثرية العددية من السكان ، ولذا سادت هنا اللغة اللاتينية العامية أو الرومانس • وليست هذه السيادة اللغوية ، في المجال الشعبي ، اذا جاز لنا استخدام هذا اللفظ على سبيل المجاز ، سوى انعكاس لمدى سيطرة العنصر السكاني الاسباني في كثير من مجالات التقاليد والاحتفالات ، وأوضح الامثلة عليها احتفال الاندلسيين بعيدي رأس السنة ويوم العنصرة وهما عيدان مسيحيان •

جاء في احدى مجموعات الفتاوى « سئل ابو الاصبغ موسى بن محمد التطيلي عن ليلة ينير (يناير ، كانون الثاني) التي يسمونها الناس الميلاد ، ويجتهدون لها في الاستعداد ويحيلونها كأحد الاعياد ويتهادون فيها صنوف الاطعمة وانواع التحف والطرف المنوية لوجه الصلة ويترك الرجال والنساء اعمالهم ، تعظيما لليوم ويعدونه رأس السنة » . كما يصف آخر، كيف يقيم آخرون نصبات فيها ، غالية الكلفة لما يضعون فيها من قناطير الحلوى والفواكه وذوات القشور ، كما ان منهم « من جعل جمارة تحت اسرتهم تفاؤلا وأمارة ليكونوا في عامهم ذاك اكسى من الجمارة [(١)] » .

أما في العنصرة فكانوا سواء في الريف أو في المدن يجرون الخيل وتقوم النسوة برش بيوتهن ويخرجن ثيابهن الى الندى بالليل ، ويجعلن ورق الكرنب فيما تلبسنه ويغتسلن ذلك اليوم ويتركن العمل وحتى أصحاب المكاتب يأخذون الهدايا من الصبيان ويصرفونهم أيام هذه الأعياد .

وقد نهى الفقهاء عن ذلك وقاسوا ذلك على اعياد النوروز والمهرجان التي ورد النهي عنها فيما روي عن الرسول والصحابة واعتبر بعضهم من يقوم بها غير مسلم . ولكن الدلائل تشير الى غلبة هذه العادات بدليل استمرار الفقهاء في التأليف عنها والقول فيها منذ القرن الثالث وحتى السابع الهجريين ، وما يرد في أقوالهم وكتبهم من أقوال مثل « سئل محمد بن عمر بن لبابة عما يفعله الناس بالبادية يوم العنصرة من .. فأجاب مجانين الحاضرة يفعلونه وهو خطأ في الدين » . وفقيه اندلسي يسأل سحنون الفقيه القيرواني الشهير « انهم عندنا يفعلون كذا وكذا »[(٢)] مشيراً الى الأمور التي ذكرناها .

كذلك فان من يمتنعون عن القيام بها ويفعلون العكس اصبحوا

---

(١) الجمار : هو قلب النخلة ، ذو لون أبيض ، انظر : تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب، تحقيق وتعليق ، رينو وجورج كولان، ص ١٣ وفي الترجمة والتعليق، ص٤٩ .

(٢) الأندلس ، مجلد ٣٥ (سنة ١٩٧٠) ، ص ١١٩-١٤٣ .

جديرين بالذكر والتعيين مما يدل على ندرتهم أو على الاقل لم يكونوا الأكثرية[1] .

هذا التجانس الاجتماعي ، يضاف اليه الكثرة النسبية لاعداد الغرباء الذين دخلوا الأندلس وكذلك صراع الأندلس مع الفاطميين ، أدّى كله الى جعل الشعور بالشخصية الاندلسية شعورا واعيا وقويا .

على ان التجانس لا ينفي الانقسام الذي انقلب الآن الى مذهبي ، تمثل في انتشار مذاهب لم تعرفها الأندلس قبلاً كمذهب ابن مسرّة ، كما أن شيوع دراسة كتب الاوائل بما فيها من فلسفات يؤدي لانتشار أفكارها التي تحتوي في نظر مالكيي الأندلس على انحرافات عن الدين القويم ، قد تصل بالبعض الى الالحاد[2] ، وهذا ما يفسر قيام ابن أبي عامر باحراق تلك الكتب مستثنياً منها ما كان ذا فائدة عملية كالطب والحساب .

الانقسام الطبقي : ـ

لكن الانقسام الاهم والذي لعب دوراً أعظم في احداث الفترة هو تحول الانقسام العنصري الذي كان قبلاً الى انقسام طبقي . وقد ساهم في هذا التحول التطور الاقتصادي الذي حصل في هذه الفترة . نتيجة للاستقرار السياسي وندرة الفتن ، وكان من مظاهره دخول مزروعات جديدة كالحمضيات ، ورقي وسائل الري كما ينعكس في القنوات التي مدها الخلفاء الى منشآتهم العمرانية في قرطبة ، وظهور خطة خاصة في بعض المناطق للري ، وهي وكالة الساقية في فالنسية . أما النشاط التجاري فيكفي للدلالة عليه الامكنة التي وصل اليها ابراهيم الطرطوشي . ومن الطبيعي

(١) نشر الوثائق المتعلقة باحتفال الأندلسيين بهذه الأعياد ، نقلا عن كتاب الدر المنظم في مولد الرسول الأعظم للعزفي ، ومجموعة الفتاوى التي جمعها الونشريس ، الاستاذ فرناندو دى الاغرانخا ، في مجلة الأندلس لعام ١٩٦٩ ، مجلد ٣٤ ، القسم الأول ص ١ ـ ٥٥ . وكذلك في المجلد ٣٥ لعام ١٩٧٠ ، ص ١١٩ ـ ١٤٣ .

(٢) Diccionario Historico Español, art. Agricultora .

ان يصب قسم من ناتج هذا النشاط في بلاط الخلفاء والحكام لكونهم من كبار المشاركين فيه لملكياتهم الواسعة من جهة،ولتحصيلهم الضرائب من جهة ثانية ، وانعكس ذلك في المباني العظيمة التي أقاموها وفي فخامة الآلات والادوات التي اقتنوها ، وكانت درجة ذلك الغنى تزداد كلما تقدم عصر الخلافة ، الى أن بلغت ذروتها في عهد عبد الملك المظفر العامري ، ويصف ابن بسام ألبسته للحرب بقوله « برز على جواد من مقرباته المنسوبة بأفخم تلك المراكب المسلسلة ، ولبوس درع فضية مطرزة بالذهب ، وعلى رأسه خوذة مثمنة الشكل محددة الرأس ، مرصعة الطرق بدر فاخر واسطته حجر ياقوت أحمر مرتفع القيمة ، قد لزم وسط الجيش وطرح الشعاع على سنة وجهه ، فما رأى الناس بعده ملكاً يعدله في البهاء والبهجة » • وينقل نفس الكاتب عن ابن حيان قوله في وصف انطباع التجار من مناطق أخرى عندما رأوا فخامة أدواته الملوكية « ما كان بالأندلس مثل ذلك في أمد الدولة ، بما اجتمع له من كثرة الجمع والزينة والعزة السلطانية • وأما التجار الغرباء فدخلوا يومئذ الى موضع هيئة التجافيف والاعلام المصورة وسائر القطع العجمية والقنا الهندية ، وموقف خيل الركاب بالسروج الثقال والتراس المذهبة والمفضضة ، ومنها بغال الركاب الرائقة في زيها المشهور ، وما اتصل بذلك من عدة غريبة • وتوصل اولئك التجار الى ذلك المكان قبل اباحته للنظارة باذن التمسوه من عبد الملك ، فلم يختلفوا في استيساغ ما عاينوه واتفقوا ــ وكانوا جملة عراقيين ومصريين وغيرهم ــ على أنه ما شاهدوا لأحد من حكومتهم مثله (١) » •

ولم يكن ذلك الغنى الفاحش وقفاً على الخلفاء والحكام بل كان من نصيب الارستقراطية بفرعيها : ارستقراطية النسب العريق مثل ابن عباد الذي يعود في أصله الى العرب الشاميين ، وكان يملك ثلث اشبيلية • وربما كانت طبقة موالي الأمويين أو نبلاء الوظيفة ، أكثر من السابقين غنى ،

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم رابع ــ مجلد أول ٦٠ ــ ٦٥ •

فابن جهور كان أغنى أهل قرطبة وأفحشهم ثراء ، وابن خطاب في مرسية مكنته موارده من استضافة المنصور عندما مر ببلـده في طريقه الى احدى الغزوات مع جيشه ، تلك الاستضافة التي يصفها ابن أبي الفياض بقوله : « أقام بها ثلاثاً وعشرين يومـاً في ضيافة أحمد بن دحيم ابن خطاب وابنه أبي الاصبغ موسى بن أحمد ، لـم ينفق أحـد من عسكره لنفسه درهمـاً واحداً فما فوق ، من الوزير الى الشرطي ، وكان يجدد كل يوم للمنصور نوعا من الطعام والفواكه ، بآلات مختلفة كاختلاف الأطعمـة والفواكه ، حتى صار خبراً في حديث المنصور ، ومفخراً عنده يباهي به . وبلغ أمره الى أن صنع له ماء الحمام من ماء الورد [١] » .

هـذه الطبقة الميسورة التي عرفت هنـا في الأندلس كما عرفت في المشرق باسم طبقة الخاصة ، كانت تجود ، وخاصة الخلفاء ، على من حولها من حاشية بالمال بكميات ضخمة اذا قيس بما يناله البعيدون . وحواشيهم هذه كانت تتألف من بعض الفقهاء والكتاب والشعراء والأطباء وكبار الجند.

أما السواد الأعظم من الناس فكان العامة ، التي غالباً مـا كان يقصد بهـا سواد الناس في المـدن . وقد تضخم عددهـا تضخماً كبيراً بقرطبة خلال عصر الخلافـة ، لأن نشاط الفعاليات الاقتصادية وحاجات الخلفـاء العمرانية خاصة تتطلب ذلك . ومن جهة أخرى فان ما يحتاجه الجيش الضخم من المرتزقة أو العبيد المقيمين فيها يستدعي أيضاً وجـود جماعات من الحرفيين ليقدموا لهم ما هـم بحاجة اليه مـن أدوات للحياة العادية وأسلحـة [٢] .

ومما ميّز أوضاع هذه الطبقة حياة العسر التي تعيشها ، ذلك لأننا اذا أخذنا مـا يورده المقرّي عـن أجـرة العاملين في بناء الزهـراء ، وهـو درهم ونصف، يصل الى ثلاثة دراهـم بالنسبة للمهـرة ، وحولناه الى قوة

---

(١) رواية ابن أبي الفياض ، في الحلة السيراء ، ص ٣١٣ .
(٢) انظر عن حاجيات قصر الخلافة والجند ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٨٥ .

شرائية تقريباً لبدا لنا أنه يعادل ثلاثة كيلوغرامات من الخبز الى ستة ، في الأحوال العادية ، أما في سنوات القحط فترتفع أسعار الدقيق الى ثلاثة أضعافها ، مما يودي بحياة الآلاف من هؤلاء جوعاً . واذا ضربنا صفحاً عن أحوال القحط الاستثنائية، تبقى حياة هؤلاء عسيرة ، بسبب الفارق الهائل بين ما يحصلون عليه وما يرونه من ثروات ، وهم يعيشون في الحاضرة حيث تتجمع . ونفس الفارق الكبير يرى أيضاً بين ما يكسبونه وما يدفعه الخلفاء لمن حولهم ، فقد كان راتب عبد الملك بن شهيد وزير الناصر خمسمائة دينار في الشهر . وقد أعطى المنصور صاعداً البغدادي مبلغ ألف دينار وخصص له كمرتب ثلاثين ديناراً في الشهر ، وقيمة الدينار كما رآها ابن حوقل في الأندلس عند زيارته لها سبعة عشر درهماً [1] . ولعل مما يزيد شعورهم بالفقر ، أن المجتمع الأندلسي حصل فيه آنذاك ما يحصل في كل المجتمعات التي تتضخم فيها الثروات اذ زادت فيه أثمان الأشياء وخاصة في الفترة الأخيرة أيام عبد الملك المظفر ، حسب شهادة ابن حيان [2] .

وربما كانت أوضاع العامة هذه تجعلها مضطربة وميّالة للشغب . وقد حاول الخلفاء أن يخففوا عنها بأسقاط المغارم عنها جزئياً أو كليا ، ويذكر لنا المؤرخون القدماء نتفاً من أعمال الحكم تجاه هذه الفئة ، فقد سمح لمن يصنع الأدوية في مقره بأن يعطي منها للفقراء ، وأوجد مكاتب لتعليم أبنائهم ، كما أمر بأن يحبس « ربع ما جرته اليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كور الأندلس وأقاليمها على ثغور الأندلس كافة تفرق عليهم غلات هذه الضياع عاماً بعد عام على ضعفائهم الا أن تكون بقرطبة مجاعة ، فتفرق فيهم الى أن يجبرهم الله [3] » .

وقد تكون هذه الأعمال من أعمال الخير ابتغاء ثواب الله ، لكنه قد

---

(١) انظر عن الأسعار والأجور ، صلاح خالص ، اشبيلية في القرن الخامس ، ص ٥٣ـ٦٠ .
(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم رابع ـ مجلد أول
(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

يكون فيها أيضاً بعد نظر سياسي ، اذ فيها تقريب للعامة واتقاء لشرها،لأن ماضي هؤلاء العامة ، عندما لم يكونوا بهذه الكثرة وتلك القوة ، يبرهن على مقدار خطرهم اذا هاجوا ضد السلطة • كما أنه بعد الحكم المستنصر ، كانت صفوفها موئلاً للتشنيع على ابنه هشام وأرملته صبح والحاجب ابن أبي عامر ، لذلك كانت للعامري عيون في صفوفها ، كما أن الدعوات التي حاولت الاطاحة بالعامريين كان اعتمادها على العامة وقد فشلت دعوة من هذا النوع في زمن عبد الملك المظفر ، ولكنها نجحت في عهد أخيه شنجول •

تولد عن هذا الانقسام شعور لدى أفراد الفئات أو الطبقات بمكانتهم وبما يميزهم عن غيرهم،وهكذا نرى ارستقراطيي الوظائف يعتبرون الوظائف العليا حكراً عليهم•وعندما يعين الخليفة الحكم جعفراً المصحفي للحجابة يبدو لهم الأمر خارقاً وغير معقول•ومع ذلك فان شعوراً مشتركاً بين جميع الطبقات ساد في هذه الفترة بشخصيتهم الأندلسية المتميزة عن العناصر الجديدة التي ازداد عددها في هذه الفترة وهي العبيد وخاصة الصقالبة والبربر •

العبيد والصقالبة : ـ

عرفت الأندلس ، ككل البلاد في العصور الوسطى العبيد من جميع الأجناس ، الذين كانوا يشترون لغايات مختلفة وأغراض متباينة من الخدمة المنزلية الى الخدمة العامة وكذلك للتسري أو للمتعة •

وقد ارتبط اسم الأندلس مع العبيد الذين عرفوا بالصقالبة ، وهم كما يفهم من اسمهم المرتبط بالسلاف ، من بلاد الصقلب أي بلدان شرق أوربا مثل بلغاريا والمجر وبلاد التشيك ، لكن التسمية لم تلبث أن أصبحت عامة وعلماً لكل العبيد البيض • ومن الطبيعي أن يكون مصدرهم الأول هذه البلاد ويحملون الى الأندلس عن طريق المانيا

بواسطة تجار يهود ، ويعزى الى هذه التجارة سبب وجود جاليات منهم في مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية مثل مغديبورغ ومرزيبورغ [١] .

وربما عادل هـذا المصدر في الأهمية ، مصدر الغزو ومـا يأسـره البحريون في ضرباتهم على كل شواطىء الحوض الغربي للمتوسط [٢] .

ولهؤلاء العبيد أسواق كبيرة مشهورة في الأندلس أهمها سوق طليطلة الذي يطغى عليه ، كمـا يتبين لنا مـن صيغ عقود البيع الباقية عنه ، أن أكثرية التعامل فيه كانت من عبيد جليقية نساءً ورجالاً ، ويقصد بهم سكان الشمال الأسباني كلـه من ليونيين واشتوريين وجلالقة وبرتغال • ولحد أقل عبيد قطالونية ، ويقصدون بهم سكان شمال اسبانيا الشرقي ، والمناطق المتاخمة لها من فرنسا الحالية مع البروفانس • وسوق آخـر هـو سوق قرطبة ، فيه تنوع أكثر في العبيد ، لكن التفوق يبقى من نصيب الجلالقة ، وتظهر بعض العقود مبادلة عبد جليقي بناء أو نجار باثنين من العبيد العجم (أي أوربيين من جنسيات أخرى) وربما يرجع تفضيل الجليقي لبعض صفاته مثل صبره وجهده في العمل ، ولكن الأهم من كل ذلك أنه يتكلم بلغة يستطيع التفاهم فيها مع أكثرية السكان • واشتهر من الأسواق الأخرى سوق بجانة لأنه مركز لتجميع العبيد الصقالبة الواردين من أوربا ، حيث يستخدمون كبحارة ، كما يتم تأهيلهم أو اجـراء عملية الخصاء لبعضهم ، وكـان يقوم بهـا يهود في مدينة داخلية قريبة ، كانـوا يشكلون غالبيـة سكانها ويرجح أن تكون لوشة .Lucend • والعملية خطرة قد يذهب العديد كضحايا لها ، مما جعل أثمـان الخصيان مرتفعة ، بلغت في بيزنطة أربعة أضعاف ثمن الفحول •

كان العبيد البيض أعلى سعراً في الأندلس كما هـو الحال في ديـار

---

(١) انظر : آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري.ج ١.ص ٢٨٢-٢٨٣:

(٢) انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٠٦ .

الاسلام الاخرى،واهتمّ الأندلسيون بقضية اللون ، وخاصة بالنسبة للنساء ، الى حدّ التغيير في بعض القواعـد الشرقية الواردة من المشرق ، والمتمثلة بآراء مالك في هذا المجال ، لتصبح أكثر تشدداً . فحسب رأي مالك : ان من جملة العيوب التي لا تجيز فسخ عقود بيع العبيد ، اكتشاف أن أحـد أبوي العبدة البيضاء كـان أسوداً . لكـن ابن حبيب القرطبي يفصـل في الواضحة هذه الناحية ويميز بين شراء من أجـل التسري أو لغيره ، فاذا كان الأمر الأول فهذا العيب يعتبر مبرراً لفسخ عقد البيع .

ومن أنواع العبيد المشهـورة في الأندلس اضافـة للعبيد البيض ، العبيد السود وهو أمـر طبيعي لعلاقاتهم التجارية مـع افريقيا ، واستخدم هؤلاء في جميع المجالات منذ فجر التاريخ الأموي في الأندلس ، فقدكان في جيش عبد الرحمن بعض السود ، وظلوا كذلك مشاة وفرساناً حتى في عصر الخلافة ، فهـم يكونون صفوفـاً في الاستقبالات الرسمية ، كما أن المنصور بن أبـي عامـر زاد عدد الجنود منهم حتى بلـغ ٢٠٠٠ من المشاة واستخدم آخـرين ليقوموا بمهمـة الرقّاص في حمل البريـد . وكانوا يرافقونه في الغزو لتحملهم المشاق ، وعندما مرض في غزوته الأخيرةكانت السودان الرقاصة تحمل سريره ، وقد فضلهم للين مشيهم رغـم أنه كان حسب زعم ابن حيان يتأذى بصنان ريحهم (١) .

عرف استخدام العبيد في جميع مراحـل التاريخ الأندلسي ، لكـن الشيء الجديد في عصر الخلافة هو ازدياد اعدادهم ، فحالهم حال المتاع، يستكثر الناس منه بمقدار زيادة ثرواتهم.وكذلك بسبب الغزوات وكثرة الاسرى . لكن الأمر الأهم في عصر الخلافة ، ليس الكـم وانما الكيف بالنسبة لهؤلاء العبيد ، اذ كان مـن شأن ترفع الخليفة واعلائه مـن شأن منصبه واتخاذه المركزية الشديدة والسلطة المطلقة ، أن أحاط نفسه بعبيد لا بأحرار ، فقد كان لكبارهـم امتياز تأمـين الخدمة الشخصية له . فهناك

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم رابع ــ مجلد أول ، ص ٥٥ .

الفتيان الكبيران يقتسمان فيما بينهما قيادة الدائرة وهي الحرس الشخصي للخليفة • كما أن بعض كبارهم كانوا يتولون ادارة فروع الخدمات للحياة اليومية والسياسية في القصر • فهناك صاحب المطبخ الذي يشرف على تزويد الخليفة والقصر بالطعام ، وصاحب البنيان يشرف على الأعمال العمرانية التي كانت شغل الخلفاء الأمويين الشاغل • وصاحب الخيل وصاحب البرود الذي يشرف على أعمال البريد ويرأس الرقاصين • وصاحب الصاغة الذي يشرف على ادارة دار الصناعة الملحق بالقصر حيث تقوم جماعات من العمال بصنع الحلي الثمينة التي يحتاجها الخليفة لهداياه أو لنسائه أو لزواره • وصاحب البيازرة الذي يرعى بزاة الصيد وكذلك صاحب الطراز ، الذي يدير أعمال صبغ الألبسة الملكية اللازمة للخليفة ولرجاله ، وللخلع التي يقدمها كهدايا •

ومع ذلك تظل أسماؤهم بعيدة عن الأسماء المباركة لعموم المسلمين، فيعطون أسماء عامة للجنسين ، اما أن تكون ذات معان مجردة سامية ، مثل يمن ويسر ورجاء وفضل ، أو أسماء كواكب كبدر ، أو أسماء أحجار ثمينة مثل عنبر وياقوت • وأحياناً كانوا يعطون أسماء شعراء جاهليين كطرفة وزهير • كما كان البعض منهم يتولى مراكز عليا في الجيش وفي الادارة ، فمن المعروف أن أصحاب الثغر الأوسط ومركزه مدينة سالم ، كانوا من هؤلاء العبيد أصلا كغالب وواضح ، كما أن حكام العديد من المناطق كانوا منهم اثر وفاة المنصور بن أبي عمر • أما حالة العبودية فلم تكن أبدية ، بل كان الخلفاء يعتقون بعضهم في حياتهم ، أو يوصون بذلك بعد مماتهم • فيصبحوا عند ذلك موالي عتق وينتسبون اسماً الى سادتهم ، فالحاجب جعفر الخصي يطلق عليه أيضاً اسم جعفر بن عبد الرحمن وكذلك طرفة (١) •

أما عن أعداد هؤلاء الصقالبة فلا يوجد عنها في المصادر احصاء خاص

وانما تمر عرضاً ، ففي رواية لأبن حيان يشير الى عدد الغلمان العامريين الذين أشرف على تدريبهم عبد الملك المظفر ، فقد تلاحق في فترة حكمه « غلمان أبيه العامريين الناشبين في دولة المنصور ، وكان قد وفّر عنايته بهم وجدّ في تدريبهم ، ووقف حذاق المناقفين على تخريجهم فأثمر غرسهم وأمكن جناهم ، ورانت جملتهم في الفروسية والرماية ، وبلغوا ألفي غلام[1] » . وفي رواية أخرى أن الحكم توفي وفي ملكيته ألف مجبوب[2] . ويظهر أنهم كانوا جماعات يرأس كلا منها واحد يدعى خليفة ، كان عددهم سبعة خلفاء في عهد المنصور ، وهو ينوء بثقل كلفهم الباهظة ، فلما تولى ولده عبد الملك ، بلغ بهم ستة وعشرين فضاعف مؤنتهم أضعافاً كثيرة[1] .

الجند البربر : ـ

نقصد بالبربر هنا الجدد الذين قدموا، أو استقدمهم الخلفاء والحجاب في هذا العصر ، ذلك لأن القدماء الذين دخلوا مع جيش الفتح الأول ، جيش طارق بن زياد ، اصطبغ أكثرهم بالصبغة الأندلسية . وكان هذا نصيب أولئك القادمين على مجرى التاريخ الأندلسي والذين عملوا كفلاحين . أما الدوافع لدخولهم في عصر الخلافة فكانت متعددة على ما يظهر ، يأتي في مقدمتها التحضر والاغراق فيه ، وهذا يجعل الناس كما يقول الأمير عبدالله الزيري في التبيان يجدون في الاشتراك بالغزوات أمراً يشغلهم عن عمارة أرضهم[4] . ولذلك نرى الأندلسيين يبتعدون عن الجندية بقدر ما يستقرون ويتحضرون ، وأول ابتعاد لهم تسجله لنا الروايات كان في فترة الازدهار من عصر الامارة ، اذ أعفى الأمير عبد الرحمن أهل قرطبة من الحشد مقابل أن يجهزوا على حسابهم مجموعة

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١، مجلد أول ، ص ٦١ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٤) الأمير عبد الله الزيري ، التبيان ، ص ١٧ .

من المطوّعة عند كل صائفة[1] • ومن الطبيعي أن يزدادوا الآن بعداً لأن التحضر كان أوسع نطاقاً وأكثر عمقاً•ويلي ذلك استبداد الخلفاء وازالتهم لكل امتيازات الكبار ، الذين ملأوا آخر عصر الامارة بحركاتهم ومن جملتهم الأجناد العرب • وفي وقت حصل فيه احتكاك مع الشمال الافريقي وتعرف العرب على المهارات الحربية لتلك القبائل البربرية التي لم تتحضر بعد ، في وقت كانوا أشد ما يكونون فيه حاجة للحروب ضد الأسبان الشماليين بصورة خاصة • وتناسب دخولهم للأندلس طرداً ، مع ازدياد الاحتكاك بالشمال الافريقي ، لذلك كانت البداية في عهد عبد الرحمن الناصر ، الذي استقدمهم كأفراد ، تمشياً مع سياسته في تطبيق السيطرة المباشرة على الجميع ، لا من خلال زعماء كبار ، وهكذا لم يستخدم منهم حسب قول ابن حيان « الا أراذلهم وعبدانهم من أشابتهم وأساودهم موقعاً عليهم اسم الطنجيين ، مقتصراً بهم على أدنى الملاحق ، قاصراً لهم على أقل الرواتب ، مصرفاً لهم في أشق الخدمة » • وسار ابنه على سياسته كما تعمّد جعل التمايز قائماً بينهم وبين الجند الأندلسيين والصقالبة ، وأمر جنده بألا يقلدوا هؤلاء الطنجيين في شيء ، ولما شاهد عبداً في الجيش يركب الفرس بسرج عدوي الصفة أمر بمعاقبته وأحرق السرج في دار الجند وعلى مرأى منهم ، كذلك أبقى على سياسة أبيه فيما يتعلق بالبعد عن الزعماء والاقتصار على الجند كأفراد ، اذ عندما لجأ اليه ابنا حمدون بعد ما قتلا الزعيم الموالي للفاطميين انتزع منهما عبيدهما ومواليهما وجعلهم اتباعاً له وعبيداً • ويظهر أن موقف الحكم ، وقبله والده الناصر كان ناتجاً عن الشعور بالاعتزاز والايمان بالتفوق الأندلسي على هؤلاء البربر ، لاسيما وان التقدم الحضاري كان الى جانب الأندلس بشكل كلي وواضح • لكن هذا الشعور سرعان ما بينت خطأه التجربة القتالية ، التي لم تحدث الا في عهد الحكم وأثناء القتال مع الحسن بن كنون ، وذلك

---

(١) انظر الجزء الأول من كتابنا ، دراسات ، فترة الازدهار ، ص ١٦٦ •

عندما رأى أتباع هذا العاصي، القلائل ، يتغلبون على أضعافهم من الأندلسيين، وعند ذاك استقدم من استأمن له من جماعات العاصي ، وتكامل عنده ثلاث جماعات منهم ، جماعة ابني حمدون والجماعة الناصرة لهم من رجال البرازلة والجماعةالمستأمنة له من اتباع الحسن ، وكانت عدّتهم سبعمائة فارس . وقد تغير موقف الحكم منهم عند ضمهم ، فحل التقدير والاعجاب بهم وبعتادهم الخفيف وبمدى سيطرتهم على خيولهم ولذلك تمثل بقول الشاعر عندما رآهم يلعبون على خيولهم :

فكأنما ولدت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

ثم قال ما اعجب انقيادها لهم ، كأنها تفهم كلامهم[١] .

وبرّز بين هؤلاء البربر في الحرب كخيالة البرازلة ، ولذا قبل بهم المستنصر الى جانبه رغم كونهم يدينون بمذهب الخوارج ، الذي يعتبر مذهبا مارقا في الاندلس .

وقد اثبتت احداث العصر التالي في الاندلس ، وهو عصر الطوائف صحة تقديرات الحكم ، اذ اصبحوا قوة الحرب الرئيسية التي تهافت ملوك الطوائف على استنجارها . ويقول ابن حيان في هذا الصدد « فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك قليل عددهم منقطع مددهم اقتسموا قواعد الارض في وقت معاً مضرّبين ملوكها راتعين في كلئها باقرين عن فلذتها . حلوا محل الملح في الطعام بأسهم الشديد ، وقاموا مقام الفولاذ في الحديد لا يقاتل الاعداء إلا بهم ولا تعمر الأرض الا في جوارهم »[٢] . وجاء عهد العامريين وبه قفز البربر الى مقدمة الصفوف ، فقد لجأ المنصور الى سياسة عسكرية قائمة على الاعتماد على الغرباء اعتماداً كلياً واعفاء الأندلسيين ككل من المساهمة بالجيش ، وللانفاق على هؤلاء أخذ نسبة

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ١٨٩ ـ ١٩٤ .
(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، مخطوط بغداد ، ص ١٠ .

معينة من أموال الناس المحصاة لديه ، أنفق منها على عشرين ألف مرتزق في ديوانه • وكان في احدى الفرق لديه ثلاثة آلاف فارس بربري ، لكن العدد لم يكن مظهر التقدم المهم للبربر ، بل تصدرهم للوائح المرتزقة كلهم (١) • ومع ذلك تحاشى المنصور استجلاب زعماء كبار من البربر خوفاً من أذاهم،لذلك رفض السماح لزاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي بدخول الاندلس ، وكان هذا من العائلة التي نابت عن الفاطميين في حكم المغرب ثم استقلت عنهم ، واختلف مع ابن اخيه رأس هذه الدولة • أما ابنه عبد الملك المظفر ، فلم يأخذ بالحسبان ، تحفظات أبيه تجاه زاوي بل رأى في استخدامه ، وهو ابن ملوك ، رفعة لشأنه ، فأدخله بمن معه من أخوته وأبدى هذا من ضروب التكبر والغطرسة الشيء الكثير ، حتى أنه رفض رتبة الوزارة التي قدمها له المظفر قائلاً « انما خطتنا الحرب لا الوزارة ، وأقلامنا الرماح وصحائفنا الاجساد (٢) »• وأهلت زاوى مكانته هذه لزعامة البربر عندما حصل الاصطدام في الفتنة •

ادت هذه الخطوات المتلاحقة الى تضخم نفوذ البربر في المجال العسكري ، وجاء أخيراً عبد الرحمن شنجول ليبسط نفوذهم في المجال المدني ، وكان طلبه من كبار رجال الدولة ان يستبدلوا قلانسهم الطويلة التي كانت رمزاً لمكانتهم الرفيعة في الأندلس بالعمامة البربرية ، رمزاً لانبساط نفوذ البربر في هذا المجال •

---

(١) الأمير عبد الله الزيري ، التبيان ، ص ١٦ ــ ١٧ •

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم رابع ــ مجلد اول ، ص ٦١ ــ ٦٢ •

أثر سقوط الدولة الأموية وأسبابه

يعتبر سقوط الدولة الاموية واحدا من اهم الاحداث التي اثرت على مجرى التاريخ الاندلسي ، ويمكن ان يقارن من حيث الاهمية بالفتح ، او انشاء الدولة الاموية في زمن عبد الرحمن الداخل ، أو سقوط غرناطة وانهاء الوجود العربي الاسلامي سياسيا على ارض شبه الجزيرة الايبيرية • ومرد هذا ، الى انتهاء وحدة الاندلس بانهاء الدولة الاموية ، ومع انها وجدت لحد ما في فترات تالية ، انما على يد اغراب عن الاندلس ، وكانت وحدة قصيرة الأمد • والنتيجة الثانية للسقوط هي انقلاب وضع الاندلس انقلابا كاملا من دولة مسيطرة على الشمال الاسباني ، وذات نفوذ في الشمال الافريقي ، الى بلد يتنازع السيطرة عليه ملوك المناطق التي كانت تحت السيطرة او ضمن مجال النفوذ •

وربما يلي هذه النتائج في الاهمية ، افول نجم قرطبة كمدينة ، بعد ان تخربت عمرانيا واقتصاديا وبشريا ، وانقطع عنها ما كان يرد اليها من المناطق الاخرى لكونها العاصمة•لكن كنوزها الفنية والفكرية التي تبعثرت هنا وهناك ، كانت على درجة من الضخامة والفخامة معاً تكفي لبعث النهضة في العديد من الاماكن التي نالت حظا منها •

أما الحديث عن أسباب سقوط الدولة الاموية ، فلا بد فيه من معرفة الدعائم التي قامت عليها هذه الدولة والبحث فيما بعد عن مصير هذه الدعائم الاولى ، والتلازم بين المصيرين •

من المعروف ان الدولة الاموية في الاندلس قد ارتبطت نشأتها بعبد الرحمن الداخل الذي كان يدعي بحق له عن طريق اجداده ، لكن الحق

المدعي كان يقبله هو واسرته وموالي الامويين فقط ، أما القوى المسيطرة على الاندلس فلم تخضع الا بالقوة الحربية • ووطد عبد الرحمن الحكم على أسس سار عليها ، في خطوطها العريضة ، خلفاؤه طيلة عصر الامارة • ومن استقراء أحداث عصر الامارة يتبين لنا أنها كانت اعتماد الأمير على أفراد اسرته سواء الذين كانوا معه أو تلاحقوا في الوصول الى الأندلس بعد انشاء الدولة • وكذلك على موالي هذه الاسرة الذين ساعدوا في انشائها • وكان هؤلاء من اصول شتى بينهم الأحرار وبينهم العبيد ، وبينهم من ناحية العنصر العرب والبربر والروم والفرس • وقد اعطي هؤلاء المناصب العليا في الدولة كالوزارة والحجابة والقيادة ، لدرجة أن مثل هذه الوظائف أصبحت شبه وراثية في العائلة الواحدة ، كما ان الانتقاء كاد يكون مقصوراً على الاختيار من هذه الطبقة فقط ، حتى اصبح اسم مولى مرادفا لوظيفة عامة عالية ، فقد جاء في أحد شروط صلح بين أحد الأمراء وأحد الثائرين ، أن يلحق ابن الثائر بالموالي • كما اعطي ابناؤها حكم الولايات والاقطاعات لمناطق معينة ، فالبيرة اعطيت لموالي عبد الرحمن الداخل ، ومنطقة المرية وبجانة لآخرين• وأشهر أسر الموالي هذه، آل أبي عبدة وآل حدير وشهيد وفطيس الذين وصفهم احد المؤرخين بقوله « از مة الملك وقوام الخدمة ومصابيح الأمة[1] » وقد دافعت الأسرة ومواليها عن الدولة في كل أزمة تعرضت لها في عصر الامارة ، اذ كان قواد الحكم الربضي ، الذين أنقذوه في اشد الساعات حرجا من ازمة الربض من اقاربه • كما ان القائد الذي دوّخ ابن حفصون خلال المرحلة الاخيرة من عصر الامارة ، احد موالي الامويين من آل ابي عبدة •

كذلك كان من الركائز التي اعتمدت عليها الدولة الأجناد التي ثبتت على ولائها لعبد الرحمن الداخل ، وكان دورها في هذا المجال ، قمع المولدين المقيمين بين ظهرانيها •

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ •

جاء عصر الخلافة بما قضى على هذه الدعائم • فالأسرة الأموية تفككت وتآمر العديدون منها ، وكان القتل مصير اعداد منها ، وهو المصير الـذي لم ينج منـه بعض ابناء الخلفـاء • كما ان الجند انهكوا في حروبهم مـع المولدين وازيلت الامتيازات التي كانت سبباً رئيسيا في ثورة هؤلاء • ويظهر ان الخلفاء اجبروا على شراء العبيد بأعداد كبيرة ، حتى يستخدموهم كقوة توازن مع القوة العسكرية المكوّنة من الثائرين المستنزلين عن حصونهم • ومن الطبيعي ان تحتاج عملية كهذه لأموال طائلة للانفاق على هـذه القوة العسكرية وعلى شراء العبيد ، وربما كان ذلك هو الدافع الذي حدا بعبد الرحمن الناصر ، ليرنو بأبصاره نحو الثروات الهائلة التي تراكمت في يد تلك الاسر من موالي الامويين • وهذا واضح مما تنسبه الرواية اليه من تلميح لاحد افراد هذه الطبقة بقوله « ما بال رجال من خاصتنا توسعوا في دنيانا فطفقوا يحتجنون الأموال ، يضيعون تعمدنا،وهم يرون غليظ مؤونتنا في الانفاق على شؤوننا التي بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم ورفاهية عيشهم • ويعلمون أن أمير المؤمنين عمـر بن الخطّاب قسطاس الموازين قاسم عماله ارباحهم في تجاراتهم فجعلها في بيت المال ، وهو من هو وهم من هم والأسوة في فعله[1] » وقد فهم آخرون من هذه الطبقة نية الناصر لدين الله فصاروا يقدمون له اموالاً جمة على سبيل الهدية حفاظا على مركزهم ، واشتهرت في هذا المجال هدية احمد بن عبد الملك بن شهيد ، التي احتوت على البسة وخيل وعبيد واخشاب ثمينـة وضياع متعـددة ، وقـد افاض المؤرخـون الأندلسيون بوصفها[2] ، دون أن يحددوا الدافـع أو الغاية البعيدة وهو الحفاظ على مركزه باعطاء قسم من ثروته •

ومثل هذا الاسلوب يدفع للحذر ، ولذا اعتمد الناصر على العبيد وتبعه خلفاؤه في ذلك ، ويقول في ذلك ، أحـد المؤرخـين « استمد بغير الكفاة واغاظ الاحرار باقامـة الانذال كنجدة الحيري واصحابه الاوغاد فقلّده

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ •

(٢) انظر وصف هذه الهدية في ، المقري ، النفح ، ج ١ ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٧ •

عسكره وفوّض اليه جليل اموره ، والجأ اكابر الاجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه • وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه(١) ، وكان هذا سبب تواطؤ رجالات الاندلس ضده في كارثة الخندق عام ٣٢٦ هـ • وانتقم الناصر بصلب ثلاثمائة فارس بعد نجاته • والنتيجة التي نصل اليها أنه منذ أيام عبدالرحمن الناصر ، بدأت الدعائم التي دعمت الأسرة الأموية ، منذ انشائها حتى نهاية عصر الامارة ، بالانهيار • وسار خلفاؤه في هذا الطريق الى نهايته ، فحلت محل الدعائم القديمة التي ارتبطت مصالحها كأسر أو طبقة ببقاء السلالة الاموية ، ركائز جديدة من عبيد صقالبة وجند مرتزقة بربرية وافراد من اصل وضيع الا انهم مرتبطون بالخليفة ، كجعفر المصحفي على سبيل المثال في أيام الحكم • وهذا الارتباط بخدمة شخص الخليفة ، هدّد السلالة الاموية عندما جاء العامريون على القصر ومن فيه من مرتزقة وموظفين ، وسيطروا على الدولة كلها، بالاضافة لهذا السبب الذي يمكن أن نعتبره رئيسياً ، والذي يمكن تلخيصه بزوال الدعائم التي كانت تدعم الاسرة الاموية ، واستبدالها بعبيد مرتزقة في الجيش والادارة يرتبطون بشخص الحاكم ويتمركزون في القصر ، هناك سبب آخر ، وهو المركزية أو الاستبداد الكامل في هذا العصر ، في نفس الوقت الذي نمت فيه القوى المحلية الى حد كبير •

فطبيعة العصر والبيئة كانت تتنافى مع الاستبداد بشؤون الاندلس كلها ، ذلك ان بنية الاندلس الطبيعية وما يوجد فيها من حواجز طبيعية تدفع للاستقلال المحلي ، كما ان وسائل مواصلات العصور الوسطى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ •

وطريقة الانتاج ، تساعد الاتجاه النابع عن الوضع الطبيعي وقد لجأ الامراء الى التراخي في هذا المضمار ، فمجموعات القبائل أو الأسر القوية المقيمة في مناطق ملائمة كالحدود ، كانوا يتركونها مستقلة تقريبا ويرتبط زعماؤها بالأمراء برابطة ولاء ، كما هو حال أسرة بني قسي وبني تجيب وبني الجليقي ، وحسب النظام الاقطاعي الشائع في أوربا . بينما سار الخلفاء كالناصر على سياسة الحكم المباشر والمركزي والاستبداد بكل مناطق الاندلس ، وعبّر الناصر عن رأيه في ذلك بصراحة لسفير الامبراطور أوتون بقوله « ان نقطة واحدة من أعمال الامبراطور لا تدل على بصيرة نافذة ، وهي انه لا يحصر السلطة بنفسه ، ويدع لاتباعه ان يمارسوا بحرية سلطانه هو ، وذلك بتقسيمه بينهم بلاد مملكته ، وكان ذلك يجعلهم اكثر طاعة له ، وبالتأكيد لا يحصل ذلك وانما يثير بهذا كبرياءهم ويهيء بذلك الثورة على شخصه » . وعبّر عن نفس الفكرة اثر قضائه على الزعامات في الأندلس بالقول « ليكون الناس أمة واحدة ورعية ساكنة مرؤوسة غير رائسة ومتحكماً فيها بما يجب الله عز وجل »[1] . وقد فعل الخلفاء ذلك في وقت نمت فيه القوى المحلية ، من وجود جماعات قبلية متماسكة ، وغنى فاحش لبعض الاسر يمكنها من اقامة سلطان خاص بها . ولذلك ما ان انشغل المركز عن هؤلاء بفتنة قرطبة ، حتى استقلوا بما تحت ايديهم .

وهناك سبب أخير ، يمكن ان نعتبره منطلق الشرارة للفتنة التي ادت لزوال الخلافة ، ويتمثل بالصراع في قرطبة ، الذي أخذ مظهر النزاع العنصري بين اندلسيين وصقالبة وبربر بشكل خاص ، للتمايز بينهما في كل شيء وحتى في المستوى الحضاري ، ومحاولة شنجول فرض زي اصحاب الحضارة الدنيا وهم البربر على اصحاب الحضارة الاسمى وهم الأندلسيون . لكن عاملاً طبقياً كان كامناً دون شك وراء هذا العداء ، فقد

(١) المقتبس ، مخطوط المكتبة الملكية في الرباط ، ورقة ٩٧ .

كانت قوة القرطبين الثائرة ضد البربر ، هي قوة العوام بشكل رئيسي ، وقد ذكرنا قبلا كيف اصبحت هذه الطبقة ضخمة عدديا في هذا العصر ، معسرة في حياتها ، خاصة والتفاوت بينها وبين الطبقة العليا وحاشية الافراد هائلة ، فمن الطبيعي ان يجعلها هذا الوضع هائجة ، كما ان البربر والجند كان يبدون لها كأغراب أقل منها تمدنا ، ومع ذلك ينعمون بعطاء كبير من الامير ، عدا مايربحونه من الغزوات ، لذلك كانوا بالنسبة لهم على ما يظهر مختلسين لأموال يجب أن تعود عليهم

المصادر العربية والمترجمة

ابن الأبار ـ محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (أبو عبد الله)
التكملة لكتاب الصلة ، عني بنشره عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٦ ٠

الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

ابن أبي دينار ـ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني
المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ٠ تحقيق وتعليق محمد شمام ، تونس ١٩٦٧ ٠

ابن الأثير ـ علي بن الشيباني (عز الدين أبو الحسن)
الكامل في التاريخ ، مجلد ٥ و ٦ و ٧ ، بيروت ١٩٦٥ ٠

ابن بسام الشنتريني (علي أبو الحسن)
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩ م
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مخطوط بغداد ٠

ابن الجزري ـ محمد بن محمد
غاية النهاية في طبقات القراء ، القاهرة ١٩٣٣ ٠

ابن جلجل ـ سليمان بن حسان (أبو داود)

طبقات الاطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ ٠

ابن حزم ـ علي (أبو محمد)
جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

طوق الحمامة في الألفة والألاف ، منشورات مكتبة دار الحياة ـ بيروت ٠

ابن حوقل ـ محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (**أبو القاسم**)
صورة الأرض ، بيروت ، منشورات دار **مكتبة الحياة** ٠

ابن حيان ـ حيان بن خلف (أبو مروان)
المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق ملشور· م· أنطونية · باريس ١٩٣٧ ·
القطعة الثانيــة من المقتبس التي نشرها عبــد الرحمن الحجي في بيروت ، وتتعلق بسنوات من خلافة الحكم المستنصر ·
وكذلك القطعة التي نشرها الدكتور محمود مكي في القاهرة سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م ·

ابن الخطيب ـ محمد بن عبد الله السلماني (أبو عبــد الله لسان الدين)
الاحاطة في أخبار غرناطة · جزء منها تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ · وقطعتان مخطوطتان في الاسكوريال تحملان رقمي ١٦٧٣ ـ ١٦٧٤ ·
الجزء الخامس منه ، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ، رقم ٨٧ ، ويحتوي على تاريخ الثلاثين سنة الأولى من خلافة عبدالرحمن الناصر ·

ابن الخطيب ـ أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام
نشر الجزء المتعلق بالأندلس بتحقيــق ليفي بروفنسال في بيروت عام ١٩٥٦ ، تحت عنوان « تاريخ اسبانيا الاسلامية » كما نشـر الجزء المتعلق بالمغرب في الدار البيضاء عــام ١٩٦٤ ، بعنوان « المغرب العربي في العصر الوسيط » ، بتحقيق الدكتــور أحمــد مختار العبادي والاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ·

ابن خلدون ـ عبد الرحمن
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت ١٩٥٨ ·

ابن ســعيد
المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، الطبعــة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ ·

ابن عبد ربه ـ أحمد بن محمد ·
العقد الفريد · القاهرة ١٩٥٦ ·

ابن عذاري المراكشي
كتاب البيان المغرب في أخبــار الاندلس والمغرب ، ج ١ و ج ٢ ، تحقيق : ج · س كــولان و إ · ليفي بروفنسال ، طبعــة بيروت المنقولة عن طبعة المحققين في ليدن ١٩٤٨ ·

العذري ـ أحمد بن عمر بن أنس .

قطعة من « **ترصيع وتنويع الآثار** » ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ، مدريد ١٩٦٥ » .

ابن الفرضي ـ عبد الله محمد بن يوسف الأزدي (أبو الوليد)

تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، عني بنشره عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٤ .

بن القوطية ـ محمد بن عمر بن عبد العزيز (أبو بكر)

تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٥٧ ، ومع نفس الطبعة توجد « نبذة من أخبار فتح الاندلس » مأخوذة من « الرسالة الشريفية الى الاقطار الاندلسية » .

ارسلان ـ شكيب

تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطالية وجزائر البحر المتوسط ، القاهرة١٣٥٢ هـ وهو ترجمة في القسم الأعظم منه لكتاب

M. Reinaud, Invasion des Sarrazins en France et de France en Savoie, en Piemont et dans la Suisse.

بدوي ـ عبد الرحمن

التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، دراسات مترجمة لكبار المستشرقين ، مكتبة النهضة ١٩٤٠ .

البكري (أبو عبيد)

المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، وهو جزء من كتاب « المسالك والممالك » ، تحقيق DE SLANE ، الجزائر ١٨٥٧ .

توماس . و . أرنولد

الدعوة الى الاسلام ، ترجمة : الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والدكتور عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي ، الطبعةالثانية ، القاهرة ١٩٥٧ .

ابن حماد ـ محمد بن علي

اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، الجزائر ١٣٤٦ .

الحميدي ـ محمد بن فتوح بن عبد الله (أبو عبد الله) ·

جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧٢هـ·

الحميري ـ محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (أبو عبد الله)

الروض المعطـار ، في خبـر الأقطـار ، مخطوط عارف حكمت في المدينة المنوّرة ·

صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من الكتاب السابق الروض المعطار من خبر الاقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ · وقد نشره المؤلف أيضا مـع ترجمة للنص العربي ، والحق به عـدا التعليقات نصوصاً للبكري عن جغرافية الأندلس ، وذلك تحت عنوان:

La Péninsule Ibérique au Moyen - Age, Leiden 1938.

الخشني ـ محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني الاندلسي (أبو عبدالله)

قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، عني بنشره عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٣٧٣ هـ ·

الداني ـ عثمان بن سعيد (أبو عمرو)

المقنع في معرفة رسوم مصاحف أهل الامصار مـع كتاب النقط · تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠م ·

دينيت ـ دانييل

الجزية والاسلام ، ترجمـه عن الانكليزية الدكتـور فوزي **فهيم** جاد الله ، بيروت ١٩٦٠ ·

الريس ـ محمد ضياء الدين

الخراج والنظم الماليـة للدولة الاسـلامية · الطبعـة الثانيـة ، القاهرة ١٩٦١ ·

السيد سالم ـ عبد العزيز

تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ·

الضبي ـ أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة

بغيـة الملتمس في تاريـخ رجـال أهـل الاندلس ، تحقيـق J. Ribera; F. Codera مدريد ١٨٨٥ ·

الطليطلي ـ صاعد بن أحمد (أبو القاسم)

طبقات الأمم ، مطبعة السعادة بمصر ، دون تاريخ ·

العبادي ــ أحمد مختار

الصقالبة في اسبانيا ــ رسالة ابن غارسية • مدريد ١٩٥٣ •
دراسات في تاريخ الأندلس والمغرب •

القزويني ــ زكريا بن محمد بن محمود

آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م •

ليفي پروڤنسال

الاسلام في المغرب والاندلس ، مجموعة مقالات للمؤلف ترجمها السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٦ •

المراكشي ــ عبد الواحد

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م •

المسعودي ــ علي بن الحسين بن علي •

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٦٥ •

المقري التلمساني ــ أحمد بن محمد

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب • تحقيق محمدمحي الدينعبدالحميد ، القاهرة١٩٤٩ •
التنبية والاشراف ، تحقيق عبد الله اسماعيل الصادي ، ١٩٣٨ •

المقريزي ــ تقي الدين أحمد بن علي

اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ •

مؤلف مجهول

أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم ، تحقيق E. Lafuente Alcantara ، مدريد ١٨٦٧ •

مؤلف مجهول

ذكر بلاد الاندلس ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ٨٥ •

مؤلف مجهول

مفاخر البربر ، تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ •

مؤنس ــ حسين

فجر الاندلس ، دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الأموية • القاهرة ١٩٥٩ •

المراجع الأجنبية

Aguado Bleye

Historia de España, T.I. Madrid 1954.

Allison Peers (E)

El Misticismo Español, Buenos Aires 1947.

Asin Palacios (M)

Ibn Massarra y su Escuela, Obras Escogidas,
T.I., Madrid 1946.

Carlos Diehl

Grandeza y Servidumbre de Bizancio, traduccion
Castellana, Madrid 1963.

Codera y Zaidin : (F)

Numismàtica Aràbigo - Española, Madrid 1879.

Dozy (R)

Histoire des Musulmanes d'Espagne, (2e) Leyde 1932.

Dozy (R)

Recherches sur l'Histoire et la litterature de l'Espagne
pendant le moyen age, Leyde, 1881, (2vols).

D. M. Dunlop

Arabic science in the west. 1958.

Eduardo Saavedra

Estudio sobre la Invasion de los Arabes en Espana.
Madrid 1892.

Elias Teres

Linajes Arabes en « al-Andalus », segun la **« jambara »** de Ibn Hazm, Al-Andalus, vol XXII, Fasc. 1-2.

A. A. El-Hajji

Andalusian Diplomatic Relations With Western Europe During the Umayya Period, Beirut 1970.

Elias Teres

Literature Arabigo - Española Islamologia, Madrid, 1952-1954.

Elias Teres

Abbas Ibn Firnas, Al-Andalus, vol. XXV, Fasc. 1. 1960

Elias Teres

Sobre el vuelo de Abbas Ibn Firnas, Al-Andalus, vol. XXIX, Fasc. 2. 1964.

J. Garcia Mercadal

Viajes de Extranjeros por Esnaña y Portogal, Madrid, 1952.

Isidro de las Cagigas

Los Mozarabes. Madrid, 1947-1948.

Joaquine valvés

Fuentes Latinas de los Geografos Arabes, Al-Andalus, vol. XXXII, (1967). P. 241-261.

Karl Rolh

Cultura del Imperio Bizantino, Traduccion castellana (3ed)) Barcelona, 1952.

J. Lacam

Les Sarrazins dans le haut Moyen Age Françàis, Paris, 1965.

Lévi Provençal (E)

Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris 1951.

Lévi Provençal (E)

La Description de l'Espagne d'Ahmad al-Razi, Al-Andalus, vol. XVII, Fasc. I, 1953.

Luis G. De valdeavellano

Historia de España, T. I, (4ed), Madrid 1968.

Manuel Torres

España Visigoda, (Historia de Espana, T. III) Madrid 1963.

Menendez pidal (R)

Castilla : la tradicion, el Idioma, (3ed), Madrid 1955.

Menendez pidal (R)

El Idioma Español in sus primeros Tiempos, (5ed), Madrid 1957.

Menendez pidal (R)

Flor nueva de Romances viejos, Buenos Aires, 1963.

M. Merhof

Esquisse d'histoire de la Pharmacolgic et botanique chez les Musulmans d'Espagne, Al-Andalus, vol. III, P. 1-41.

Perez de Urbel (F.J)

Primeros Contactos del Islam con el Reino Asturiano, Arbor, Abril, vol. XXIV, 1953.
Origen del Reino de Pamplona (Al-Andalus, vol. XIX:

Philip Gosse

Los Piratas del Norte, (3ed), Mexico 1954.

Primera Cronica General, que mando componer Alfonso el sabio y se continuaba bajo Sancho IV en 1289, publicada por (R) Menendez Pidal, Madrid 1955.

Ribera y Tarrago (J)

Disertaciones y Opusculos, 2 vols, Madrid 1928.

Torres Balbas (L)

Arte Hispano-Musulman hasta la Cadia dél Califato, (H.E, vol. V), Madril 1957.

Torres Balbas (L)

Los Contornas de las Ciudades Hispano-Musulmanes, vol. XV, 1950, Fasc. 2.

Toynbee (A.J)

A Study of History, London, 1955.

Washington Irving

Cuentos de la Alhambra, Madrid 1959.

Werner Wcichl

« al-andalus » Al-Andalus, vol. XVII, 1952, Fasc. 2.